هذا العدد

لأأريد أن أوحي إلى القارىء بشيء ، فقراءته لهذا العدد من المعرفة هي التي ينبغي أن تكون مصدر الإيحاء الوحيد ، لكنني أحاول أن أقول انني شديد الحماس لهذا العدد .

فالدراسات الفكرية ، السياسية منها والأدبية ، التي يضمها العدد ، تقع في مستوى من الجودة والأصالة والابتكار لايجتمع في عدد واحد من مجلة فكرية عربية .

إن دراسة الأستاذ فوزي الكيالي عن حرب تشرين لا ترتفع إلى مستوى هذا الحدث الخطير فحسب ، وإنما ترتفع في الوقت نفسه إلى مستوى رفيـــع من حسن الأداء وجودة التعبير وقوة المحاججة . ودراسة الدكتور جمال حمدان عن الحرب الخامسة تعيدنا مرة أخرى إلى هذه المقدرة الهائلة ، التي تتوفر لدى الكاتب ، على الجمع بين مستويين من اللغة على صعيد واحد ، مستوى السياسة ومستوى الأدب .

لقد قرأت للمؤلف معظم مؤلفاته ، وفي مقدمتها « شخصية مصر » ، هذا الكتاب الذي يفصح عن عبقرية عربية تسهم في بلورة ملامح عصر عربي جديد . وفي كل مرة أقرأ له ، أشعر بأن هذا الكاتب العظيم يزداد تألقاً . وأعتقد أن دراسته عن الحرب الخامسة تشكل امتداداً لكتابه « ٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية » الذي كان للمعرفة شرف نشر بعض فصوله قبل صدورها في الكتاب . أما دراسة الدكتور شكري فيصل « نحو حضارة عربية جديدة » فانها تمثل إسهاماً جاداً في

بلورة معالم دعوة إلى بناء حضارة عربية جديدة تقوم على وحدة هذه الأمة وعلى قيمها وعلى موقعها المتفرد والمتميز من خارطة العالم السياسية والثقافية والحضارية على وجه الإجمال . وقد خص الدكتور أنور عبد الملك « المعرفة » بمقابلة هي أشبه ما تكون بمقال طويل مقسم إلى فقرات. إن هذه المقابلة التي أجراها الصديق بدرالدين عرودكي في باريس،والتي أعتقد أنها تصلحلأنتكونأساساً لحوارمفتوححول مجموعة المسائل التي تثيرها المقابلة ، هي المدخل الذي أراده الدكتور أنور عبد الملك للتعاون مع المعرفة التي تعتز بأن ينضم إليهامفكر من هذا الطراز .

ثم هناك هذه المجموعة المختارة من الدراسات النقدية . صحيح أن الدراسات ليست في مستوى واحد ، لكن الصحيح أيضاً هو أن في هذه الدراسات مستوى من النظرة النقدية ليس موضع خلاف ، وأخص بالذكر دراسة خلدون الشمعة « مدخل لدراسة الحركة الأدبية المعاصرة في سورية » التي تتفرد بمقدرة خاصة على التصنيف والتبويب ، والتي تتميز بمنهجية لا تتوفر إلا في عدد محدود جداً من الدراسات النقدية العربية .

يبقى بعد ذلك الشعر والقصة ، وقد استحسنت أن يكون عبد الوهاب البياتي وزكريا تامر وحيدين في هذا العدد ، فالإثنان يمثلان مدرستين كاملتين في الشعر والقصة ، والإثنان يتميزان بمقدرة على الأداء قلّ أن نجد لها مثيلاً في لغتنا العربية المعاصرة .

رئيس التحرير

حَرب تشرين

مرّة أخرى

فوزي الكيالي

ما أكثر الموضوعات الفكرية والفنية والأدبية التي كان يمكن أن تكون مدار حديثي اليكم اليوم ، وربما كانت كلها أكثر امتاعاً من الحديث عن الحرب ، هذا الموضوع الذي وجدته يفرض نفسه علينافرضاً من خلال مانعيش منظروف ، وما نتوقع من احتمالات ، وما يدبر لنا من أمر ، في وقت كنا ولا نزال نشعر فيه بأن هذه الظروف التي نعيشهاانما هي ظروف مفتعلة فرضت علينا وعلىشعوبنا

(★) نص المحاضرة التي القاها الاستاذ فوزي كيالي في بيروت بدعوة من المجلس الثقافي للبنان الشمالي .

وعلى أوطاننا فرضاً ، وأقحمت نفسها في حياتنا اقحاماً لاحيلة لنا فيه ولا خيار ، ولا سبيل لنا لأن نتجاهلها أو نتجاوزها الا اذا كنا على استعداد لأن نتجاهل أثمن قيم الحياة لدينا ، أرضنا ، وتاريخنا ، ومستقبل أجيالنا ، والا اذا كنا على استعداد لأن نتجاوز وجودنا ذاته .

اسمحوا لي ان اعترف امامكم بأنني اخترت ان يكون موضوع حديثي اليكم عن الحرب ، لاحباً في الحرب ، ولا تغنياً بامجادها ، ولا تمجيداً لما تحدث من قتل وتخريب وتدمير ، فالحرب كانت منذ الأزل عدوة الشعوب ، تستنزف طاقاتها ، وتدمر ما بنته من حضارات وما شيدته من حواضر ، وتشيع الخراب والدمار بين جنباتها ولا تخلف لها إلا الآلام الممضة والأحزان الكثيفة السوداء ... ونحن شعوب هذه المنطقة من العالم كنا وما زلنا أكثر الناس كرهاً للحرب ، لأننا كنا وما زلنا أكثر الناس حباً للحياة واقبالا عليها واحتفالاً بها ، وسعياً وراء اغنائها واستمرارها وتخليدها ... خلدناها في فنننــا ، ومجدناها في ادبنا ، ولطالما اجهدنا السعي والتفكير لتجاوز الموت والمحافظة على الحياة ، حتى اذا مافاتنا ذلك ، انصرفنا الى الايمان بالعودة الى الحياة مرة اخرى بعد الموت وبرغمه وربما شغلنا العمل والاستعداد لضمان هذه العودة عن كل ماعداه ، كل ذلك من اجل ان تبقى الحياة وتخلد ، ومن اجل ان تستمر وتتجدد . صنعنا حياتنا كلها على هذا الاساس ، قبورنا ، معابدنا ، هياكلنا ، طقوسنا ، وما وضعنا من قوانين ، منذ حمورابي ، ومــا انزلته علينا السماء وعلى انبيائنا من شرائع وديانات منذ عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

الدعوة الى السلام دعوتنا منذ آلاف السنين ، ديناً وعقيدة وادباً وفناً . وحتى في جاهليتنا كان شعراؤنا يندّدون بالحرب ويدعون الى السلام ، فهذا هو شاعرنا زهير بن ابي سلمى داعيــة المحبة والســـلام يشهر بالحرب في شعره ويحض الناس على اجتنابهـــا ويدعو الى التفاهم ونبذ الحروب ، وعلى هذه الأرض بالذات نزلت شريعة عيسى ومحمد ، رسالتا السماء الى الأرض ، تدعوان الى الاخاء والسلام والتفاهم والمحبة بين الناس جميعاً .. كتب عليكم القتال وهو كره لكم .. واذا جنحوا للسلم فاجنح لها .. وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين . طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض . من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك .

... ومنذ القديم كان الهنا اله العالمين وليس الهاً خاصاً بنا ، ولذلك لم يكن هنالك

أي مبرر ليميز شعباً على شعب أو أمة على أخرى ، كما لم يكن الهاً عدوانياً يحب القتلة والمجرمين ، ويحض على سلب مال الغير أو الاستيلاء على اراضيهم وديارهم واوطانهم ، [يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم] هذا بينما كانت آلهة أخرى توغل في تنمية روح العدوان عند شعوبها ، او هكذا صورتها تلك الشعوب جبارة متعطشة أبداً للحرب وللقتل ، وللحرق والسلب والتدمير .

وليس لغواً من القول ان تحيتنا التي نبادر بها الناس حين نلقاهم : السلام عليكم ، وليس بدون معنى ان الناس في الجنة كما صورها قرآننا ، تحيتهم فيها سلام . وليس صدفة ان كان وطننا عبر التاريخ وطناً لكل الأديان ، ولجميع المذاهب ، ولسائر الطوائف ، لتعايش متآخية ، وتتجاور متراحمة ، وتتحاور متسامحة ، وتلتقي على محبة ، وعلى أمل اللقاء على صعيد الخير العام ، خيرها ، وخير الناس أجمعين ، وخير الكون كله .

ولهذا فلقد كانت الحرب أبداً ـ وعبر تاريخنا كله ـ ليست من نتاج هذه الارض ولا من غرسها ، الا ان تكون حملاً لرسالة ، أو دفاعاً عن حق ، أو ذوداً عن الحياة وقيمها الغاليات ، لقد كانت الحرب ابداً وافدة على ارضنا ، تفد اليها من الغرب كما تفد اليها من الشرق ، تداهمها كالحمى وتغزوها كالطاعون ، وتحملها اليها رياح المطامع والجنون وتنقلها اليها اطماع مفتونة ، ورغائب مسعورة ، وشهوات للفتح والسيطرة والنهب والتحكم ، حتى اذا ما اصطدمت بارادة الحياة على هذه الارض ، هذه الارادة القديمة التي تعمر هذه البلاد منذ بدء الخليقة ، انهزمت الحرب وتراجع الموت ، وتكسرت أمواجه موجة في أثر موجة ، وانتصرت الحياة مرة أخرى بعد الاف المرات التي انتصرت فيها امتنا على جحافل الغزاة وقوافل المستعمرين .

وكان من المعقول ومن الطبيعي ان يكون حديثي اليكم اليوم في موضوع من الموضوعات الثقافية ، وعن بعض شؤونها وشجونها . وما اكثر هذه الشؤون والشجون. ولكن أية ثقافة نريد ؟.. وهل الثقافة في جوهرها الا تعبيراً عن موقف واع ومحدد من الحياة ومن الوجود ؟.. وهل هي الا وعي أعمق للحياة ، وقدرة اعظم على حمايتها ، وتطويرها ، والارتفاع بها في مراقي الحق والخير والجمال ؟.. وعندما تكون الحياة ذاتها مهددة ، وعندما يكون الوجود نفسه في خطر ، فهل يمكن ان يكون موقفنا كمثقفين كموقف فلاسفة بيزنطة الذين كانوا يختلفون حول اصل الدجاج هل هو من البيض أم إن

اصل البيض من الدجاج ، بينما كان محمد الفاتح يقتحم عليهم أسوار مدينتهم ؟ . أيّ ثقافة نريد اذن ، إلا تلك الثقافة التي تستطيع ان تجند نفسها وان تجندنا معها للدفاع عن الحياة ولو بالموت ، وتمكننا من ان نحيط وجودنا بسياج من القوة يحميه ويعززه ويرويه ولو بماء الحياة ذاتها ، اذ في ظل مثل هذه الحياة النشطة الفاعلة القوية يمكن الثقافة ان تنمو وان تنفتح وان تزدهر أدباً وفناً وعلماً ، وان يتجاوز الوجود نفسه ليصبح مرة أخرى خلقاً فوق الخلق وابداعاً يتجاوز الابداع . والا فان الكلمة عندما يقع الانفصام بينها وبين الفعل وعندما لاتكون بنت المعاناة تفقد معناها ، تتجوف ، تصبح كالمستنقع وتفقد قدرتها على الالهام ، لانها تكون صكاً بدون رصيد . وبدلاً من ان تصبح الكلمة بداية فعل تتحول الكلمة الى بداية كلمة وتموت مطعونة بنفسها .

في بلدنا ، في سورية ، قبل حرب تشرين ، خجل المدرسون من طلابهم ، لانهم كانوا خجلين من أنفسهم ، اضطربوا ، تمردت الكلمات على ألسنتهم ، استعجمت اللغة في أفواههم ، وكان يحس الواحد منهم حين كان يلقي درسه انه ليس هو الذي يلفظ الكلمات وانما الكلمات هي التي كانت تلفظه ... ووقف الآباء امام أبنائهم صاغرين ، يجللهم الخزي والعار ، وعندما كانت القرائح البكر تتفجر في وجوههم بأسئلتها العفوية المباشرة ، كانت الرؤوس الوقورة تخونها القدرة على الرد بما يمكن أن يحفظ للآباء الحد الادنى من الاحترام لدى أبنائهم .

وانطلقت الألسنة بعد حرب تشرين من عقالها ، وانترعت الكلمات بالمعاني ، وغدت أسلس على اللسان ، وأعذب على السمع ، وأوقع في القلب ، ومن هنا ، ولأن الكلمة العربية اخضرت وأزهرت في وطننا بعد حرب تشرين وعادت اليها نضارتها بعد أن جفت وذوت ويبست حتى كادت تصبح حطباً ، كان لا بد لي وأنا ألبي دعوة كريمة للمجلس الثقافي في المتن الشمالي من لبناننا الحبيب ، لالقاء كلمتي هذه ، من أن أتحدث عن حرب تشرين من بعض زواياها ، وفاء مني لأرواح شهداء أمتنا الأطهار الذين قال عنهم رئيسنا حافظ الأسد أننا لن نحني رؤوسنا بعد الله إلا لهم . شهدائنا الذين ردوا الحياة الى كلماتنا بدمائهم ، والذين كان لتضحياتهم العظيمة كل الفضل في أنهم ملأوا من جديد حديثنا بالمعنى الصادق ، الذي يستمد صدقه من الفعل في أرقى صوره ، من التضحية وردوا الى اللغة مضامينها الحقيقية لتعود مرة أخرى أداة صالحة للتخاطب بين الناس ، مما يساعدنا على أن ندير فيما بيننا اليوم حديثاً مفيداً وجدياً ، والا فكيف كان يمكن ان نتفاهم اذا كانت الألفاظ خاوية من أي معنى ومعزولة عن أي فعل .

لقد قلنا نحن العرب في حرب تشرين وكتبنا عنها كلاماً كثيراً ، ولكننا لا زلنا بعيدين في اعتقادي عن ادراك حقيقة ما وقع خلال السبعة عشر يومـاً التي استمرت خلالها الحرب .

ويكفي لاعطاء صورة عما كانت عليه اسرائيل من ذعر ورعب واضطراب خلال الأيام الأولى من الحرب ان أنقل هنا الآراء والتصريحات الاسرائيلية عن هـذه الفترة بالذات .

قبل حرب تشرين بأيام قليلة بل بساعات كان قـادة اسرائيل يملأون الدنيا بتصريحاتهم عن قوة اسرائيل القاهرة في المنطقة ، وعن جيش اسرائيل الذي لا يغلب ، وعن يده الطويلة التي تستطيع أن تمتد فتطال عواصم العرب جميعاً حيثما كانت ... وكانوا يغذون نفوس اليهود في العالم بحلمهم الاسطوري عن دولة اسرائيل الكبرى من الفرات الى النيل .

وبدأت الحرب وفي ساعات تغير كل شيء ..

جاء في كتاب « التقصير » الذي ظهر في اسرائيل باللغة العبرية بعد حرب تشرين والذي حرره عدد من الكتاب ومراسلي الصحف الاسرائيليين ، انه في اليوم الثاني للحرب قال السيد موشيه دايان للسيدة غولدا مائير وهو يشرح لها انطباعاته عن زيارته للجبهة « اننا نفقد بيتنا الثالث » ، اشارة الى أن دولة اسرائيل الحالية هي الدولة الثالثة لليهود في التاريخ .

ويعلق مؤلفو الكتاب على هذا التصريح بما يلي :

« كان تنبؤاً مريعا ، عبر جيـداً عن وضع دولة اسرائيل يوم ٧ تشرين اول . وفي أقل من ٢٤ ساعة تحولت اسرائيل من دولة عسكرية كبرى ، حتى بالمفاهيم العالمية ، دولة اصبح جيشها رمزاً ونموذجاً لجيوش العالم ، دولة احرز جيشها قبل ست سنوات فقط نصراً يعتبر من ألمـع وأكبر الانتصارات في تاريخ الحروب العصرية ، الى دولة تقاتل بشراسة من أجل وجودها بالذات بينما يخيم عليها شبـح الدمار » .

ويتسـاءل المؤلفون الاسرائيليون بعـد ذلك « كيف يمكن أن يحدث مثل هـذا التحول الكبير المذهل ، خلال ساعات قليلة كهذه » ؟..

وورد في مكان آخر من الكتاب مايلي :

« يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول ١٩٧٣ خيم ظل لكبة على دولة اسرائيل » .

ومنـذ طلوع فجر ذلك اليوم حتى غروب شمسه ، كان مصير اسرائيل ، كدولة متوقفاً على قدرة الصد . ولم تتعرض اسرائيل منذ اصبحت دولة مستقلة وذات سيادة، وخلال خمس وعشرين سنة من قيامها ، لخطر الدمار بصورة ملموسة كما حـدث في ذلك اليوم المصيري . « كان بينناوبين القضاء علينا خطوة واحدة » . هذا ما قاله بنحاس سبير وزير المالية في حكومة اسرائيل .

وورد في مكان آخر من نفس الصفحة (٢٠) من ذات الكتاب مايلي ،

« لقد كان مصير المعركة معلقاً بشعرة ، ولو انتصر السوريون في هذه المعركة ، لكان الطريق أمامهم مفتوحاً الى جسر بنات يعقوب ،حيث لا يبقى سوى خطوة للوصول الى روش بينا ، وصفد وكريات شمونة والجليل الاعلى » .

نحن لا نريد أن نسترسل في نقل مثل هذه الاقوال التي تدل بشكل قاطع على أنه كان في يدنا نحن العرب في ٦ تشرين أن نحرر الارض العربية المحتلة في عـام ١٩٦٧ وأن نعيد اصحاب الارض الشرعيين الى ديارهم لو أننا دخلنا الحرب بحشد عربي أوسع، قبل المعركة لا خلالها ، ولولا التدخل الامريكي المباشر في المعركة الذي انقذ اسرائيل من هزيمة كاملة محققة : يقول اريك في جريدة الوموند : ان العرب كادوا أن يدمروا اسرائيل كلها لولا طائرات النقل الامريكية التي نقلت اليهم الذخيرة والطائرات والاسلحة الحديثة ، فلولا هذه المساعدات العاجلة لما أمكن لاسرائيل أن تواصل الحرب » بل لولاها كما يضيف تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية في السويد لكان الطريق الى تل ابيب نفسها ورأساً مفتوحاً أمام القوات المصرية تماماً مثلما كان الطريق الى القاهرة مفتوحاً أمام القوات الاسرائيلية في عام ١٩٦٧ لقد اثبتت المعركة ان اسرائيل ليست «فوق الهزيمة » وانما قابلة للهزيمة ، بل ومهزومة فعلا ! وكما وصفها البعض في سخرية بليغة كما هي لاذعة « اخيراً اثبتت حرب اكتوبر ان الله ليس يهودياً على الاقل اله الحرب » .

وعلى هذا الاساس فاننا نستطيع أن نقول بأن معركة اكتوبر تمثل نقطة التحول الحاسم في تاريخ العرب الحديث ، أو أنها خط التقسيم التاريخي الفاصل

في الصراع العربي الاسرائيلي، وانها نهاية لمرحلة من هذا الصراع تميزت بالانتصارات المتتالية السهلة الرخيصة لاسرائيل الى أن جاءت حرب تشرين فكانت هي نقطة الانكسار في المنحنى البياني لهذا الصراع وكانت النهاية لذلك الخط الخطأ النازل ابدأ منذ عام ١٩٤٨ الذي كان يعبر عن الخلل الفادح في توازن القوى بيننا وبين اسرائيل ولكن اهمية حرب تشرين لاتظهر على حقيقتها من خلال كونها نهاية لمرحلة مضت بمقدار ماتظهر من خلال كونها بداية لمرحلة جديدة ونحن في هذه الكلمة نحب ان نتحدث عنها كبداية بكل مايطرحه علينا هذا الفهم .

وحتى نتمكن من فهم حرب تشرين كبداية لمرحلة جديدة لا بـد من أن ندرك اولاً بأن تأثيرات حرب تشرين السياسية والاقتصادية والعسكرية على المستويين المحلي والدولي كانت اكبر بكثير من المعركة نفسها ومن حدود ميدانها المباشر . وان نتائجها المستقبلية الكامنة اكبر من نتائجها الآنية الحاضرة ، وغير المباشرة اكبر من تلك المباشرة .

كما أن نتائجها البعيدة المدى اكبر من نتائجها القصيرة المدى ، ويمكن أن نعبر عن هذا كله بطريقة أخرى وفي صيغة مركزة فنقول ان نتائج ٦ اكتوبر هي « بالقوة » أكبر منها « بالفعل » ، وانها معلقة بالمستقبل اكثر مما هي محققة في الواقع .

ولست أستطيع ان أدعي بأنني قادر في هذه العجالة على الاحاطة بهذه النتائج المتوقعة أو الممكنة جميعها أوجلها ، ويكفي ان أعدد أهمها لأنتقل بعد ذلك الى الرد على السؤال التالي . . . وبعد الى أين ؟.. الى السلام ؟ .. أم الى الحرب مرة أخرى؟...

أما نتائج اكتوبر الأكثر أهمية في نظري ، هـذه النتائج التي تبقى معلقة على استيعابنا لدروس حرب تشرين وعلى استمرار ونمو التضامن العربي هي :

اولاً : أظهرت حرب اكتوبر العرب كقوة كبرى في العالم ، واذا كان من العسير القول بأن العرب يشكلون بعد « نظاماً سياسياً » مستقلاً في المجتمع الدولي. فان المؤكد

أنهم أصبحوا يزحفون حثيثاً نحو مركز بارز من مراكز القوة العالمية المتعددة الاقطاب وقد تحدثت الصحافة العالمية بالفعل عن العرب المنتصرين كقوة كبرى أو شبه كبرى ، مرشحة لمركز « القوة السادسة » في عالم ما بعد الوفاق وبعد مضي نصف عام على توقف القتال عاد التقرير السنوي لمعهد الدراسات الاستراتيجية بلندن فأكد هذا الحكم بصيغة موضوعية وقاطعة فقال : « ان حرب اكتوبر بسلاحيها العسكري والبترولي ، قد جعلت من العرب قوة سادسة في العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوربا الغربية » .

والواقع أن العرب يملكون كل خامات القوة الكبرى ، مساحة أرض ، وتعداد سكان ، وموقعاً جغرافياً ، وموارد طبيعية ومستوى حضارياً . الى جانب كل ذلك الدخل البترولي الهائل الذي يقدر بأرقام فلكية ، وما يعطيه ذلك من امكانات هائلة على صعيد القدرة النقدية والمالية .

هذه العناصر كلها كانت دائماً وحتى وقت قريب مجرد امكانات كامنة بالقوة لا كائنة بالفعل ، وكان هدف السياسة الاستعمارية العالمية التقليدي هو منع قيام قوة قومية كبرى في هذا الوطن بأي ثمن ، وكانت لعبة تمزيق المنطقة أولاً واثارة التناقضات الداخلية منها . ثم عملية خلق اسرائيل فيها ثانياً ، هي أدوات تنفيذ تلك السياسة ، وكان دور اسرائيل الأول هو تعقيم القوة العربية باستمرار ومنع تحويل الممكن الى واقع . وجاءت حرب تشرين لتفتح الباب أمام انطلاقة عربية عارمة يقدر لها أن تغير وجه المنطقة تغييراً جذرياً خلال عقد واحد من الزمن . اذ يكفي ان نحسب اليوم مجموع الأموال التي توظف في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الوطن العربي كله لندرك الاحتمالات الهائلة التي يحفل بها المستقبل القريب في مجالات التقدم الحضاري برغم كل العوادم والتلف الذي تتعرض له هذه الامكانات بسبب ظروف التخلف والتجزئة وبسبب ضعف التخطيط والتبديد الهائل الذي يلحق بالموارد المتاحة .

٢ — اننا نستطيع أن نقول واثقين أن الزمن أصبح يعمل لمصلحتنا .

فاذا قارنا صورة الحرب بين العرب واسرائيل عام ١٩٦٧ وصورتها في عام ١٩٧٣ فاننا نستطيع أن نكون فكرة عن نوع الدور الذي أخذ الزمن يؤديه في مجرى الصراع بين العرب واسرائيل .

ولقد عبر أحد المعلقين العسكريين البارزين في الغرب على ذلك بقوله « ان

الطريقة التي حارب بها الجندي العربي في عام ١٩٧٣ ضربت التفوق الاسرائيلي المطلق، وتلك كانت واحدة من أكبر حقائق الجولة الرابعة بين العرب واسرائيل ، وهي على هذا الأساس نذير شؤم لاسرائيل في الجولة الخامسة ، ونذير كارثة في السادسة ، وقد تكون نهاية كل شيء في السابعة » .

كانت اسرائيل تبني استراتيجيتها دائماً على جملة من المسلمات التي أثبتت حرب تشرين بطلانها . من هذه المسلمات انه اذا كان الكم في مصلحة العرب ، فان الكيف في مصلحة اسرائيل وسيستمر كذلك ، بل ان الهوة بين التقدم الاسرائيلي والتخلف العربي ستزداد اتساعاً مع الايام . وهذا التفاوت بين الكم العربي والكيف الاسرائيلي لا ينحصر في المجال العسكري فقط وانما يتسع ليشمل الميدان الحضاري كله . من تلك المسلمات أيضاً ، انه من المستحيل على العرب ان يتفقوا على عمل عربي موحد . وحتى اذا ما تحقق ذلك فلن يستمر اتفاقهم طويلاً ولابدمن أن يعودوا الى الاختلاف مرةأخرى.

في مقابل ذلك كانت هنالك مسلمات اسرائيلية كثيرة تدور كلها حول تمجيد الشعب الاسرائيلي ومنحه من صفات التفوق والنبوغ والشجاعة ما يتناسب مع صفات شعب اختاره الله وحده ليسود العالم ويتحكم في العالمين .

وجاءت حرب تشرين لتنسف كل هذه المسلمات ، ولتقضي على جميع هذه المعتقدات الميتافيزيكية التي كانت تشكل جزءاً أساسياً من العقيدة الصهيونية . حتى انهم بدأوا يسخرون منها هم ألفسهم بعد ان رأوا ان الواقع يكذبها ويفضحها .

يقول الجنرال بوفر الخبير الاستراتيجي الفرنسي المعروف « لقد دخل العرب مدرسة الحرب الحديثة وبنجاح » ، وقال بعد ان زار ميادين المعركة في سورية ومصر ، « ان العرب قد حاربوا بأكفأ مستوى يعرفه العصر » . والواقع ان تجربة المعركة قد اثبتت ان التفوق الكمي العربي آخذ في التحول تدريجياً الى تفوق كيفي ايضاً ، وان التفوقين، هذا وذاك ، هما في سبيلهما الى الانتقال نهائياً الى العرب . او كما قال ديفيد اليعازر رئيس اركان العدو « لقد فوجيء الجيش الاسرائيلي بأن الكم المصري قد تحول الى كيف » .

يقول ناحوم جولد مان « رئيس المؤتمر اليهودي العالمي السابق » في احدى مقالاته في جريدة هاآرتس تحت عنوان « اسرائيل امام واقع جديد » .

« ان اصل التشاؤم والكآبة والقلق عند اغلبية الشعب اليهودي في اسرائيل كما

في المقترب انما هو الانهيار المفاجيء للمفاهيم والعقائد الواهمة التي عشنا عليها ، وشجعنا على ذلك انتصارات اسرائيلية خلال عدد من السنوات .

فاذا كانت الحقائق كما اظهرتها حرب تشرين هي كما يلي :

١ — ان التفوق الكمي هو ملك للعرب لاينازعون فيه . وهو يتعاظم يوماً بعد يوم والمئة مليون عربي ستصبح ٢٠٠ او اكثر في مدى ربع قرن وحتى عام الفين على الاكثر .

٢ — ان التفوق الكيفي الاسرائيلي الراهن ليس ملكاً لاسرائيل ولا حكراً عليها، وان العرب قادرون في مدى قريب ان يتفوقوا على اسرائيل في مجال الكيف ايضا وجميع العوامل اللازمة لذلك متوفرة لديهم بما في ذلك المال الكثير ، و٢٧ جامعة موجودة حالياً يمكن ان تصبح في خلال السنوات العشر المقبلة ٥٠ جامعة تضم مالا يقل عن مليوني طالب الى جانب عشرات الالوف من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج .

٣ — ان سعة الوطن العربي وتعدد موارده ، ومشروعات التنمية الواسعة النطاق التي تقوم في جنباته ، وتوافر رؤوس الأموال لديه بكميات هائلة ، وبناء الكوادر الفنية اللازمة لادارة مشروعاته ، كل ذلك من شأنه أن يخلق في هذه المنطقة قوة اقتصادية وحضارية تضاهي القوى العظمى في العالم خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً .

أفلا نستطيع أن نستنتج من كل ذلك ان الزمن أصبح منذ حرب تشرين يلعب دوره بشكل واضح وصريح الى جانب العرب ، وان نهاية الصراع اصبحت محتومة على المدى التاريخي إن لم يكن على المدى السياسي وان على اسرائيل لو عقلت ، وعلى زعمائها لو توفر لديهم حسن النية اللازم بالنسبة لشعبهم على الأقل أن يسارعوا الى حل هذه المشكلة ضمن مبادىء الحق والانصاف وبما يتفق مع مقررات هيئة الامم المتحدة ومجلس الامن ، وان يغتنموا هذه الفرصة المتاحة لهم اليوم والتي عرضها عليهم السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية من على منبر هيئة الامم المتحدة تلك الفرصة التي قد لاتتكرر مستقبلاً ؟...

والا فأي مستقبل لدولة لايزيد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين معزولين في هذه المنطقة من العالم اذا ما استمروا في عنادهم واصرارهم على معاداة الشعوب والبلدان العربية

التي تحيط بهم وعلى التنكر لكل مبادىء العدالة الدولية ولقرارات المنظمات الدولية المختلفة ؟..

يقول ناحوم جولدمان تعقيباً على حرب تشرين في جريدة ها أرتس « واذا كان الشعب الاسرائيلي قد اقتنع صميمياً باللا رجوع عن الرفض العربي ، واذا كان مطلق القناعة بان العرب لن يقبلوا اسرائيل على قدم المساواة كجارة وكعضوة في اسرة شعوب الشرق الاوسط . فهنالك استنتاج وحيد يفرض نفسه وهو : ان تأسيس دولة اسرائيل كان خطأ والبرنامج الصهيوني غلطة منذ البداية ولايمكن حتى لاشدنا شوفينية ان يتصور ولو لبرهة واحدة ان ثلاثة ملايين من اليهود قادرون على ابادة كل الدول العربية وافناء مائة مليون عربي يعيشون في المنطقة ، واذا كان الحل الوحيد الذي يرجحه البعض هو ازالة احد المعسكرين ،فسيكون في ذلك نهاية الدولة اليهودية مها يتطاول الزمن الضروري لبلوغ العرب ذلك » .

ولكي ندرك موقف القيادة الاسرائيلية من هذه الحقائق ونوع ردود الفعل التي يمكن ان تصدر ، او صدرت بالفعل عن هذه القيادة تجاه حقائق حرب تشرين من ان نلقى نظرة على الايديولوجية الصهيونية والمناخ الفكري والنفسي الذي سيطر على الناس في اسرائيل .

هنالك فكر ينغلق أحياناً على نفسه كالدائرة ، ولا يتفاعل مع ماهو خارج عنه ، وهذا هو مايمكن تسميته « بالوعي الزائف » ومن اهم خصائص مثل هذا الوعي ، انه يفرغ التاريخ من جدله ويحوله الى اسطورة كما يحول الانسان الى « مثل اعلى » جامد لاعلاقة له بحياة الناس ، انه رؤية زائفة للتاريخ والنفس البشرية ينتج عنها رؤية للواقع السياسي والانساني تنكر امكانات هذا الواقع الحقيقية وتستبدلها بافكار ورؤى من صنع الفكر المجرد .

وقد لخص « دافيد فرايد لندر » المقدرات الفكرية لطالب اليشيبا الاكاديمة اليهودية الدينية في القرن التاسع عشر على النحو التالي : كان في امكان هذا الطالب ان يفتي عما اذا كان من الواجب رجم أم حرق ابنة الحاخام الزانية ، ولكنه في الوقت ذاته كان لايعلم شيئاً عن تاريخ البلد الذي يعيش فيه وحينما كان يتعلم يهود الجيتو لغة جديدة كان يتعلم اللشون هاكدوش : اللسان المقدس او اللغة العبرية . لأن مجرد النظر الى ابجدية الجوييم الاغيار كان يعد كفرا مابعده كفر . يستحق اليهودي عليه حرق عينيه . أي ان العزلة

كانت شبه تامة . بل ان الطريقة التي كان اليهودي يحلق بها لحيته وسوالفه وطريقة اغتساله وانواع الطعام التي يتناولها كانت كلها مختلفة عما يتناوله بنو وطنه من غير اليهود . ومن الناحية الاقتصادية كان الجيتو يقف على الهامش ، فهو كان مركز الربا وبعض انواع التجارة البدائية والحرف الخفيفة مثل الخياطة والحلاقة . في هذا الجو ولدت الايديولوجية الصهيونية .

وقد كان من الممكن ان تولد الصهيونية في الجيتو ثم يكتسحها مسار التاريخ مثلما اكتسح مئات الافرازات الأخرى من قبل ، ولكن ظهور الامبريالية العالمية في اوربا الغربية هو الذي منح الصهيونية بعض الحياة ، وهو أيضاً الذي جعل منها بناء ايديولوجيا شاذا وفريدا . وكان هو في الوقت نفسه العنصر الفعال في تحويل الصهيونية من حلم فاشستي الى حقيقة فاشستية .

ولهذا فالاسرائيليون كانوا أبداً واقعين تحت وطأة الوعي الصهيوني الزائف ، منفصلين عن الواقع ويتحركون ضمن اطار السيناريو الصهيوني المستند الى حلم ميتافيزيكي لامجال لمناقشته ولامجال لاقامة اي جدل بينه وبين العقل او الواقع ، فان استجاباتهم لما حدث في ٦ تشرين ، كانت على الشكل التالي :

أولا — لقد كانت الاستجابة عن طريق الرفض

قبل ٦ تشرين كانت صورة العرب لدى الاسرائيليين والتي عززتها كارثة حزيران ١٩٦٧ هي صورة المنهزمين المتخلفين ضعاف الحيلة ، الذين تمزقهم خلافاتهم وصراعاتهم ومخاوفهم من بعضهم البعض ، والذين قد يتحدثون جيدا وكثيرا ، ولكنهم لايصنعون شيئاً او يقدرون على صنع شيء مجد .

وعندما بدأ العرب استعداداتهم للقتال ، وقد ثبت انه كان لدى القيادة الاسرائيلية في وقت مناسب معلومات كافية عنها ، ابت تلك القيادة ان تعترف بان العرب يمكن أن يقاتلوا فعلا . وأصرت على ان الأمر لايعدو ان يكون مناورة . فالعقل الاسرائيلي عجز عن الفكاك من اسار مااطمأن اليه من أفكار قديمة عن عجز العرب وهو انهم واستحالة اقدامهم على القتال .

ثانياً — الاحتواء

وعندما بدأ القتال فعلا سرعان ما لجأ العقل الاسرائيلي الى محاولة الاحتواء العقلاني في ثلاث مراحل :

الاولى عن طريق التهوين : بتقليل اهمية النصر العربي ، والتهوين من امر الخسائر الاسرائيلية حتى لقد اندفع موشي دايان الى التعليق على سقوط خط بارليف بقوله : ان خط بارليف كان أشبه بالجبن الجرويير الذي يحتوي من الثقوب اكثر مما فيه من الجبن.

والثانية عن طريق التبرير : وكانت كل التبريرات تدور حول محورين أساسيين :

آ — ان المعارك كانت مفاجئة للاسرائيليين .

ب — ان الاسرائيليين لم يكونوا على أهبة الاستعداد للقتال .

والثالثة عن طريق الوعيد : وهو الحلقة الثالثة من حلقات الاحتواء العقلاني الاسرائيلي .الوعيد بسحق الجيوش العربية حتى العظم . ولقد نجحت اسرائيل في نشر تلك الفكرة داخليا ، بل وخارجيا الى حد ما ،بحيث اصبح التساؤل هو : بعد كم ساعة سوف تتمكن اسرائيل من سحق العرب ؟ وتشير التقارير التي نقلتها وكالات الانباء الغربية الى ان الرأي العام الاسرائيلي بدأ يتململ قلقاو لم تمض على القتال اربع وعشرون ساعة بسبب تباطؤ الانتصار الاسرائيلي .

وثالثاً — التنمر

يردد البعض احيانا مثلا سائرا مؤداه ان الضربة التي لاتقضي على الوحش المفترس تزيد من وحشيته وليس اصدق من هذا المثل انطباقا الآن على العسكرية الاسرائيلية والسيكولوجية الاسرائيلية على حد سواء .

ان الموقف الراهن للسيكولوجية الاسرائيلية يكاد يمثل انعكاسا دقيقا لموقف القوة العسكرية الاسرائيلية ، قوة عسكرية عدوانية تعرضت لضربة قوية حقا ، ولكنها — لظروف عديدة لم تكن كافية لان تقضي عليها تماما .

كما أدت معارك تشرين الى تضخيم مشاعر الاضطهاد التي تعتبر المحور الذي تتجمع حوله السيكولوجية الاسرائيلية وتشتق منه معظم ردود افعالها . والشعور بالاضطهاد يبلغ الآن اوجه في اسرائيل تضخما وتضخيما ، بل نستطيع ان نقول ان هذه المشاعر قد وصلت الى ذروة لم تبلغها من قبل في تاريخ اسرائيل .

يقول ناحوم جولدمان : ان الشعب الاسرائيلي الذي بالغ في تقدير قوة اسرائيل يضخم اليوم بالطريقة نفسها ولكن بالاتجاه المعاكس أوجه المواقف السلبية. فقد استحوذ على اسرائيل والمغترب الشعور بان الدولة اليهودية في خطر مميت . وان بقاءها مهدد ، وانه اصبح يلوح في الافق نذير حرب جديدة ربما تنتهي بنصر عربي ويهلاك مئات

الألوف من الاسرائيليين ، فالكآبة واليأس اللذان يدفعان القادة اليهود في اسرائيل بوجه خاص الى ذكر خطر اوشويتز جديدة ، وعودة المذابح ، لامبرر لها ابدا في رأيي .ان اطالة مناخ الكرب الذي يسود حتى اليوم يخشى ان يؤدي الى اعمال يائسة · والى ردود فعل جديرة بأن تزيد من خطر الموقف الموضوعي ، او ان يمهد في اسوأ الحالات لعقدة مسادا خطرة بما يترتب عليه لنتائج لاتدخل في الحسبان .

ماهو نوع رد الفعل الذي يمكن أن ينجم عن وضع يائس متفجر من هذا النوع وماذا يمكن أن يرتكب الذين تتحكم فيهم عقدة مسادا خطرة غير أن يكونوا خطراً على أنفسهم وعلى الآخرين . هذا مايتنبأ به السيد ناحوم جولد مان رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي من خلال مراقبته للحالة النفسية للاسرائيليين بعد مرور عدة أشهر على حرب تشرين .

وعلى هذا الأساس فاننا نستطيع أن نقول بأن القيادة الاسرائيلية لا تملك استثاراً أو توجهاً أو تحكماً في تلك المشاعر الاضطهادية سوى بدفعها الى التفجير تحاشياً من اندفاعها نحو الانفجار . وغني عن البيان أن التفجير المنظم وهو البديل الوحيد للانفجار التلقائي لا يمكن أن يتم إلا من خلال المؤسسة العسكرية الاسرائيلية القائمة أساساً على تنظيم العدوانية الاسرائيلية .

وخلاصة القول فاننا لا نستطيع أن نتصور من الناحية السيكولوجية سوى أن القيادة الاسرائيلية انما تستجمع كل طاقاتها العدوانية الآن وتحشدها وتعدها لعمل عسكري مقبل بحيث تتمكن اسرائيل بواسطته من تدارك ما خلفته حرب تشرين من نتائج ، واستعادة الهيبة الاسرائيلية المفقودة مرة أخرى .

هذا من الناحية السيكولوجية للشعب الاسرائيلي ، فماذا عن النواحي الأخرى العسكرية والاقتصادية والسياسية ، والايديولوجية ؟ . . .

إما من الناحية العسكرية : فان اسرائيل تعلم انها لم تقم ولم تستمر ولن تبقى إلا على أساس واحد وحيد ، منه استمدت وجودها وبغيره تفقده ، هذا الأساس هو القوة · القوة المسلحة ، القوة العسكرية بالتحديد ، وفيما عدا منطق القوة وعامل القهر العسكري ، فان اسرائيل لا تعدو أن تكون خرافة جيوبوليتيكية ، مجرد حزمةمفككة واهية وملفقةمن الاكاذيب الدينية المتهافتة والاوهام العنصرية البارانويية والانحرافات التاريخية المريضة . ان القوة بالنسبة للوجود الاسرائيلي هي شرط البقاء ، بل هي

البقاء نفسه ، وبغير القوة تفقد اسرائيل مبرر وجودها الحقيقي ومعه صميم وجودها نفسه .

ولقد وجدت اسرائيل في حرب تشرين أن القوة تخونها لأول مرة أو تكاد ، ورأت نفسها تضرب ضرباً موجعاً فيقع من جيشها بين قتيل وجريح ما يعادل عشر جيشها على الأقل . ورأت أن مصيرها كله كان معلقاً في بعض لحظات القتال على شعرة ، ولم يبق بينها وبين زوال دولتها الا خطوة واحدة كما قال بنحاس سابير وزير ماليتها .

لذلك عمدت منذ الايام الاولى لوقف اطلاق النار وبصورة دائبة ومركزة الى اعادة النظر في جميع أوضاعها العسكرية مستفيدة من حرب تشرين ومعطياتها وما كشفت عنه من نقاط ضعف وثغرات لتكون أكثر استعداداً وبحيث تستطيع أن تشرك شعبها كله في الحرب حين تقع ، حتى أصبح الشعب الاسرائيلي اليوم كله في حالة استنفار واستعداد كلي للحرب .

لماذا تفعل اسرائيل كل ذلك ؟ .. والى متى تستطيع أن تستمر في العيش ضمن مثل هذه الظروف القاسية جداً في جو التدريب العسكري والتعبئة الكاملة والدائمة ، والى متى يستطيع اقتصادها أن يصمد لمثل هذا الاستنزاف الرهيب ؟ الا أن تكون كل هذه الاجراءات مقدمة لحرب جديدة تشنها اسرائيل على امل ان تمحو بها ما خلفته حرب تشرين من نتائج وتجهض بها احتمالات المستقبل وتقطع الطريق بها على العرب ليعودوا الى حيث كانوا قبل حرب تشرين ؟ ...

من الناحية الاقتصادية : ان اسرائيل تمر اليوم بأزمة تشبه الازمة التي كانت تمر بها في عام ٦٧ قبل حرب حزيران مع اختلاف كبير في الدرجة والشدة فأزمتها اليوم قاسية وطاحنة ولا سبيل لها للخروج منها بغير الحرب .

قبل حرب حزيران عام ٦٧ كانت اسرائيل تمر بأزمة اقتصادية حادة ومستحكمة وكان من ابرز اعراضها تضخم شديد ادى الى سلسلة تخفيضات للعملة والى بطالة قدرت بنسبة ١٠ ٪ من مجموع القوة العاملة وتدهور في مستوى المعيشة وتزايد في عجز الميزان التجاري وميزان المدفوعات ثم تواتر في الاضطرابات والاضرابات ، وكادت الهجرة الخارجة تفوق الهجرة الداخلة ، لذلك خططت اسرائيل لحرب حزيران للخروج من ازمتها وقادتنا نحن العرب للدخول في الحرب ونحن معصوبو العينين ، وكانت الحرب مخرجاً لاسرائيل من ازمتها ، فحل الرخاء محل الانكماش ، وتدفقت القروض والمساعدات على

اسرائيل المنتصرة وتكاثرت « مؤتمرات المليونيرات » من يهود العالم وانهالت عليها الهبات ومشروعات التنمية ، كما عاد ميزان الهجرة اليهودية فانقلب لصالح اسرائيل .

لقد اثبتت التجربة مرة اخرى ان اسرائيل تختنق في جو السلام اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً بينما تتنفس وتزدهر في حالة الحرب ، بشرط ان تكون حرباً منتصرة .

وجاءت حرب تشرين لتكسر هذه القاعدة وتقبلها رأساً على عقب ، وكان للخسائر المالية والبشرية والدعائية والنفسية التي تكبدتها اسرائيل في حرب تشرين تأثير كبير على وضعها الاقتصادي مما أوقعها في أزمة قاتلة وكشف اقتصادها على حقيقته ، وتعرضت اسرائيل لأسوأ ازمة اقتصادية وحالة الكساد عرفتها منذ نشأتها ، فالخسائر الجسيمة في السلاح والمعدات ، ثم نفقات استعاضتها بجديد ، ونفقات القتال والتعبئة وانخفاض الانتاج مع تناقص الصادرات وتزايد الواردات ، كل هذا ادى الى تخفيض العملة بنسبة ٤٣٪ من قيمتها والى اتخاذ سلسلة من الاجراءات الاقتصادية القاسية بما في ذلك ايقاف الاستيراد لعدد كبير من المواد ، مما نتج عنه اضطراب شديد في الحالة الداخلية حتى أصبحت الحياة اليومية شديدة لا تطاق بسبب ارتفاع الضرائب والغلاء الفاحش وقيام سلسلة من الاضرابات المتلاحقة وازدياد حاد في نشاط الهجرة الى الخارج بينما تضاءلت الهجرة الى الداخل .

واذا كانت الولايات المتحدة الامريكية قد استطاعت ان تتحمل عن اسرائيل معظم نفقاتها خلال الحرب وبعدها ، فان قدرة امريكا ذاتها الغارقة في مشاكلها الاقتصادية الخاصة ليست بغير حدود ، وهي تشعر يوماً بعد يوم ان عبء اسرائيل عبء باهظ جداً وربما ساهم في دفع ازمتها في طريق المزيد من التفاقم .

فماذا تضع اسرائيل اذن لتحل مشكلتها الاقتصادية الخانقة ؟ هل تنصاع الى قرارات الامم المتحدة ومجلس الامن وتعيد الأراضي المحتلة في عام ٦٧ سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة وتعترف بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني وتخسر فيما تخسره بترول ومنغنيز سيناء والموارد الزراعية الأخرى من الأرض المحتلة وتخسر فوق كل ذلك مردود ١٥٠ الف عامل عربي موظفون الآن في الاقتصاد الاسرائيلي بأجور منخفضة ؟ وما هو انعكاس كل ذلك على وضعها الاقتصادي العام ، هذا الاقتصاد الذي يمر في مرحلة الاختناق ؟ . ام انها تختار الحرب كمخرج لها من ازمتها القاتلة ؟ . .

من الناحية الايديولوجية : ذكرنا سابقاً ان العقيدة الصهيونية ذاتها قد اخذت تهتز في نفوس الناس في اسرائيل تحت ضربات حرب تشرين وان الكثيرين منهم بدأوا يطرحون اسئلة كثيرة عن مدى صحة البرنامج الصهيوني وعن امكانيات تنفيذه ، وان ما تم من ردود فعل حتى الآن من قبل ابناء الشعب العاديـــين في اسرائيل انما كان تعبيراً موضوعياً عن اهتزاز الايديولوجية الصهيونية وعدم تماسكها ، اضافة الى ان الواقع بكل ابعاده اخذ يزيل هالة الحقيقة الابدية التي كانت تدعيهـا الصهيونية ، اظهر الواقع الموضوعي ان ما تدعيه هذه الايديولوجيا غير قابل للتطبيق ، وان الصهيونيـة كرؤيا ميتافيزيقية ميتولوجية ، لا تستطيع ان تصمد امام التاريخ فحركة التاريخ وما توفره من جديـــد عن طريق نضال الشعب الفلسطيني والامة العربية تضـــع اليوم هذه الايديولوجيا وجها لوجه امام اخطر ازماتهـا .

واذا كانت حرب تشرين قد احدثت كل هذه الشروخ في بناء العقيدة الصهيونيـــة فكيف بهذه العقيدة لو استجابت اسرائيل لدواعي السلام في المنطقة وعادت الى حدودها في عام ٦٧ وهي الدولة التي وجدت لتتوسع لا لتنكمش ، لتتقدم لا لتتراجع ، حتى تبلغ حدودها التوراتية من الفرات الى النيل . فالسلام اذن يتناقض تناقضاً جذرياً مـع العقيدة الصهيونية ومع مطامعها التوسعية .

وسؤالنا الآن: هل يسلم قادة اسرائيل وعتاة الصهيونية فيها بمثل هذه النتائج التي وصل اليها بعض طلاب اسرائيل من خلال تفاعلهم مـع الواقع فيسقطوا النظرية الصهيونية بـكل مطامحها العدوانية من برنامجهم السياسي ، أم يناضلون حتى الموت في سبيل اعادة الاعتبار لهـا في نفوس أبنائهم بحرب جديدة يشنونها على العرب أملاً في أن يمحوا بها كل ما خلفته حرب تشرين من نتائج ؟...

من الناحية السياسـية :

أثناء حرب تشرين وقفت جولدا مائير في الكنيست لتعلن : كما ان لاسرائيل إلهاً واحداً، كذلك لم يبق لها في العالم الا صديق واحد وهو الولايات المتحدة الامريكية، ولو انصفت لأضافت أيضاً جنوب افريقيا ، وروديسيا ، والبرتغال — القديمـة — وبقية الأنظمة العنصرية والفاشية في العالم .

وهكذا وقفت اسرائيل وحيدة في العالم تعاني من عزلة سياسية دولية كاملة، بينما دخلت — في حياتهـا السياسية الداخلية — مرحلة ازمة سياسية مزمنة . فالصراعات

والتصدعات الداخلية ممثلة في الصدامات الحزبية ، وتضارب جماعات المصالح والضغط ، وتحولات الرأي العام ، ثم انهيار مكانة المؤسسة العسكرية ، أصبحت كلها تشكل الملامح البارزة للحياة السياسية الراهنة في اسرائيل .

والكيان الاسرائيلي يعيش منذ حرب تشرين حالة من الحمى ، يرتج ويرتجف بالانقباضات الحادة ، والذبذبات العنيفة الداخلية ، لا لأنه يسلم الروح أو يسلم بالهزيمة ، ولكن لأنه يسعى لرفض التغيرات الخارجية ، والتسليم بها لكي ينهض ويتحداها ، ويبقى مستنداً لاحلامه المريضة ومتحصناً ضمن وعيه الزائف . والصراع الذي يدور في داخل اسرائيل من أجل السلطة ، باعتباره صراعاً من أجل القوة في الداخل ، هو في واقعه صراع من أجل القوة في الخارج ، أي صراع من أجل اعادة ترتيب البيت من الداخل ثم الصمود والتماسك في المحنة ، ثم الانتفاض واستعادة السيطرة في الخارج .

العدو اذن لم يتغير ، ويرفض أن يتغير ، أو أن يعترف بالحقائق الجديدة والواقع الجديد . وقد اعتمدت اسرائيل بعد حرب تشرين خطة سياسية تستند الى اللعب بالأوراق الأربع التالية ، كما حددها البروفسور شاؤول فريدلندر رئيس قسم ومعهد العلاقات الدولية في جامعة القدس .

في مقابلة تمت بين احمد محوري جريدة « يديعوت احرونوت » الاسرائيلية وبين الاستاذ « شاؤول فريد لندر » رئيس قسم ومعهد العلاقات الدولية في جامعة القدس ، وهو كما يصفه المحور رجل علم لامع يحاول دائماً أن يتلمس الوضع بنظرة عميقة وبعيدة المدى ، كان من بين ما دار بينهما من حوار ما يلي :

سؤال المحور : يسود الشارع الاسرائيلي شعور باننا نذهب الى مؤتمر جنيف مضغوطين من جميع الجهات ، فماذا نفعل اذا رفضت جميع مقترحاتنا .

الأستاذ فريد لندر : أشعر بأن هناك مثل هذه الاتجاهات داخل الجمهور، وانا اوافق على ان فرصاً للمناورة ليست كبيرة جداً ، ولكنه ما زال برأيي في

ايدينا اربـع ورقات يمكننا ان نلعب بها في كل وقت وتؤمن لنـــا قوة مساومة كبيرة جداً .

سؤال : ما هي ؟...

الاستاذ فريد لندر : الورقة الأولى والأهم هي امكانية وقف المفاوضات.

معنى ذلك ــ حمل الطرف الثاني على التنـــازل عن مطامحه الاقليمية أو استئناف الحرب (يجب الانتباه هنا الى جملة المطامع الاقليمية وكأن العرب هم الراغبون في التوسع اقليمياً على حساب اسرائيل) ــ ان التهديد من جانبنا بوقف المحادثات يعطينا قوة لا ينبغي الاستهانة بها أبداً .

الورقة الثانية : هي بطبيعة الحال ، وزننا الخاص في الجهـــاز السياسي الداخلي في الولايات المتحدة ولا داعي للاسهاب في الحديث عن هـذا الموضوع ، المعروف لدينا جميعاً .

الورقة الثالثة : والواقعية جداً على الصعيد الفوري هي استغلال التناقضات داخل المعسكر العربي (او خلق هذه التناقضات ما امكن) فنستطيع اذا اردنا ان نبادر الى اتخاذ خطوات نحو سلام منفرد مع احد الخصوم .

الورقة الرابعة : هي طبعـــاً استغلال قدرة الضغط الاقتصادي والمالي للعالم اليهودي .

ان هذا البرنامج الذي يفصح عنه البروفسور فريـد لندر من خلال المقابلة المشار اليها يجسد الخطوط العريضة للاستراتيجية السياسية لاسرائيل بعد حرب تشرين تجسيداً امينا ورائعاً .

فالورقة الاولى هي وقف المفاوضات ، واسرائيل ماضية في اللعب بورقتها هـــذه منذ وقف القتال في حرب تشرين حتى اليوم متذرعة في كل يوم بعلة جديدة ، وبرغم ان اسرائيل كانت تطالب بالمفاوضات طيلة ست سنوات ونيف منذ عام ٦٧ وحتى حرب

تشرين ، فانها عادت لترفض هذه المفاوضات عندما دعيت اليها من خلال مؤتمر جنيف . وهنا لا بد لنا من ان نشير الى ضرورة التنبه الى ما يكون من تناقض دائماً بين ادعاء اسرائيل وقصدها ، تدعي الرغبة في السلام وتقصد الحرب ، وتدعي الحرص على توفير الأمن لشعبها وتقصد الاستيلاء على الاراضي العربية والتوسع على حسابها ، وتدعي الرغبة في المفاوضات وتقصد ارغام الخصم على الخضوع للأمر الواقع والقبول بالسلام الاسرائيلي كما تراه وكما يتفق مع مصالحها .

ولقد تنبه مؤتمر القمة العربي الى ذلك فكان من جملة قراراته الدعوة الى سرعة عقد مؤتمر جنيف ، وعدم الاعتماد كثيراً على المباحثات التي تجري خارجه بدلالة ورعاية احدى القوى الدولية لأن مثل هذه المباحثات لا يقصد منها في النتيجة الا المناورة والمداورة وكسب الوقت لاسرائيل .

واما الورقة الثانية ، فهي الاعتماد على الوزن الخاص لاسرائيل في الجهاز الداخلي في الولايات المتحدة ، واسرائيل ماضية في تأمينها بحيث يصبح هذا الجهاز اداة طيعة تعمل لمصلحة اسرائيل ولو على حساب مصلحة الشعب الامريكي وبما يتناقض معها تناقضاً صريحاً وصارخاً .

ونحن لا نتجنى هنا او نبالغ ، ويكفي الرجوع الى ما قاله رئيس اركان القوات المشتركة الامريكية وما اعلنه السيناتور فولبرايت قبل ايام قليلة حول السيطرة الصهيونية الكاملة على الكونجرس ومجلس الشيوخ الامريكيين ، لنتأكد من ان ما ذكرناه ليس الا الحقيقة مجتزأة .

والواقع أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت تشعر بعد حرب تشرين بأن التناقض بين مصالحها ومصالح اسرائيل في هذه المنطقة أخذ يزداد ويتسع . وبدلا من الدور الذي كانت تلعبه اسرائيل كحامية لمصالح الامبريالية عموماً وللمصالح الأمريكية على الخصوص في وطننا العربي أخذت الولايات المتحدة تشعر بأن اسرائيل اصبحت عالة على هذه المصالح وخطرا يهددها . ولذلك بدأت تظهر في أفق السياسة الامريكية بوادر توحي بامكان قيام تناقض جزئي في المصالح والسياسات من شأنه ان يحول التأييد الامريكي المطلق لاسرائيل إلى تأييد مقيد او مشروط . وهذا ما ترفضه الصهيونية رفضاً قاطعاً . وحتى تتمكن من تحقيق سياستها الرامية الى وضع سياسة أمريكا كلياً في خدمتها ،عمدت الى :

١ ــ العمل على اضعاف الرئاسة الامريكية ووضع شخص فيها مضمون الولاء لاسرائيــل .

٢ ــ تقوية نفوذ الكونغرس وتضخيم دوره في رسم السياسة الامريكية على اعتبار ان اسرائيل قادرة دائماً على ضمان كسب ولاء الأكثرية الساحقة فيه بأساليب كثيرة ومتعددة، اخلاقية وغير اخلاقية .

٣ ــ ضمان رجحان المصالح الامبريالية الامريكية المرتبطة بالمصالح المالية الصهيونية على غيرها من المصالح الاقل ارتباطاً حتى تتحقق نسبة اعلى من المطابقة بين الخطط الصهيونية والخطط الامريكية . ولقد حققت اسرائيل خلال السنة التي انقضت حتى الآن بعد حرب تشرين خطوات واسعة الى الأمام في طريق تأمين هذه الورقة وتدعيمها ، باسقاط نيكسون ، وتأمين فوز عدد أكبر من النواب الامريكيين الموالين لاسرائيل في الكونجرس الامريكي ، وهي تأمل في أن تستخدم نفوذها في انتخابات الرئاسة الامريكية التي ستجري في نهاية السنة المقبلة أفضل استخدام في سبيل السيطرة على السياسة الامريكية واخضاعها لمشيئتها .

أما الورقة الثالثة ، والواقعية جداً على الصعيد القوري كما يقول البروفسور فريد لندر وهي استغلال التناقضات داخل المعسكر العربي ، فان اسرائيل لم تنجح في ان تحقق من وراء اللعب بها أي نجاح حتى الان .

حاولت اسرائيل في بادىء الامروفور ايقاف اطلاق النار ، ان تعزل سورية عن مصر ، ومن حقها أن تتجه أول ماتتجه في سعيها نحو تمزيق الصف العربي ، الى فصل هذين البلدين عن بعضهما ، لأنه لولاهما ،ولولا قيامهما بعمل عسكري موحد في ذات اللحظة لما كانت حرب تشرين اصلا ، ولما كان لها ، لو وقعت ، الا ان تضيف هزيمة جديدة الى سلسلة الهزائم السابقة . حاولت اسرائيل بانجازها اتفاقية الفصل بين القوات على الجبهة المصرية ومماطلتها في انجاز مثل هذا الفصل على الجبهة السورية ان تخلق شيئاً من التناقض بين البلدين وان تثير الشكوك حول نوايا كل منهما تجاه الاخر . وتنبهت القيادة الواعية في البلدين الى ذلك وفوتت الفرصة على اسرائيل ، وجاءت حرب الجولان التي خاضتها سورية منفردة لتجبر اسرائيل على التوقيع على فصل القوات على الجبهة السورية بشروط ماكانت لترضى بها لولا النزيف الدموي والاقتصادي المقلق الذي سببته حرب الجولان لاسرائيل ، في وقت كانت فيه اسرائيل غارقة في صراعاتها الداخلية ، وكان فيه شعبها

يحتاج الى فترة من الوقت يلتقط فيها انفاسه بعد الخسائر الموجعة التي لحقت بـه في حرب تشرين .

ثم حاولت اسرائيل اللعب بورقة الخلاف الاردني الفلسطيني ، وبدت هذه القضية معقدة في وقت من الاوقات بحيث يستحيل حلها ، واستراحت اسرائيل إلى هذا الوضع الذي ظهر فيه وكأن تأخير انعقاد مؤتمر جنيف كان بسبب العرب وبسبب خلافهم على من يمثل مصالح ومستقبل الضفة الغربية والشعب العربي الفلسطيني عموماً، هل هو منظمة التحرير الفلسطينية أم الحكومة الاردنية .

وجاء مؤتمر القمة العربي وحسم هذا الخلاف بقرار واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني سواء أكان داخل الارض الفلسطينية أم خارجها .

ولكن اسرائيل وبرغم قيام الخلاف بين منظمة التحرير وبين حكومة الاردن بقيت تتابع خطها الثابت وخطتها المقضة في فصل سورية عن مصر ، نرى ذلك واضحاً في البيان الوزاري الذي تقدم به رابين الى الكنيست ، ونجد ذلك واضحاً في تصريحات زعماء اسرائيل وقادتها : من ذهب منهم ومن بقي ، من كان منهم الى جانب الحكومة ومن كان منهم في صفوف المعارضة ، هذا الهدف بقي هو الهدف الاثمن والاغلى بالنسبة للسياسة الاسرائيلية في هذه المرحلة وفي كل مرحلة . لذلك فان اسرائيل تكيل في تصريحاتها لكل من سورية ومصر بكيلين مختلفين ، تظهر الرضى والتسامح والتساهل لجانب ، وتظهر العناد والعجرفة والاستفزاز للجانب الآخر . انها تتصلب في الجولان وتتساهل في سيناء ، الحكم في سورية راديكالي ومتشنج ، ويقود العرب الى حرب خامسة ، وسورية اصبحت ترسانة سلاح سوفيتي (وكأن اسرائيل لم تكن طيلة حياتها ترسانة سلاح امريكي ، حتى سميت بأنها حاملة الطائرات الامريكية التي لا تغرق) ... لماذا تفعل اسرائيل ذلك ؟ .. لانها تريد بذلك ان تهيء مسرح العمليات العسكرية للحرب القادمة فتقاتل على جبهة واحدة لا على جبهتين ، ولانها بمجرد ان تتحقق من انها استطاعت ان تصل الى غرضها في هذه النقطة بالذات فان الحرب واقعة بدون شك . لأن اسرائيل عندئذ تستطيع ان تغامر بحرب ضد سورية قد تبدوا احتمالاتها اقرب الى مصلحة اسرائيل منها الى مصلحة العرب ... وعندما يتحقق لاسرائيل ذلك لا تعدم الوسيلة لأن تضرب مصر كما ضربت سورية .

ان جوهر السياسة الاسرائيلية منذ حرب تشرين حتى الآن انما يدور حول هذا المحور المركزي ، ومن حقها ان تفعل ، وهي لن تعدم الوسيلة لكي تعطي لمشروعها الواحد والثابت في كل يوم شكلا جديداً وصورة اكثر اغراء .

كانت اسرائيل تقول بعد حرب تشرين اتركوا العرب لانفسهم فهم برغم انهم اتفقوا خلال الحرب فانهم لن يلبثوا أن يختلفوا بعدها . فهم لا يستطيعون أن يحافظوا على اتفاقهم لمدة طويلة .ومضت سنة حتى انعقاد مؤتمر القمة العربي في الرباط، وانتهى المؤتمر الى جملة من القرارات التي تؤكد الاتفاق وتعززه وتعطيه أبعاد أجديدة. وجن جنون اسرائيل وبدأت تبحث لها عن حل ضمن إطار الاستراتيجية الصهيونية الامريكية ذاتها . الحل على مراحل . الحل مع كل بلد عربي على انفراد ، تقسيم الارض العربية المحتلة الى عدد لا ينتهي من الدونومات ، وعدم تسليم؛ الا دونماً وراء دونم وبشروط خاصة تتصاعد مرحلة بعد مرحلة .

وذهب أخيراً وزير خارجية اسرائيل الى واشنطن ليعرض المشروع الاسرائيلي لتحقيق المرحلة الثانية من مراحل الانسحاب من سيناء ، وبدأت السلطات في اسرائيل تسرب بعض المعلومات عن تفاصيل وشروط مشروعها الجديد في عملية لجس النبض واللعب بالاعصاب . وهي تفاصيل متناقضة تتراوح بين الانسحاب الكامل من سيناء حتى الانسحاب لعدة كيلو مترات وراء الخطوط الحالية ، وبشروط كثيرة ومهينة منها استمرار الاحتفاظ بآبار البترول وشرم الشيخ والممرات الخ ... وسواء أكانت هذه الشروط صحيحة أم لا فان ما يهمنا هنا هو أن القاسم المشترك بين جميع هذه المشروعات والشرط الذي لا غناء عنه ولا خلاف عليه في نظر الاسرائيليين ، هو بقاء سيناء مجردة من السلاح ، ووضع القوات الدولية فيها ، وتوسيع المسافة التي تفصل بين الجيش المصري والجيش الاسرائيلي بحيث تصبح ١٠٠ كيلو متر أو أقل أو أكثر من الارض المنزوعة السلاح بدلاً من أن تكون في حدود ١٠ أو ١٥ كيلو متراً كما هو عليه الأمر الآن .

مامعنى ذلك ؟ معناه بعبارة صريحة هو وضع الجيش المصري في وضع يستحيل معه عليه ان يشترك في أي حرب تشنها اسرائيل على سورية مستقبلاً قبل مضي عشرة ايام او عشرين يوماً على اقل تقدير حتى يتمكن من الانتقال بكل اعداده وكميات سلاحه وعتاده وصواريخه ووسائط دفاعه الى حيث يقف الجيش الاسرائيلي ليشتبك معه ،

هذا اذا استطاع ان يفعل ذلك على ارض مكشوفة كصحراء سيناء وامام تفوق العدو في سلاح الطيران . معناه أيضاً في احسن الحالات الانتباه من القتال على جبهة واحدة للالتفات بعد ذلك للقتال على الجبهة الثانية وهذا ما كانت تفعله اسرائيل دائماً في حروبها السابقة مع العرب ماعدا حرب تشرين .

انا واثق من ان مثل هذه المؤامرة لن تجوز على أحد ، وأنا متأكد من ان الرئيس السادات لن يبرم اتفاقاً يعزل سورية عن مصر لأن في ذلك مقتل كل من البلدين ومقتل القضية العربية كلها ، وانا واثق من ان الامة العربية وعلى رأسها شعب مصر لن تسمح لألاعيب اسرائيل المفضوحة بأن تحقق شيئاً من اغراضها ، ولكنني اثبت عـلى ذكر هذه الحقائق لابرهن على ان اسرائيل لاتريد السلام وانما هي تحضر للحرب ، ومشروعات السلام التي تقدمها هي مشروعات حرب وليست مشروعات سلام .. ولكن لماذا نحن نلجأ الى الاستنتاج والاستدلال والحقائق والشواهد المادية كلها تنطق بذلك . لنسمع اذن مايقوله السيد رابين رئيس وزراء العدو في تصريح أخير .

« ان الامريكيين ، يبدون اهتماماً كبيراً وكذلك اسرائيل باجراء اتصالات بهدف توقيع اتفاق مرحلي جديد بين اسرائيل ومصر . ان مثل هذا الاتفاق يجب ان يتضمن عدم استلام القوات المصرية للأراضي التي نجلو عنها – اسرائيل – في سيناء وتظل الممرات الاستراتيجية في سيناء في أيدينا ، كما ان هـذا الاتفاق لن يكون ساري المفعول الا بعد تجديد آخر لقوات الامم المتحدة ولفترة تتجاوز بكثير ستة شهور » .

واعلن رئيس وزراء العدو في الوقت نفسه : انه يجب على اسرائيل محاولة عزل نظام الحكم المتطرف في سورية حتى يزول احتمال نشوب قتال جديد في المنطقة .

وزعم رابين ان هذه العزلة ممكنة وقال انه يجب محاولة القيام بهـا عن طريق تشجيع المبادرات الامريكية الخاصة بتوقيع اتفاق بين اسرائيل ومصر ، وسيتعين على اسرائيل ان تقرر خلال الاسابيع القليلة القادمة الوسائل التي من شأنها توقيع مثل هذا الاتفاق وذلك بثمن معقول ودون الاضرار بأمنها .

هذه هي خطة اسرائيل وهذه هي نواياها . ومن هذا الموقع العالي جداً يقف رئيس دولة مفلسة ومهزومة ومعزولة عالمياً ، ليرتب شؤون المنطقة وليعزل سورية عن مصر وربما عن العرب جميعاً ، ليؤدبها ، وليرغمها على ان تثوب وتتراجع عن تطرفها وتتنازل له من الجولان ، وتكف عن تأييدها للثورة الفلسطينية .

لا عجب ، فلقد صدرت عن زعماء اسرائيل قبل حرب تشرين تصريحات أشـد غرابة وأكثر امتلاء بالغرور ، وهم الذين يستجدون حتى طعـامهم . صرح السيد دايان مرة بأن اسرائيل تستطيع أن تقاتل الاتحاد السوفياتي ، وصرح عزرا وايزمن بأنهم يستطيعون أن يحاربوا العالم كله

وفي تصريح أخير للسيدة مائير في أمريكا قالت ان نهاية اسرائيل هي نهاية العالم . ألم أقل لكم أنهم يعيشون حالة الوعي الزائف وأنهم لم يستفيدوا شيئاً من كل ماجرى حتى الآن .

وما أظن إلا أن الوقت أصبح مناسباً لاجتماع عاجل تعقده دول المواجهة بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية وفقـاً لمقررات مؤتمر القمة العربي ، لاقامـة قيادة عسكرية عربية واحدة ولتشكيل وفد عربي واحد الى مؤتمر جنيف يكون هو الممثـل الوحيد لجميع دول المواجهة .

ومن الواضح أن العرب لا يريدون الحرب ولا يرغبون فيها ، وانما يريدون فقـط تحرير أراضيهم وفقاً لقرارات مجلس الأمن وهيئة الامم المتحدة ومن خلال مؤتمر جنيف دون أن يكون لهم أية أطماع اقليمية عند أحد ، كما نعلم أن العرب لا يريـدون أن يلقوا بأحد في البحر ، وانما يقاومون ويقاتلون حتى لايلقى بهـم في الصحراء أو في الخيام ، يقاتلون حتى يعودوا الى أرضهم وديارهم وحتى يتمكنوا من استعمال حقهـم الانساني المشروع في تقرير مصيرهم على أرض وطنهم . ومن الصعب على اسرائيل مهما كابرت أو تعنتت أن تقهر هذه الارادة أو أن تحول دون تحقيق هذه المطالب العادلة التي اعترف بها المجتمع الدولي بأسره .

بقيت الورقة الرابعة والاخيرة ، وهي استغلال قدرة الضغط الاقتصادي والمالي للعالم اليهودي ، وهي ورقة طالما لعبت وما زالت تلعب بها اسرائيل والصهيونية العالمية واضعة هـذه الطاقة المـالية والاقتصادية الاخطبوطية في خـدمة الاغراض السياسية لاسـرائيل على مدى العالم كله .

وهنا لابد لنا من القول ان القدرة المالية والاقتصادية للعرب أصبحت اليوم لاتقل قيمة من حيث حجمها وضخامتها عن القدرة الاقتصادية والمالية للعالم اليهودي ، ولكننا يجب أن نعترف بأن القدرة العربية لاتزال أقل فاعلية لانها أقل تنظيماً ولانها أقل تماسكا ويجب الانتباه الى أن الصهيونية العالمية تحاول بأساليبها الدعائية المعروفة أن تعتم هذه القوة وأن تقطع عليها سبيل العمل وذلك :

آ – بالقاء تبعة التضخم النقدي ، والاضطراب الاقتصادي في العالم الرأسمالي على عاتق العرب بسبب زيادتهم لاسعار النفط ، مهيئة الجو العالمي بذلك من خلال اثارة نقمته على العرب باعتبارهم المسببين الاساسيين لمشاكله ومتاعبه ، ليرحب بأي عدوان اسرائيلي يقع عليهم في المستقبل على أمل أن تؤدي هزيمتهم الى انخفاض أسعار البترول كما أدى انتصارهم في حرب تشرين الى ارتفاع أسعاره . وبذلك تكون اسرائيل ، تدعمها في ذلك الولايات المتحدة الامريكية ، قد سحبت البترول من أيدي العرب كسلاح يمكن استخدامه لحسابهم وحولته الى سلاح يستخدم ضدهم .

ب – بالترويج عن طريق الصحف والمجلات الامريكية الواقعة تحت النفوذ الصهيوني لفكرة قيام الولايات المتحدة الامريكية بانزال قواتها في منابع النفط لاحتلالها للضغط على أعصاب العرب أصحاب النفط ، وتخويفهم ، على أمل قطع الطريق عليهم فيما لو أرادوا أن يتحركوا ضمن عمل عربي مشترك في حالة قيام اسرائيل بشن أي عدوان ضد سورية .

والخلاصة ان حرب تشرين قد فتحت أمامنا نحن العرب طريق الوصول الى مستوى القوى الكبرى في العالم وفتحت أمامنا أبواب التنمية والتقدم بغير حدود ووضعت بين أيدينا امكانات لو احسنا استخدامها لأعطتنا مفاتيح حضارة العصر . كما انها في الوقت نفسه ألقت على عاتقنا اعباء ومسؤوليات كثيرة ، وفتحت عيون اسرائيل وعيون الدول الاستعمارية الطامعة على امكانيات ما كانوا يتصورون اننا نملكها وهذا مما يهددنا ببعض الاخطار ، وربما باخطار جدية تفوق كل ما نتصور .

كانت اسرائيل تستعد لحربنا قبل تشرين على أساس اننا لا نحسن القتال وعلى أساس اننا شعب مفكك ، وعلى اساس اننا شعب بعيد عن العلم والتكنولوجيا ، وغريب عن العصر . أما اليوم فانها تستعد لحربنا منطلقة من نظرة اخرى ، وأخذت الأمر على محمل الجد الذي لا جد وراءه ، انها تفكر في انها ربما احتاجت لاستخدام القنبلة الذرية في حربها المقبلة ضدنا . لأن محاربتنا بالسلاح التقليدي لم تعد مجدية بل أصبحت خطراً عليها . وليست اسرائيل وحدها هي التي تريد أن تقطع علينا سبيل التقدم وسبيل القوة وسبيل الحياة الآمنة الكريمة . ان لاسرائيل في ذلك شركاء اقوياء وقادرين فماذا ترى نحن فاعلون ؟ .

علينا أن ندرك ان صراعنا مع العدو هو صراع طويل وشاق ، وانه صراع شامل ، وانه في أصوله وجذوره صراع حضاري ، فيجب أن نفتح جبهتنا معه على مدى

الحياة كلها طولاً وعرضاً ، ولا تضيق النضال في كل ساحة وعلى كل أرض ، لأن الصراع العسكري ليس الا جانباً محدوداً من جوانب هذا الصراع . وان أهمية نتائج انتصارنا في معارك التنمية والعلم والتكنولوجيا والمعارك السياسية والدبلوماسية ليست أقل شأناً في تأثيرها على مستقبل الصراع ونتائجه من أهمية انتصارنا في الميدان العسكري ، بل يجب أن نوقن بأنه لا يمكن في هذا العصر عزل ساحة من ساحات النضال عن الساحات الاخرى .

ويجب أن لا ننسى اولاً وأخيراً ان إعداد القوة العسكرية العربية اعداداً عصرياً ومتفوقاً هو السبيل الوحيد لتأمين فرصنا من أجل التقدم ومن أجل التطور ضد غدر اسرائيل وحمقها .

وربما كان ذلك وحده هو الذي يستطيع أن يقنع اسرائيل بالكف عن التفكير في العدوان علينا حين ترى أن اقدامها على ذلك يدخل في مجال المقامرة غير المحسوبة ، المقامرة التي تؤدي الى الانتحار المحقق .

الدكتور جمال حمدان

عن الحرب الخامسة

دخولاً إلى موضوعنا مباشرة ودون مقدمات مطولة أو استطرادات ، نقول إن من السهل على المراقب أن يرى آن اسرائيل بعد أكتوبر لا تستميت في البحث عن الحد الأقصى من السلاح ، ولا أن تكسب أكبر وقت ممكن ، ولا أن تحقق أكبر مستوى من الإستعداد ، إلا لتحقيق أكبر قدر من النصر في الحرب الخامسة ، بل وكما سنرى بالتحديد لتحقيق أكبر قدر من عنصر المباغتة والمفاجئة العسكرية فيها . ومعروف

أن إسرائيل قد عدلت استراتيجيتها العليا على ضوء تجربة أكتوبر. فقوة الردع ، كما أعلن (جور) صراحة ، لم تعد تكفي ، بل لا بد من ممارسة الردع فعلاً ، أي الهجوم والإجهاض والحرب الوقائية ، التي لاإلتزام فيها ،فوق ذلك ، بأي توقف نتيجة تهديد أو ضغوط الدول العظمى ، وإنما الالتزام الوحيد هو باستكمالها حتى النصر .

إسرائيل إذن سوف تنتقم ، ولم يعد السؤال الآن : حرب أولا حرب؟ وإنما هو :من الذي سينتزع زمام المبادأة والمبادرة ويكسب عامل المفاجأة في الميدان ؟ فهذا بالدقة والتحديد هو الدرس الأكبر والأكثر مرارة تعلمته إسرائيل من حرب أكتوبر جيداً وبثمن باهظ . وهذا السؤال — سنرى — لا ينفصل البتة عن سؤال متى ؟ فالعلاقة بين المبادرة والتوقيت متلاحمة إلى أقصى حد .

ولهذا السبب بالذات فنحن من الذين يقدرون إلى أقصى حد تلك الكلمة البالغة الأهمية والدلالة التي وردت في البيان المشترك للرئيس السادات والملك فيصل في الصيف الماضي والتي تقول « على الجيوش العربية أن تكون دوماً على أهبة الاستعداد لكل طارىء مفاجىء قد يقلب النصر الذي حققته الأمة العربية في حرب رمضان إلى هزيمة منكرة إذا لم نكن دوماً على حذر وحتى يتحقق النصر النهائي » .إن هذه العبارة نعتبرها أخطر ، كما هي أشجع ، كلمة قالها رجل دولة في العالم العربي منذ أكتوبر . إن التحدي القادم سيكون حرب حياة أوموت ،أخطر كما هو أضخم من أكتوبر ؛ ليس هذا فحسب ، لن تكون الحرب الخامسة أكثر حسماًوحجماً من الرابعةفقط ، بل وكماسنرى من السادسة كذلك .

وهم هناك يعلنون هذا بصراحة (أم بوقاحة ؟) كل يوم . فالحرب كما يقولون أصبحت حتماً لا مفر منه ، وأن« الظروف التي أدت إلى حرب أكتوبر ما زالت قائمة » (بيريز) ، وأن إسرائيل تجد نفسها الآن في موقف مشابه تماماً للموقف الذي كان سائداً قبل حرب أكتوبر ، وأن مستقبل إسرائيل في السنوات العشر القادمة سيتحدد في العام القادم (رابين) . وتأسيساً لذلك ، أو تبريراً ، بدأوا يصكون شعاراً شاذاً مأخوذاً من عالم اللامعقول يقول «الحرب أو الموت» (على غرار الشعارات الشائعة ، ولكن العاقلة ، من أمثال « التصدير أو الموت » ، « التقدم أو الموت ») ! . . ثم يضيفون أن الحرب قد تقع في أية لحظة ، وأنهم يخططون لها على أساس أنها ستنشب غداً صباحاً إن لم يكن هذا المساء . ولذلك فالسؤال الحرج لم يعد هل ، بل متى . فليس أمام إسرائيل في تصورهم أو تصويرهم إلا اختياران فقط ، ليس بين الحرب أو التسوية ، ، ولكن بين الحرب الفورية أو الحرب المؤجلة ، إما سبق الأحداث أو انتظار نضج الموقف . ومما له مغزاه الدال أننا نحن أيضاً لانرى أمامنا إلا اختياران ، فكما أعلن المرحوم المشير أحمد إسماعيل في أكتوبر الماضي « هناك احتمالان فقط : إما هجوم إسرائيلي على سوريا ولبنان أو مصر ليدخلوا جنيف من مركز قوة . . . وإما أن نستأنف نحن القتال للتحرير . »إن حتمية الحرب كحل أو كحد للموقف هو الشيء الوحيد الذي يتفق عليه الجانبان الغريمان في الصراع كله !

التوقيت

التوقيت إذن هو المشكلة الآنيّة والأولية . وإذا كان ضابط التوقيت

والعامل المحدد له أساساً هو عنصر المفاجأة ، فإن هناك عدة اعتبارات وضوابط قاعدية تدخل أيضاً في حساب التوقيت . فإذا كانت صيحة الحرب الإسرائيلية على الجولان في نوفمبر الماضي قد مرت كمجرد قطعة من حرب الأعصاب والحرب النفسية المستمرة ، فقد كانت مرحلة الخطر التالية هي فترة تمديد وجود قوات الأمم المتحدة للفصل على الجولان في آخر نوفمبر . أما وقد مرت هذه أيضاً بسلام ، فإن خطر الحرب كما حذر فالدهايم لم ينته وإنما تأجل فقط . وأغلب آراء الاستراتيجيين والسياسيين ، بما فيهم العدو ، ترشح ربيع ١٩٧٥ للمعركة ، ولاترجحها قبل ذلك ، ولو أنها قد تؤجلها إلى الخريف على الاكثر ، وإن كانت لاتخرج بها عن حدود العام نفسه إلا بالكاد .

فبينما حذر فالدهايم من أنه ما لم يحدث تقدم محسوس نحو التسوية حتى ديسمبر فقد تنشب الحرب بعد ذلك وشيكا ، نبه كيسنجر في أكتوبر ١٩٧٤ إلى أن احتمال الحرب في الشهور الثمانية القادمة أصبح أقوى من احتمال الوصول إلى حل وسط بين العرب وإسرائيل ، ولو أنه عاد فصرح بعد الرباط بأنه « لايتوقع حرباً قبل الربيع القادم » . وهذا أيضاً هو رأي جورج بول ، وكيل الخارجية الأمريكية الأسبق ، الذي تكهن مؤخراً بأن الحرب ستنشب في غضون تسعة أشهر ما لم تستأنف مفاوضات السلام . كذلك صرح ياسر عرفات للتايم مؤخراً بأن إسرائيل تستعد للحرب في مدة أقصاها ستة شهور . وبالمثل كتب سولزبيرجر يقول إن المعلومات الواردة من اسرائيل توضح أنه ما لم يحدث انفراج مفاجيء في الموقف فإن الحرب مؤكدة خلال ستة شهور إلى سنة . ومنذ عدة أشهر ، أثناء الصيف الماضي : صرح مصدر إسرائيلي كبير بأن

« الحرب قد لاتنشب مرة أخرى في أكتوبر القادم (يعني ١٩٧٤) ، غير أنني لا استطيع أن أراهن على أنها لن تنشب في مارس القادم (أي ١٩٧٥) » .

ويلاحظ هنا أن بعض التقديرات الإسرائيلية جاءت خاطئة . فدوائر المؤسسة العسكرية كانت قد أعلنت أن الحرب الخامسة لن تتأخر عن نهاية سنة ١٩٧٤ « على أية حال » ، حيث صرح جور بأن قيادة الأركان قد توصلت إلى أن الدول العربية قد تحاول مع اقتراب نهاية ١٩٧٤ شن هجوم آخر على إسرائيل . ومن جهة أخرى قال بيريز إن العرب يدبرون للقيام بهجوم عسكري خلال فترة تتراوح بين ٦ ، ٩ ، ١٢ شهراً .

وإجمالاً يمكن القول بأن هناك توقعات بالحرب من دوائر مختلفة تتراوح دائماً بين شهرين أو ثلاثة إلى سنة وبعض السنة على الأكثر . والكل عموماً ، بما في ذلك وزير خارجية اليابان أيضاً ، يرشح سنة ١٩٧٥ لتكون سنة الحسم واتخاذ القرار بين الحرب والسلم وسنة الصدام الأعظم بينما أن الربيع عند الجميع هو بؤرة الخطر ، ما لم تسبق التسوية ، أيهما أقرب .

والسؤال الآن : لماذا الربيع بالذات ؟ أولاً ، لأن الثلوج على جبهة الجولان الجبلية الباردة تشل الحركة الميكانيكية إلى حد بعيد ، كما أن حرب الشتاء بعامة حرب قاسية قد لاتطيقها إلا الدول الكبرى **الغنية** . (كان دايان ، قبل أكتوبر ، يعتقد على العكس أن المصريين لن يحاربوا إلا شتاء ، على أساس قول زعم أنه شاع في المعسكرات المصرية من أن حرب الصيف مرهقة وصعبة !)

ثانياً ، لأن كل الأطراف في انتظار آخر نتائج الموقف السياسي

والتحركات الديبلوماسية ، وهناك شعور عام بأن الموقف لم ينضج بعد نهائياً لقرار الحرب وتحديد ساعة الصفر . فهناك على الطريق زيارة برجنيف المرتقبة لمصر بكل احتمالاتها وانعكاساتها على موازين التسلح والقوى المحلية ، وهناك ديبلوماسية كيسنجر التي لم تنته كما لم تتقدم ، ثم المحاولات الأخيرة لعقد مؤتمر جنيف . . .الخ. وفيما يتعلق بالاعتبار الأول فإن رابين « يقدر أن ميعاد زيارة برجنيف لمصر هي إشارة مصرية لإسرائيل والعالم الغربي ، خاصة الولايات المتحدة ، إلى الإطار الزمني الذي يمكن الاتفاق في حدوده ، وبعدها يحتمل حدوث الإنعطاف نحو الاختيار العسكري » .

ثالثاً ، وأخيراً ولكن ليس آخراً ، لأن كل الأطراف لاتزال مستغرقة في جمع أكبر حجم من السلاح المعقد المتطور وضمان « تشوينه » محلياً على ذات أرضها ثم تحقيق التدريب التام والسيطرة المطلقة عليه . وكل هذا يستدعي مزيداً من الوقت ، ولا زالت الصفقات تعقد ، والعقود تشحن ، والشحنات تجرّب ، وذلك في سباق محموم ومستميت . أي أن الاستعداد العسكري لم ينضج بعد تماماً . والعدو من جانبه يروج لهذه الفكرة ، فقد كتب زيف شيف في هاآرتس يقول إن الجيوش التي حاربت في أكتوبر ، ومنها الجيش الإسرائيلي ، ليست مستبعدة بعد لخوض حرب جديدة » .

ومن جهة أخرى كتبت الجيروزاليم بوست تقول « ليس بين الشخصيات الهامة في الحكومة الأمريكية من لايعتقد أن زيارة برجنيف للقاهرة سوف تكون لتدفق الأسلحة السوفيتية على مصر على غرار تدفقها الهائل على سوريا . على أنه لايمكن أن يبقى الاسرائيليون سلبيين في الوقت

الذي يبدو فيه أن الافتراض الرئيسي الذي تقوم عليه السياسة الأمريكية إزاء الشرق الأوسط آخذة في الانهيار . كما أن موقفهم إزاء عدوهم يتدهور بصورة خطيرة . وفي ظل هذه الظروف فإن من المحتمل تماماً أن يقوم الإسرائيليون بالضربة الوقائية » .

أما واجبنا نحن ، في جميع الأحوال وكضمان شرطي بالنصر بل بالحد الأدنى من الأمن ، هو أن نستعد للحرب في أية لحظة ، تحسباً لغدر العدو وخداعه الذي قد يدفعه إلى أن يعجّل بالهجوم انتزاعاً للمبادأة . وكل ما يشيعه العدو من أن الأطراف المختلفة ليست مستعدة بعد لمعاودة القتال ، بما فيها هو نفسه ، قد تكون حملة تخدير وتنويم للعرب . كذلك فإن هناك إغراءات بأن يعجل العدو بشن الحرب ظناً منه أن مصر بالذات لم تستكمل تسليحها التام واستباقاً منه لصفقة التسليح الكبرى التي تتطلع إليها هي أو يفترضها هو بعد زيارة برجنيف المرتقبة .

لهذا كله فما لم يحاول أحد الطرفين أن يستبق الطرف الآخر إلى الضربة الأولى قبل الأوان ، فقد تكون الحرب الخامسة حرب ربيع ، ربيع ١٩٧٥ ، أو على أية حال حرب ١٩٧٥ ، أي بعد العام إلى العامين من الحرب الرابعة . فإذا حدث هذا ، فسيكون ذلك أقصر فاصل زمني عرفته حربان في الصراع العربي — الإسرائيلي ، وقد يعني أنهما نسبياً معركتان في حرب واحدة أوجولتان في معركة واحدة أكثر منهما حربين أو معركتين مستقلتين تماماً .

وبذلك تكون الحرب القادمة هي « الحرب التكميلية » « للحرب التي لم تتم » . وفي هذه الحالة فإن حربيْ السبعينات ستكونان أقرب ما يكون شبهاً بالحرب الأولى حرب الأربعينات التي قسمتها الهدنة إلى جولتين متتاليتين .

المبادأة

هذه بلا أدنى شك ستكون الهدف الأول والحيوي لكلا الطرفين ، وموضع سباق صامت ولكنه محموم بينهما . فمن المحقق أن كليهما يعرف الآن تماماً وبلا أدنى أوهام معنى وقيمة المبادرة ويقدرها حق قدرها (« المفاجأة هي نصف النجاح في المعركة » — المرحوم المشير أحمد إسماعيل) ، وسيحاول في الدرجة الأولى أن تكون له الضربة الأولى وأن يحقق عنصر المفاجأة والمباغتة . ذلك درس أكتوبر الذي لاإنكار له ، كما لا فرار منه . وستكون هناك حرب كاملة وحقيقية ،، بدأت لا شك من قبل ، حرب خفية أو حرب مخابرات وخداع وذكاء وتمويه ، من أجل انتزاع المبادأة في الحرب الخامسة .

والعدو من جانبه لم يدع مجالاً للشك في أن المبادأة بالهجوم والمبادرة بالمباغتة أصبحتا « عقدة » حقيقية عنده ، تتحكم في نفسيته وستحكم كل سلوكه العسكري المقبل . فإسرائيل ، كما يقول رابين مثلاً ،« لن تؤخذ على غرة هذه المرة » « لأننا لانريد تكرار ما حدث في بداية حرب يوم كيبور » . . . و« في الحرب الخامسة ، لن تكون المبادرة إلا لإسرائيل » ، كما وعد أو توعد جور . وتوضيحاً لذلك كتبت التايم تقول « هناك بحث يقوم به القادة العسكريون والسياسيون حول احتمال الحاجة إلى القيام بالضربة الأولى ضد الجيوش العربية . والقناعة العقلية وراء هجوم كهذا هي شل القوات العربية لخمس أو عشر سنوات» . هذا بينما ذكرت يو إس نيوز آندويرلد ريبورت أنه « إذا اعتقدت إسرائيل أن العرب سيذهبون إلى القتال مرة أخرى لاسترجاع أراضيهم ، فإن تل أبيب يمكنها القيام بهجوم مصمم » ، ولو أنها عادت فسجلت أن

هذا يحتاج إلى الضوء الأخضر من أمريكا . ولقد رأينا أخيراً تصريحات آلون وغيره التي تحتفظ لإسرائيل علناً بحق الهجوم إذا ما تأكدت تماماً من إقدام العرب على الحرب . . .

أما من جانبنا ، ففي جميع الحالات وأيا كانت الاعتبارات السياسية أو الأوضاع الدولية الحاكمة فإن شيئاً واحداً يجب أن نصر عليه ، وهو أن نمسك نحن بزمام المبادرة العسكرية وألا نسمح لإسرائيل بأن تكون على جانب الهجوم مرة ثانية وإلى الأبد . الحرب الخامسة ، بعبارة أخرى، يجب أن تكون حرباً عربية من البداية إلى النهاية ، ولا عبرة إطلاقاً بما يقال من أنه سيكون من الصعب على العرب أمام الرأي العام العالمي تبرير بدئهم بالقتال هذه المرة أو حظر البترول بالقياس إلى أكتوبر ، فإن أرضنا ما زالت محتلة معظمها ، ولا فارق بين الوضعين . كما لا عبرة بآثار حملة الكراهية والتشويه التي شنتها الإمبريالية ومن خلفها الصهيونية على عرب البترول وبترول العرب ، فهي لن تغير المناخ السياسي ، وحتى المناخ السياسي لن يكسب حرباً ؛ وعلى المخطط العسكري العربي أن يضعها قاعدة قائدة لتخطيطه وهي: الهجوم أولاً ، الهجوم أولاً ، الهجوم وإلا فلا . . .ومن حسن الحظ أن قيادتنا على وعي تام بالقضية ، وقد وعدت بالفعل بأنها ستحرز لنا زمام المبادرة وتحقق المفاجأة من جديد وفي ظل كل الأوضاع والظروف .

ويبقى بعد هذا فقط أن نشير من الناحية الموضوعية إلى فارق نسبي وشيء من الاختلاف في فرصة المفاجأة وامكانياتها بين الحربين الرابعة والخامسة . فهامش المباغتة المتاح في الحرب القادمة أضيق نوعاً مما كان عليه في أكتوبر ، وذلك بالنسبة للجانبين على حد سواء . وبالدرجة

نفسها سيكون وزن عامل المفاجأة والضربة الأولى أقل في الأخيرة منه في السابقة . ليس ذلك فقط لأن الجميع في حالة تأهب تام ومراقبة وترقب حاد ويدرك أو يشعر أن الحرب واقعة ومتوقعة لامفر ، ولكن أيضاً لضخامة حجم المعركة القادمة المنتظر بالمقارنة إلى حجم المعركة الماضية ، ثم أخيراً لاختلاف الأوضاع الجغرافية والجيوستراتيجية بعد أكتوبر عنها قبلها . وعن الناحية الأخيرة بالذات فإن للجانب العربي هنا ميزة محققة بالقياس إلى وضعهم قبل أكتوبر ، فهم سيبدأون الحرب الخامسة من أوضاع جغرافية واستراتيجية أفضل بكثير جداً مما بدأوا بها الحرب الرابعة . فما عاد هناك الآن فاصل مائي مانع على الجبهة المصرية ولا خط بارليف ، ولاخط آلون على الجبهة السورية كذلك . أي أن هناك الآن اتصالاً أرضياً على كلا الجبهتين . أو كما عبر أو حذر شارون ، فإن كل انسحاب إسرائيلي من سيناء يعتبر خطراً مباشراً على إسرائيل لأنه يطيل خط الجبهة من ١٧٠ كم إلى ٣٠٠ كم ، في حين تملك مصر القدرة على دفع ٥ فرق (١٠٠ ألف جندي) إلى سيناء خلال ٦ — ٨ ساعات فقط .

هذا من ناحية .ومن ناحية أخرى ، هناك المنطقة العازلة التي تفصل بين القوات ، والتي حددتها اتفاقية فك الارتباط بأعداد وأحجام محدودة ومعينة من القوات والأسلحة . ويبلغ عمق هذه الشقة ٣٠ كم على البر السيناتي ، ١٢ كم على جبهة الجولان . ورغم أن هذه النطاقات ضحلة ولا تكاد تقف عازلاً في وجه الأسلحة الحديثة من طائرات وصواريخ وحتى مدفعية ، فإنها توفر دقائق ثمينة ومن ثم إنذاراً مبكراً

وماصة صدمات محدودة ومؤقتة تقلل نسبياً من حجم المفاجأة الاستراتيجية أو التكتيكية ، أو الأخيرة على الأقل .

شكل الحرب القادمة

هذا عن المبادأة ،التي لا تنفصل قط عن شكل الحرب وإليها تنقلنا على الفور . وإذا كان العدو قد تلقى ضربة عمره في أكتوبر في شكل حرب طويلة ممتدة (حوالي ٢٠ يوماً) . على العكس تماماً من كل حساباته الشريرة . وتصريحاته الطائشة ، فإنه حتى الآن لم يتخل عن وهم الحرب الخاطفة . ولكنه كذلك وبنفس العناد والحمى يستعد للحرب الطويلة . وكما يعد للحرب التقليدية الكلاسيكية ، فإنه يعد على ما يبدو حتى للحرب النووية . وبعبارة أخرى ، العدو يحضر ويتحسب لكل أشكال الحرب الحديثة وبدائلها ، العاقلة منها والمجنونة على السواء ، المغامرة والمقامرة بلا تفريق . أي أنه لا يريد أن يترك شيئاً للصدف على الإطلاق ولن يقف عند حد أو يتورع عن أي شيء . وهذا ما يفرض علينا استراتيجيات مضادةجامعةومانعة ،شاملة وتبادلية،تفسد عليهأيما خطةقديتبعهامستقبلاً .

فعن الحرب الخاطفة ، فلقد كثر الحديث ، حديث العدو وحديث العالم ، في الآونة الأخيرة عن هذا الموضوع بحيث لا يجوز إغفاله أو الاستهانة به حتى ولو كان قطعة من حرب الأعصاب أو التهديد الأجوف أو الخداع الملتوي أو تفكير التمني أو بالونات الاختبار . ولكن العدو يراوده الأمل في حرب ناجزة خاطفة بتصور أنها قد تؤخر له كل شيء في المنطقة لعدة سنوات بتدمير القوة العسكرية للجيوش العربية . وهو لذلك يبحث عن ضربة قاتلة مثلما يبحث عن أسلحة قاتلة .

ويعتبر موردخاي جور ، « مهندس الحرب القادمة » كما يوصف في

إسرائيل ، هو داعية الحرب الخاطفة الجديد ، أو بالأصح المدافع عنها على وجه التحديد . فمنذ مؤتمر الرباط لم يكف عن الحديث عنها . فنفى مراراً أن عصرها قد انتهى ، وأكد أنها ممكنة ما تزال . ففي رأيه أن من الخطأ الاعتقاد بأن عصر الحروب الخاطفة في الشرق الأوسط قد ولى إلى غير رجعة ، وأنه ليس هناك داع لأن تكون الحرب القادمة حرباً طويلة بالضرورة . وقد فسر هذا بأن الأوضاع الجغرافية في المنطقة لا تسمح بالحروب الطويلة ، فالمساحات في جبهات القتال ومسارح العمليات محدودة نوعاً ، والخطوط الفاصلة فيها متقاربة إلى حد كبير .

والحقيقة أن القائد العدو يستحيي أو يجتر إلى حد ما أحلام الماضي المنتصر — ضربة صهيون صباح ٥ يونيو ! — كما يحاول فيما يبدو أن يقنع المؤسسة العسكرية وحلفاءه في أمريكا . على أن المحقق أن هذه الوصفة القديمة تتجاهل واقعاً ضخماً جديداً . فالقوات العربية ، لا سيما بشبكة صواريخها القاتلة للطائرات ، أصبحت محصنة تماماً ضد البيلتز كريج وغير منفذة لمقاتلات العدو وقاذفاته . وتلك بالدقة كانت مأساة العدو وبعض مقتله في أكتوبر . كذلك فلا أمل للعدو في الصواريخ أرض — أرض بعيدة المدى ، لأن العرب يملكون مثلها على الأقل وربما أقوى منها . وفضلاً عن هذا ، فلقد أثبتت تجربة أكتوبر أن الحرب الخاطفة كفن وتكنيك عسكري معقد ومخاطر لم تعد حكراً على العدو ، فلقد كانت الضربة الجوية الأولى وضربة المدفعية المكثفة في الساعة ١٤,٥ من السادس من أكتوبر قطعة مقتدرة وبارعة لا شك من صميم البيلتز كريج .

ولعل هذا كله أن يفسر لماذا يستعد العدو في الوقت نفسه للحرب الطويلة إذا لم ينجح في تحقيق الحرب الخاطفة . فلقد رأينا كيف حشد

مخزوناً من الأسلحة يكفي لواحد وعشرين يوماً — من القتال المتصل دون القتال المتصل دون الحاجة إلى إمدادات مباشرة . وقد حددت هذه المدة على أساس معدل استهلاك السلاح في الأسبوع الأول من حرب أكتوبر بالذات . وفي الحالين فإن هذا يدعونا إلى الحذر المزدوج وإلى أن نتحسب ونخطط لكل الفروض والاحتمالات دون أن نبتلع طعم دعاية العدو .

ولحسن الحظ ، فلقد أكد الرئيس الأسد مؤخراً أن الحرب القادمة ستكون رغم أنف العدو طويلة وأطول مما يريدها .

وفيما عدا هذا ، فإن بعض الاستراتيجيين يؤكدون أن الحرب ستكون حرب إبادة وإفناء ، لأن الإسرائيليين ، كما تقول النوفيل أوبزرفاتير ، لم يعد أمامهم في وجه القوة البشرية العربية المتفوقة إلاّ البحث عن الأسلحة القاتلة . وهم يشيرون في هذا المجال إلى الصواريخ أرض — أرض بعيدة المدى وصواريخ جو — أرض بعيدة المدى وصواريخ جو — أرض طراز مافيريك والموجهة بأشعة الليزر وغيرها من أسلحة التدمير الشامل ، بما في ذلك حتّى الغازات الجوية (لهذا اهتمت إسرائيل أخيراً بالدفاع المدني وعممت الأقنعة الواقية — ... الخ) . ويضيف جورج بول أن من المحتمل أيضاً أن تستعمل إسرائيل الأسلحة الذرية التي تملكها أو يقال إنها تملكها . ويرى آخرون أن الحرب ستبدأ بعمليات تدمير شاملة تستهدف المدن والعمق . على أن الهدف الأساسي لإسرائيل ، كما يحدسون ، سيكون تدمير الجيوش العربية ، لا احتلال الأراضي أو المزيد منها . ورغم أن إسرائيل هددت بأن إعادة عبور قناة السويس واردة وغـير مستبعدة ، فالمقول إنها حتى إذا احتلت

القاهرة ودمشق (كذا) فلن يكون ذلك بهدف البقاء فيهما ولكن لإملاء شروطها وفرض السلم النهائي .

هذا وقد أذيع في الآونة الأخيرة إبان توتر الموقف على جبهة الجولان أن إسرائيل قد تقوم بهجوم خاطف على سورية ، وبالتحديد على منطقة « الهارتلاند » أو قلب الدولة السياسي والعمراني والاقتصادي ، بهدف تدمير هيكل القوة العسكرية والمادية ، ثم الانسحاب بعد ضربة الإجهاض هذه . وقيل إن للتقدم محورين : من الأجناب عن طريق اجتياح لبنان عبر سهل البقاع وصولا إلى القلب السوري ، ثم بالمصادمة وجهاً لوجه عبر الجولان تحطيماً للدرع السوري ممثلاً في القوات العسكرية التي ستتصدى لإيقاف الزحف . وإذا كانت هذه الخطة الغادرة لم يقدر لها أن تنفذ ، وربما كانت مسربة عن عمد للتخويف أو للتضليل ، فليس لنا أن نستبعد احتمالات الالتفاف وطعنة الظهر في الحرب الحقيقية القادمة ، ليس فقط عن طريق لبنان وإنما حتى عن طريق الأردن كذلك .

هذا من جانب العدو . أما العرب من جانبهم فيعتقد المنظرون الاستراتيجيون أنهم سيحاولون بصورة جادة تحطيم قدرة إسرائيل العسكرية خلال الستة والثلاثين ساعة الأولى ، مستعينين في ذلك بصواريخ سكود وفروج أرض – أرض بعيدة المدى (٢٨٠ كم) التي يمكن إذا أطلقت من دمشق أن تصل إلى أشدود شمالي قطاع غزة . أي أن العرب ستحاول هي الأخرى البدء على الأقل بضربة إجهاض سريعة وعاجلة ومكثفة ، لاتباطؤ بعدها في إيقاع التقدم كذلك ، إفادة من تجربة أكتوبر .

وستتعرض للقصف – يكمل المفكرون الاستراتيجيون – مدن إسرائيل الرئيسية ، خاصة المثلث القاعدي الصناعي تل أبيب – القدس –

حيفا ، بما في ذلك مصفاة بترول حيفا . . . الخ ، وذلك تطبيقاً للإنذار العربي المعلن من أن : « النابالم بالنابالم ، والعمق بالعمق » ، وأن مدن قناة السويس ستعتبر من العمق المصري ، وسيعامل العدو على هذا الأساس . وفعلاً ، حذر شلومو هيليل وزير البوليس الإسرائيلي من أن مدن إسرائيل ستصبح جبهة قتال حقيقية إذا ما نشبت حرب جديدة .

تلك جميعاً بطبيعة الحال تصورات تخطيطية قد لا تخلو من منطق ولكنها لا تعدو ضرباً من الحدس والتكهن والتخمين المضبوط أو المنضبط وهي على أية حال ليست بخافية على المخطط الاستراتيجي العربي ولا هي غائبة عن فكره . وليس من شك أنه ، وهو الذي أثبت اقتداره وتفوقه في أكتوبر ، مثلما أضاف إلى خبرته من رصيدها ودروسها ، ليس من شك أنه يتحسب لها ولكل الاحتمالات الممكنة ويضع لها كل الخطط المضادة والبديلة . وسيكون الميدان الفعلي وحده هو المحك لكل هذه النظريات والفرضيات والفيصل النهائي بين أوهام العدو وأحلامه « الفاوستية » الشريرة وبين الواقع الجديد الذي خلقه المقاتل العربي والمخطط العربي والسلاح العربي .

حجم المواجهة

وأياً كان شكل الحرب القادمة ، وكيفما كانت بدايتها ومتى تبدأ ، فإن شيئاً واحداً مؤكد : الجولة التالية ستكون أعنف لقاء في تاريخ الصراع العربي — الإسرائيلي وأشد حلقاته ضراوة خارج كل حدود وكل مقارنة ، وبالقدر نفسه ستكون حاسمة وفاصلة ، كما قد تتخذ أبعاداً عالمية خطيرة تتعدى حدودها المحلية والإقليمية . فكما يتنبأ ، أو يعترف ، كيسنجر « ستكون الحرب هذه المرة أكثر خطراً وخراباً ودماراً من كل الحروب

الإسرائيلية — العربية السابقة » . بل وكما حذر المستشار النمسوي كرايسكي مؤخراً فإنها إذا قامت فستنطوي على خطر التهديد بحرب عالمية شاملة .

وعلى أية حال ، فإذا كان العدو يضمر حرباً انتحارية ولن يقف عند حد أو يتورع عن تدمير نفسه في سبيل تدمير خصمه ، فإن عليه أن يعرف أن هذا الخصم غير غافل عن طبيعته ونواياه ، وأنه قوة أضخم وأقدر مما يظن وقدراته تتنامى وتتعاظم أكثر من أي وقت مضى . قد يدمر العدو نفسه ، ولكنه — ليعلم — سيعجز عن تدمير خصمه . وتكفينا هنا شهادة أو تحذير اثنين من كبار ساسة الغرب نفسه . الرئيس الفرنسي ديستان مثلا ، محذراً إسرائيل وناصحاً إياها بالتعقل ، قال بوضوح إنه بسبب التزايد الكبير في موارد الدول العربية عسكرياً واقتصادياً ومالياً ، فإن هذه الدول يمكن في حالة نشوب حرب جديدة أن تهدف « في المدى البعيد إلى إزالة خصمها » . بالمثل حذر فولبرايت إسرائيل ، في أعنف خطاب له ضدها ، من أن « حرباً جديدة قد تدمر إسرائيل » ، كما يمكن أن تؤدي إلى مجابهة أمريكية — سوفيتية .

وهناك أربعة أسباب أساسية تفسر فداحة حجم الحرب القادمة حجم ونوعية الحشود ، خطورة الرهان ، سيكولوجية المواجهة ، ميكانيزم الحرب .

فهي فادحة ، أولاً ، لحجم ونوعية الحشود والأسلحة المكدسة التي ينتظر أن يقذف بها في المعركة . ولربما تكشف لنا الأيام مستقبلاً أنها قد تأتي في النهاية وهي نحو ضعف ما قذف به في أكتوبر . وليس في هذا

رجم ولا مبالغة ، فقد ثبت أن حجم كل معركة لاحقة في الصراع يفوق حجم كل معركة سابقة ، وأن كل طرف فيها يعد دائماً مفاجأة حجمية رهيبة للطرف الآخر . على الجانب الإسرائيلي لم يعد سراً أن العدو قد حشد أكبر كمية من الأسلحة عرفها في تاريخه وعبأ أكبر جيش في حياته : فإذا وضعنا في اعتبارنا ما حشده العدو من قوات في أكتوبر (نحو المليون) ، ثم ما حشده العرب في سوريا نحو ثلث المليون ، ومصر ١,١ مليون ، فلن نغالي اذا تصورنا أن مجموع حجم القوات التي ستلقي بها كل الأطراف في الحرب القادمة قد يناهز الثلاثة ملايين جندي أو ربما يجاوزها .

كذلك فقد قيل بعد أكتوبر إن العدو ، الذي خاض الحرب الرابعة بنحو ٥٠٠ طائرة ، ٢٠٠٠ دبابة ، يستعد للحرب الخامسة بنحو ١٠٠٠ طائرة ، ٤٠٠٠ دبابة ، أي الضعف (ربما الآن أكثر) .

كذلك زعم دايان بعد المعركة ، إن خطأ أو صواباً ، أن « إسرائيل تواجه اليوم قوة جوية مشتركة مجموعها ٩٢٠ طائرة ، ٤٠٠٠ دبابة على الجبهتين » : ثم جاء بيجين بعد ذلك فادعى أن لدى مصر وسوريا حالياً ٥٠٠٠ دبابة ، سترتفع في بضع سنين إلى ٩٠٠٠ ! وحتى بغض النظر عن تكهنات أو دعايات العدو ، فيكفينا ما أعلنه الرئيس السادات بعد المعركة من أن « رقم الدبابات الموجودة في غرب القناة والمستعدة للعبور فوراً إذا اقتضت الضرورة رقم مذهل » .

كذلك فبصرف النظر عن الحجم والكم ، هناك النوعيات والطرز الجديدة والمتطورة جداً من الأسلحة ، المقاتلات فائقة السرعة ، الصواريخ

الموجهة إلكترونياً فائقة الدقة بالغة التدمير . . . الخ . أو كما قال موشيه كارمل في دافار « في الحرب القادمة ستلتقي أنواع كثيرة من الأسلحة ، معظمها حديث متطور ومعقد ، أشد فتكاً من كل الأسلحة التي عرفتها الحروب الإسرائيلية ـ العربية السابقة ». ذلك دون أن نذكر الاستراتيجيات الجديدة والأساليب العسكرية البالغة الخطر والمغامرة مما لم يسبق استخدامه والتي لم يخف العدو أنه يبحث عنها بحيث يعجز العرب ، كما قال ، عن الرد عليها تماماً .

وسواء قصد بهذا الأسلحة الذرية التكتيكية ، أي الميدانية الصغيرة ، التي يملكها بالتأكيد ، أو « القنبلة » التي قد يملكها وقد لا يملكها ، وإن ملكها فقد يستحيل عليه استخدامها ، فإن العرب ليسوا بغافلين ، وعندهم كما أعلنوا الرد على كل الاحتمالات والتحديات . وبالنسبة للقنبلة بالذات فإذا كان رئيس إسرائيل كاتزير قد لوح بها مهدداً كرادع مطلق حين قال مؤخراً « لقد كنا دائماً نعتزم أن نزود أنفسنا بالطاقة اللازمة لتطوير الأسلحة النووية ، ونحن الآن نملك هذه الطاقة ، وسندافع عن بلادنا بكل الوسائل الممكنة والمتاحة » ، إذا كان ذلك كذلك فيكفينا رداً عليه ما قالته جريدة بريطانية من أن « الشرق الأوسط ، من بين كل المناطق التي تمزقها الحروب ، هو أقل المناطق التي يحتمل أن تكون الأسلحة النووية رادعاً فعالاً فيها » . على أن المهم في هذا كله هو زنبرك التصاعد اللولبي الرهيب في حجم الصدام ، والمخاطر والمحاذير المهلكة التي تكتنفه .

وهي فادحة ، ثانياً ، لفداحة الرهان الذي تنتظمه المعركة المنتظرة من حيث أنها ستؤكد أو تفكك نتائج أكتوبر الإنقلابية . نعم ، حرب

أكتوبر بالدقة هي موضوع رهان الحرب القادمة . فالعدو سوف يستميت « لإعادة عقارب القوة إلى الوراء » ، سوف يحاول أن ينسخ أكتوبر ويثبت مزاعمه المخدوعة والمخادعة من أنه استثناء لا قاعدة وفلتة لا تتكرر . باختصار ، العدو سيسعى إلى استرجاع انتصارات الماضي واستعادة آمال المستقبل . وعلينا نحن أن نؤكد أكتوبر من جديد ونضاعفه بلا حدود ، وأن نثبت للعدو أن الماضي القديم غير قابل للعودة ، دفن وانتهى إلى الأبد ، وأن لا أمل له هو في المستقبل قط .

الحرب الخامسة إذن ستكون التحدي المصيري الحقيقي ، حيث لم تزد الرابعة على ضخامتها وشموخها عن استفزاز ، أو قل إنها هي التحدي الاستراتيجي حيث لم تزد سابقتها نسبياً عن تحد تكتيكي . بل نكاد نضيف : الآن فقط يبدأ الصراع المسلح الحقيقي مع إسرائيل : فقبل أكتوبر كانت الحرب شيئاً شبه ميئوس منه ، ولكنها بعده أصبحت إمكانية وضرورة وأملاً .

أكثر من هذا ، ليست نتائج حرب أكتوبر وحدها هي موضوع رهان الحرب الخامسة ، ولا نتائج مؤتمر جنيف من بعدها ، وإنما مصير واتجاه الحرب السادسة من بعدهما كذلك . نعم ، السادسة . فاسرائيل لا تريد بالانتصار في الحرب القادمة أن تنسخ وتصحح أخطاء أكتوبر فقط ، ولكن أيضاً وقبل كل شيء أن تمسخ وتجرف منحنى الصراع كله وتعيده كما كان في الماضي وتضمن لنفسها مستقبله ومستقبلها . الحرب الخامسة ليست ضد الحرب الرابعة فقط ، ولكنها من أجل الحرب السادسة أيضاً ، ليست ضد الماضي فقط ولكن من أجل المستقبل أيضاً ،

ليست ثأراً من الأول بل واستثماراً للثاني . لماذا ؟ — لأن الذي سيكسب الحرب الخامسة سيبدأ السادسة من موقع استراتيجي وعسكري ونفسي متقدم جداً .

فأما العرب فلأنهم سوف يكونون قد أثبتوا أن اتجاه منحنى الصراع الذي تحول في أكتوبر قد تغير إلى الأبد وأصبح النصر العربي قانوناً طبيعياً في الصراع وطبيعة ثانية في المنطقة ، قل في جغرافيتها وجزءاً لا يتجزأ منها . وأما إسرائيل فلأنها ستحاول أن تطمئن نفسها وتقنع العالم بأن أكتوبر مجرد شذوذ عارض ، وها قد عادت الأمور إلى طبيعتها ، وعادت طبيعة الأشياء في المنطقة ، وهي إذا كانت قد هزمت مرة فليس إلى الأبد ستهزم وأنها لسوف تبقى . . . الخ . من هنا وهناك جميعاً قلنا ونقول إن الحرب الخامسة أخطر وأفدح من سابقتها ولاحقتها ليس فقط من حيث الحجم والأبعاد ولكن أيضاً من حيث النتائج والآثار . إنها قمة الخطر والخطورة في الصراع كله ، ما كان منه وما سيكون لأمد بعيد .

الحرب الخامسة فادحة ، ثالثاً ، لسيكولوجية المواجهة ، لأن العدو العدو يدخل المعركة لأول مرة بلا غرور ولا تكبر أو استخفاف ، وإنما بدلاً منها سيدخلها برصيد هائل من الحقد والغل وروح الثأر والانتقام .. أو كما يقول المحرر العسكري الإسرائيلي إيتان هيفر « في إسرائيل لا يتكلمون الآن بتعجرف ، بل يخططون للحرب كأنها ستقع صباح غد » .. ولئن كان هذا يعني أنه سيدخل برصيد من الثقة الذاتية قل وبأعصاب مهزوزة بقدر و بآخر ، فإن هذا يعني أيضاً أنه سوف يحارب هذه المرة وظهره إلى الحائط ، ولا نقول كما يقول إلى البحر . إنه لأول مرة يجمع في نفسه ونفسيته بين عقدة شمشون وعقدة الماسادا ، بين نية القتل ونية

الانتحار . . ومن ثم سيكون شرساً بقدر ما سيكون حقوداً ، ومستيئساً بقدر ما سيكون مستميتاً . وعلينا نحن أن نواجه بالفدائية المطلقة والاستبسال الضاري والاصرار الرهيب على النصر . فليس يغفل الحرب الانتحارية إلا الحرب الفدائية .

وكل المعطيات والوضعيات والتوازنات الجديدة التي فرضها أكتوبر تعني فارقاً ضخماً جداً بين الطرفين في نقطة بداية الحرب القادمة ، أو « عتبتها » كما قد نقول . فلاول مرة تقلص حجم إسرائيل دولياً ومعنوياً ، سياسياً وعسكرياً ، بينما بالقدر نفسه زاد حجم العرب . ولأول مرة تتصرف إسرائيل — كلّمى هزيمة — وكأنها تدخل معركتها الأخيرة ، على حين أن العرب يدخلون معركتهم الأولى الحقيقية . ثم ، ولأول مرة أيضاً ، تجد إسرائيل نفسها لاتعرف تماماً ماذا تريد ، بينما أن العرب تعرف جيداً ما تريد وكيف تريده وتديره . لقد تمت دورة كاملة من التحول السيكو — ستراتيجي في الصراع ، ودارت وستدور الدائرة تامة على إسرائيل .

ثم هي فادحة ، الحرب الخامسة رابعاً وأخيراً ، لأن كثيراً من عوامل مفاجأتنا للعدو في أكتوبر سواء في الخطط أو في الأسلحة أو في استعمالها أو في حجمها فقدت بالضرورة عنصر المفاجأة فيها بعد أن أصبحت معروفة للعدو ، وتحسب واستعد لها بأسلحة وتكتيكات مضادة . فلكل حرب وخطة حرب وسلاح حرب — وهذا أمر طبيعي جداً ، وهو في جوهر ميكانيزم الحرب — مفاجأة واحدة فقط تزول بعد أول مرة من حدوثها أو استخدامها ، ويتعين في المرة الثانية تعديلها وتطويرها

أو تجديدها حتى تصبح مفاجأة من جديد . مثال ذلك استخدامنا الثوري الرائد للمشاة والمشاة الميكانيكية والصواريخ والقواذف المضادة للدبابات وللطائرات بكثافة وفاعلية وطرق غير تقليدية . . . الخ .

وليس مما لامغزى له بالتأكيد أن العدو قد ركز تسليحه الجديد على مثل هذه الصواريخ والأسلحة بالذات ، كما يعيد النظر في اعتماده المطلق على الطائرة والدبابات ، ويحاول التعويض بالاهتمام بالمدفعية وبتنسيق القوات المشتركة وبالعمليات الخاصة ، تلك « التي نسوها . . .والتي امتاز بها الجيش الإسرائيلي في السنوات السابقة . . .الخ» . لهذا ولغيره فإن علينا أن نبتكر ونطور أساليب وتكتيكات جديدة للمعركة القادمة وأن نعد مفاجآت ابكرا وطازجة بل وأسلحة جديدة للعدو ، وفي الوقت نفسه أن نتحسب لمفاجآت مضادة جديدة من جانبه في كل هذه المجالات . إن أية حرب ، باختصار ، لاتشبه سابقتها . وكل هذا يجعل عبء المعركة القادمة وخطرها أشد وأكبر بلا جدال من معركة أكتوبر .

إلى هذا المدى إذن ستكون الحرب الخامسة فاصلة وحاسمة وحرب حياة أو موت أكثر من أي وقت مضى أو معركة سبقت . وما دام الأمر كذلك ، فلا بد من مواجهة شجاعة وأمينة مع النفس ، فلانكرر أخطاء الماضي بل نستفيد منها ، ونستفيد منها بأن نواجهها بغير خداع للنفس . وإذا كان من المعلن والمعلوم أن كل دول العالم الآن عاكفة على دراسة حرب أكتوبر وتحليل أحداثها ونتائجها ، فلا ريب أن العدو الإسرائيلي هو أكثر من يفعل ذلك ، كما لاشك أنه سيكون أكثر المستفيدين من دروسها والمتعلمين من أخطائها ، أخطائنا نحن ولكن

أخطائه هو أكثر . غير أننا بالدرجة نفسها ، بل بقوة أكثر ، ينبغي أن نكون الأكثر إفادة من نجاحاتنا وأخطاء العدو فيها ، ولكن أكثر منها نجاحاته هو وأخطاؤنا نحن فيها . كل أولئك بتواضع وتجرد ، وثقة وتصميم ، وبعيداً عن أي محاولة لخداع النفس . والنصر لأبناء أكتوبر وصنّاعه . . . النصر لابطال سوريا المغاوير ومغاوير مصر الأبطال ، طليعة العرب ودرع العروبة . . .

الدكتور شكري فيصل

نحو حضارة عربيّة جديدة

الحديث عن حضارة عربية ؛ في زحام الحضارة المعاصرة وسبقها والإنجازات الضخمة التي حققتها والآفاق البعيدة التي تعمل على أن ترودها ، والآفاق الأبعد التي تتطلع نحوها. الحديث عن ذلك كله والتفكير فيه يملأ ضمير الإنسان العربي ويثقل كاهله ويثير عنده ألواناً من المشاعر : بعض هذه المشاعر أقرب الى السخط ، وبعضها أقرب إلى النقمة ، وبعض يقترب به من اليأس ، وبعض مغاير يكون عنده هذه القوى الدافعة . . وفي هذا المزيج العجيب : المزيج من الأمل ومن السخط ومن اليأس يحيا هذا الإنسان العربي مؤلتاً ويحاول أن يتلمس طريقه منهمكاً . . ولولا الألق الذي تبقى له من حضارته السابقة والذي يزرع في عينيه خضرة المستقبل ، وينشر على حواشي الأفق البعيد بعض الطيوف الوردية ، لولا ذلك لكان بين هذا الانسان العربي وبين الحضارة الانسانية المعاصرة والمقبلة هذا البعد البعيد .

إن احساس العربي بهذه القرابة الحضارية التي يجد أصولها في تراثه وماضيه ، والنداوة الطرية التي تتسرب من خلال التراث إلى حاضره الظمىء الجاف ، يوشك أن يكون وحده نافذته التي يستشرف منها المستقبل الحضاري الذي يتطلع اليه .

* * *

ذلك أن الأساليب الحياتية المختلفة التي تأخذ بها الأقطار العربية ، و التجارب المختلفة التي تمر بها ليس لها – من وجه حضاري بحت – هذه المؤشرات الإيجابية ، لا في اسلوبها ولا في النتائج التي تنبىء إليها . قد تكون – فيما يتراءى – تجارب موفقة في بعض من جوانبها السياسية . . في جانب الاستقلال والإفلات من القبضة المرئية للاستعمار الغربي مثلا . . ولكننا نحس أن نلاحظ أن الاستقلال لم يعد مقياساً بعد أن لفظ المجتمع الانساني أسلوب الاستعمار ، وأن القدر الذي توفر من الاستقلال للشعوب العربية قد توفر مثله لشعوب آسية وأفريقية كلها فلم تعد التجربة الاستقلالية والثورات الكثيرة التي قادت إليها موضع الاهتمام في رؤى الشعوب وتطلعاتها . . إنها أصبحت أو ستصبح خلال عقد واحد – مرحلة تاريخية . وما من شك في أن الشعوب المستعمرة قدمت في ذلك أشرف التجارب الإنسانية وحملت من الأعباء وقدمت من الأضاحي وعانت من الصلف والغرور مالاينمى . . غير أن منطلق الزمن الصارم يحتم علينا أن نتجاوز تضحياتنا وثوراتنا كلها على طريق الاستقلال والحرية لنستأنف الثورات على طريق الحضارة في سبيل هدفين متكاملين : اللحاق بالركب الحضاري من نحو ، والاسهام في قيادة هذا الركب من نحو آخر .

وحين ننظر إلى أقطارنا العربية وحين نتحدث عن مستقبلها الحضاري أو حضارتنا المقبلة يروعنا منذ الوهلة الأولى مسافة هذا الخلف بيننا وبين الحضارة المعاصرة . . وأقسى ما يروعنا من ذلك أننا لا نصنع الحضارة وإنما نحن نستهلك الحضارة التي يصنعها الآخرون . . وحتى حين تستيقظ فينا أصالتنا وتتفتح على أحر المواجد التي تحدونا نحو المستقبل الحضاري ، حتى في هذه اللحظات يبدو أننا لا نجاوز مرحلة التقليد الحضاري للجوانب الحضارية المختلفة : جوانب الفكر وجوانب المادة على السواء لماذا نقف من الحضارة موقف الاستهلاك ؟ . لماذا نظل نعبر عن كل إنجاز حضاري بالدهشة والاستغراب . . وكيف نستطيع أن نكون شركة مع المجتمع الإنساني المتقدم في الإنجاز والاستهلاك .

* * *

في البداية يحسن أن نلاحظ أن الوطن العربي يقع من القضية الحضارية – شأنه في ذلك شأنه في القضايا الأخرى – موقعاً متميزاً . . إنه ليس هذا العالم المتقدم . . ولكنه ليس هذا العالم المتخلف . . فماضيه الحضاري وإسهامه العميق في مسيرة الحركة الحضارية والبقايا التي خلفها له دوره الحضاري السابق في الجوانب الحياتية المادية وفي الجوانب العقلية والأدبية والفنية . . ذلك كله ينزله منزلة خاصة ، ويجعل أمر القضية الحضارية في الوطن العربي تتخذ شكلا متفرداً هو أقرب إلى القصور الطارىء منه إلى التخلف الطبيعي . من هنا يكون الوطن العربي أقدر على أن يلحق بالركب الحضاري . . لأنه لا يبدأ المسيرة من الصفر ، وإنما يتابع هذه المسيرة . . وانه لا يحتاج إلى جهود كبيرة كما تحتاج بعض المجتمعات الأخرى ولكنه يحتاج إلى جهد يصل بينه وبين ما كان انقطع من صلاته بهذه الحضارة .

ولست أزعم ذلك انسياقاً مع الاعتزاز القومي ، ولا أقوله في نبرة ذاتية حادة . . إن واقع الحركة الحضارية في العالم وتاريخها يشهدان بذلك ويدلان عليه . . وليس أدنى للاقتناع بهذا من أن نقرأ كتاباً في تاريخ الحضارة . . وشهادات العلماء الغربيين الذين كتبوا في الحضارة العربية إنما تبدأ من الإيمان بما كان أسداه العرب على طول تاريخهم الحضاري للإنسانية في ذلك من إنجازات ، وبين ما خلفوه من آثار .

ينضاف إلى هذا جملة من الأمور من واقع هذه الملايين التي تمتد متناثرة في هذا الموقع الجغرافي الممتاز بين الخليج والمحيط . . فليس هذا الموقع وحده هو الذي يؤهلها لوظيفة حضارية ، ولكن مجموعة من القوى والعوامل الأخرى الذاتية والطبيعية تساعدها على ذلك . . في رأس هذه العوامل غناها اللغوي وغناها النفسي . . فاللغة العربية التي نهضت بالعبء الحضاري خلال قرون من أغنى اللغات وخصائصها الذاتية من أشد الخصائص قدرة على الوفاء بالتعبير . . أما الغنى العربي النفسي ومستوى الذكاء الرفيع فيه ، وما يحققه الإنسان العربي حين يوضع في الموضع الذي يحميه من التأثيرات السلبية ويسهل له التفاعل الإيجابي . . أما هذا كله فإنه أوضح من أن يحتاج المرء إلى الحديث عنه . . وسيرة الشبان العلماء العرب الذين امتصتهم الجامعات الأجنبية في الشرق والغرب شاهد بين على هذه الحقيقة الأكيدة . .

* * *

ومعنى هذا كله أن الإنسان العربي والأرض العربية والتاريخ العربي واللغة العربية كلها عوامل مساعدة على المشاركة الحضارية فلماذا توقفت هذه المشاركة . . ولماذا لا يزال المجتمع

العربي في صف المجتمعات الإنسانية المستهلكة للحضارة . . التي لا تزال بعيدة عن المشاركة في صنعها ؟ . . لماذا يظل الوطن العربي خارج دائرة الإسهام الحضاري ؟... هل هناك في نطاق التيارات الكبرى التي تسود العالم وتحكمه ما يحول بين الأمة العربية وبين هذا الإسهام ؟ ... وإذا كانت الظروف الطبيعية المرئية لا تساعد عليه فهل هو إبعاد مقصود لهذه الكتلة البشرية العربية؟ هل هناك عملية تقنين وتقييد لهذا الإسهام يراد منها أن تقتصر على شعوب دون شعوب وعلى جماعات دون جماعات؟ ... هل هنالك سياسة مرسومة يراد منها أن يبقى هذا العالم على هذه القسمة : عالم ينتج الحضارة وينعم بجناها وآخر محمول على أن يكتفي باستهلاكها . . أو باستهلاك الجانب المادي – وفي أحيان كثيرة الجانب التافه – منها ؟ ...

* * *

في العقود الأولى من هذا القرن كان العرب يتحدثون عن النهضة الشرقية . . كانوا يرون الغرب يتقدم الركب الحضاري ، وكانوا يحسون قدرات الشرق المعطلة أو المكبوتة . . ولذلك اندفعوا وراء كتلة شرقية تقف قبالة كتلة الغرب . . كتلة شرقية متطلعة لها رصيد حضاري سابق ، وكتلة غربية لم يكن لها هذا الرصيد ولكنها حققت هذه القفزة الحضارية الرائعة . . وكان مثال اليابان وقدرتها على ملاحقة الركب الحضاري ومنافسة الغرب أوضح الأمثلة في أذهان هؤلاء المتململين أو الثائرين . . فقد استطاعت نهضة اليابان أن تحطم أسطورة التخلف الشرقي وزرعت في نفوس ملايين الملايين من الشرقيين خضرة الأمل ...

ولكن أقطار الشرق لم تتعاون على تجاوز هذه الأزمة من التخلف الحضاري بعد ذلك . . تركت اليابان وحدها تحقق ما حققت وانصرفت هي إلى السعي وراء الاستقلال إيماناً منها بأن الاستعمار والانتداب والوصاية والأشكال الأخرى كلها ، المقنعة والسافرة ، من أشكال الاستعمار هي الحائل الأساسي بين هذه الشعوب الشرقية وبين تقدمها الحضاري .

ولكن هذه الشعوب حين حققت هذا الاستقلال لم تستطع أن تحقق المراحل الأخرى التي وراءه . . لم تستطع أن تحقق مشاركتها الحضارية . . وباستثناء محاولات الصين الأخيرة ، تبدو شعوب الشرق بالمعنى الواسع ... الأفرو أسيوي والجنوب الأمريكي وكأنها لا تزال مكبلة تكبيلا مقصوداً بقيود من الجهالة والتجهيل ، تحول بينها وبين أولى مراحل الحضارة .

الوضع الحضاري لهذه الشعوب التي يطلق عليها – مخادعة أو لباقة – اسم الشعوب النامية شبيه إذن بوضع البلاد العربية . . وهذا يطرح علينا مرة أخرى – وبحدة في هذه المرة – السؤال نفسه : لماذا تظل هذه الشعوب كلها خارج دائرة الإسهام الحضاري ! لماذا تعيش على

الحدود الخارجية لهذه الدائرة الحضارية ، أي حدود استهلاك فائض الإنتاج الحضاري ، ودفع ثمنه غالياً دون أن تتاح لها أية فرصة للمساهمة فيه ! . .

° ° °

بعض المتفائلين يتحدثون عن بعض مظاهر الحياة الاقتصادية أو العلمية . . يتحدثون عن جامعات تنشأ في هذه البلاد المتخلفة ، ويكتبون عن مصانع تبنى . . تزدهيهم عن مشاريع وآلات ويقتنعون بأن ذلك بعض العلامات المضيئة على طريق المواكبة الحضارية .

وقد يكون ذلك صحيحاً إذا نحن قدرنا أن الورود الاصطناعية يمكن أن تحل محل الورود الطبيعية . . وأن اللباس الأجنبي يمكن أن يخلق الحضارة الأوربية ، وأن وجود التسميات الكبرى : من المصانع ، من الجامعات ، من المخابر ، من ... يعني وجود المسميات ... على حين أن الأمر على النقيض . . لأن الذي نجده في هذه البلاد لا يعدو أن يكون في جملته ، وفي حساب التوزيع العالمي الكبير ، نوعاً من الألهيات التي تطرح لأعين هذه الشعوب تتلهى بها ، أو أن يكون نوعاً من الفتات الفقير الذي يلهي عن المائدة الدسمة . . وإن كل ما استطعنا — أي ما استطاعت هذه الشعوب — أن تصل إليه لا يعدو الأوليات الأولى التي أصبح في وسع الغرب أن يستغني عنها .

وفي عبارة موجزة . . ان كل ما استطعنا أن نحققه من مظاهر الحضارة لا يمكن أن يلغي هذا الفارق الكبير بين المستوى الحضاري في المشرق وبين المستوى الحضاري في المغرب . . ان هذا الفارق يظل متنامياً أو هو — في أحسن الأحوال — يظل ثابتاً . وحين تصل الحضارة الغربية إلى الحد (ح) مثلا ، بعد الحدين (آ) و (ب) فإنها تتيح للشرقيين أن يطلعوا على الحد (آ) . . ويكون ما تقدمه الحضارة الغربية أو ما تسمح به أنما هو القسم الذي دخل في نطاق التاريخ من إنجازات الحضارة ، أو ما دخل في نطاق المهل أو الملغى من منتجات المصانع .

ففي العلوم مثلا لا يخرج ما يمكن أن نعرفه عن دائرة تاريخ العلم . . عن هذا الشائع الذائع . . ولا يكاد يسمح بحال لهذه الشعوب أن تشارك لا عن طريق البعثات ولا عن طريق التعاون إلا بالقدر الذي لا يؤذي المتسلطين على هذه الحضارة .

وفي الاقتصاد لا يمكن أن تسمح الكتل الغربية بقيام اقتصاد تام ومتطور ، وتظل تضع العراقيل وراء العراقيل دون ذلك .

وفي الانجازات المادية للحضارة لا يقدم الغرب لهذه الشعوب إلا الأشياء الإستهلاكية . .

وحتى يسمح بالصناعة فإنما يسمح ببعض الصناعات التحويلية البسيطة ، أو ببعض الأجزاء الهينة من الصناعة مقابل استيراد الأشياء الصعبة .

ونستطيع أن نقيس على ذلك الجوانب الحضارية الأخرى كلها ، النظرية والعملية .

آية هذا كله أن البعد الحضاري لا يزال هو هو بين أصحاب الحضارة وبين الذين يريدون أن يقبلوا عليها . . هذا إذا لم نقل ان هذا البعد ينمو ويتزايد . . فلم يكون الأمر على هذا النحو ؟ . لم لم تستطع ، لا البلاد العربية بخاصة ولا البلاد الشرقية بعامة ، أن تتجاوز مراحل التخلف الحضاري ؟...

عندما يكون الأمر على هذا النحو ، أي عندما يكون هذا قدراً مصنوعاً مضروباً على أقطار العالم الآسيوي والعالم الإفريقي والعالم الجنوأمريكي . . عندما يكون شركة بينها . . فمعنى ذلك أن هنالك قوة أو مجموعة من القوى تعمل على أن تظل هذه الشعوب في مكانها وأن يزرع عندها أن هذا القدر هو قدرها الطبيعي .

وحين نلاحظ أن بعض الشعوب كاليابان قد أفلتت من هذا القدر ، وبعضها كالصين تحاول أن تفلت منه . . أو حين نلاحظ كذلك أن بعض هذه الشعوب كالشعب العربي مثلا ، ذو تجربة حضارية عريقة لا تزال تحيا في دمه وعقله وحياته ، وأن قدراته الذهنية ، هي أحياناً حين تتعهد بالرعاية فوق قدرات الشعوب المتحضرة . . وحين نأخذ بالمسلمات التي انتهت اليها التجارب الإنسانية من أن هناك وسائل قادرة على أن ترتفع بالشعوب – أياً كانت – من درجة الصفر أو ما قبلها إلى المستويات الرفيعة . . حين نلاحظ كل ذلك فإن السؤال لا يبقى : لم لم تستطع البلاد العربية بخاصة ولا البلاد الشرقية بعامة أن تتجاوز مراحل التخلف الحضاري وإنما يصبح السؤال : ما هي هذه القوى التي تحول بين هذه الشعوب وبين تسلق السلم الحضاري بأقدام متزنة ثابتة .

ما هي هذه القوى . . قد لا يكون هذا هو السؤال الأصيل ، فليست هذه القوى مجهولة . . إنها كل قوى أعداء الإنسانية الذين يؤمنون بالتمايز ويضعون الشعوب طبقات .. أولئك هم أكلة لحوم البشر حقاً ، الذين يختلسون ثروات هذه الشعوب ويجهضون ثوراتها ، ويعرقلون تقدمها

ولكن السؤال الأصيل يصبح هو : كيف تستطيع هذه الشعوب أن تطلق أقدامها في طريق الحضارة بعيداً عن القيود التي تكبل بها ، والعراقيل التي توضع في طريقها ، والحفر التي تحفر لها؟ كيف تستطيع أن تحقق ذاتها وانسانيتها بعيداً عن كل هذا التشويه المتصل الذي يلصق بها ؟ كيف تستطيع أن تستخدم قواها دون أن تتبدد هذه القوى ؟ .

التاريخ هنا يستدير مرة أخرى . . وعلى مثل ما كانت الحركات الاستقلالية تعاطفاً وتواصلاً وتسانداً ، يجب أن تكون الحركات الحضارية أو التوجهات الحضارية كذلك .

إن المناداة بالاستقلال كانت نداء إثبات الذات في حياة الشعوب التي غلبت على أمرها . . وبعد مرحلة إثبات الذات يجب أن تبدأ مرحلة تأكيد الذات . . أي مرحلة إعطائها وجودها المثمر . وهنا يصبح النداء الأصيل الذي نطلقه هو نداء اللحاق بالحضارة والمشاركة فيها .

والأمر لا يمكن أن يتحقق في جهد متفرق يبذله هذا الشعب وحده أو ذاك . . وإذا كان التضامن شرطاً في مرحلة إثبات الذات أو مرحلة الاستقلال ، فإنه شرط أكيد في مرحلة تأكيد الذات ، في مرحلة الحضارة .

إن من العبث أن ينجح جهد حضاري تبذله هذه الشعوب فرادى ؛ لقد اقترنت ظاهرة استقلال هذه الشعوب بظاهرة غريبة جداً هي ظاهرة تفتت هذه الشعوب . . كان هنالك صوت الشرق ، ولكن صوت الشرق في الحركات الاستقلالية قد تحلل إلى مجموعة من الأصوات الشرقية ، على نحو ما تحلل الشرقيون إلى شعوب . . وولدت بطريقة ماكرة كل الروابط . . روابط التاريخ المشترك ، وروابط الدين ، وروابط اللغة . . بل إن الروابط القومية التي جاءتنا من هناك قد سممت في بلادنا وأوشكت أن تختنق .. ترى هل كان هنالك هذا القصد إلى اقتران ظواهر انحسار الاستعمار مع ظاهرة تقسيم الكتل الشرقية المعدودة إلى دول لا تكاد تحصى ؟ !

ليست هذه مسألة أخرى . . ذلك أن بعض آثار التقسيم والتجزئة والتفكيك تظهر الآن .. ومذهب (القرية المستقلة) أخذ مداه . . كان فكرة مرفوضة . . ثم صار فكرة كاملة قابلة للجدل والمناقشة . . ثم أصبح واقعاً متميزاً – وظهرت آثاره في استمرار التخلف الحضاري قبالة ظاهرة توليد أو « تفريخ » الدول الصغيرة . . بكل ما يواكب عملية « التفريخ » هذه من مظاهر خادعة أحياناً كثيرة ، بدءاً من الحدود الفاصلة والأعلام المتميزة والعواصم المستنبتة . . والانتهاء باختلاق التاريخ ، وإحياء الأسماء القديمة واستحياء التقاليد الشعبية والأغاني المهجورة والفن المحلي « الأصيل » .

لا بد إذن من حركة تجمع من جديد قبالة حركة هذا التوزيع . . وهدف هذا التجمع هو تجاوز التخلف والعمل على التحضر .

إن الاشتراكية الوحيدة التي يمكن أن تكون اشتراكية العالم الثالث كلها والتي يجب أن يتنادى بها هي اشتراكية الحضارة .

إن من العبث أن يتلهى شعب ببناء معمل ، وشعب ببناء سد ، وشعب بإنشاء مصنع لتجميع

قطع السيارات ... على حين تظل المداخل الصحيحة إلى الحضارة مداخل مجهولة حقاً أومقفلة في وجوهنا .

وها هنا يقع المنعطف الأصيل في حياة هذه الشعوب . .

بل إني أريد أن أقول بخاصة ، انه ها هنا المنعطف الأصيل في حياة الشعب العربي . .

إن استعصاء دخول التاريخ الحضاري ، إذا صح التعبير ، على الشعوب الصغيرة وعلى الشعوب الفقيرة يجب أن يكون هو المسرع الأول لحركة الوحدة العربية ، إذا كانت هنالك مئات الأسباب التي تقتضي هذه الوحدة ، أهرق في الحديث عنها أنهاراً من الحبر ، فان التخلف الحضاري يقف الآن في رأس هذه الأسباب . . إن العرب يستطيعون أن يكونوا جملة واحدة مع الشعوب الأخرى المغلوبة على أمرها حضارياً على نحو ما كانوا في حركات الاستقلال . .

والى أن يكون هناك قدر مشترك من الجهد المبذول في ذلك فان العرب يستطيعون بـل يتوجب عليهم أن يبدأوا تأليف هذه الجبهة (١) فيما بينهم . . جبهة تريد أن تقول للإنسان السوي في المغرب اننا جزء من هذا العالم الإنساني . . مواده الأولية وثروته الحضارية كل واحد وشركة واحدة . . ولم يعد في الوسع أن نفصل بين الثروة المادية وبين الإسهام الحضاري والقوى البشرية التي تريد أن يكون لها شرف الإسهام في صناعة تاريخ الإنسانية . .

وما أحسب أن ظروفاً أخرى أكثر إلحاحاً على العرب اليوم من العمل فيما بينهم (١) على جهد حضاري منظم ، وفي الدعوة الى هذا الجهد الإنساني المشترك . . إنهم متهمون ظلماً بالعجز الحضاري . . وتأتي الأزمة المضخمة للطاقة لتسمم الآبار في طريقهم . . ويتتالى التلميح بالتهديد . . ولن ينفعهم أن يقولوا أنهم ليسوا وحدهم أصحاب البترول في العالم . . فأعداؤنا يصطنعون عداوتنا ، لا يهاجموننا لأننا أصحاب البترول فحسب ، وإنما يهاجموننا لإننا نملك أيضاً — بحكم التاريخ والماضي والممارسة والقدرات الذهنية والنفسية — القدرة على تحطيم هذا السد الذي أقاموه بين كثرة الشعوب وبين أن تمارس حقها في التحضر .

* * *

(١) يلاحظ القارىء أننا أصبحنا نستخدم مثل هذه التعابير بديلا عن تعابير الوحـدة . ذلك مآل السياسات العربية القائمة . . إنها توشك أن تطغى حتى على الأساليب .

في ضوء ذلك كله يجب أن تتجه السياسة العربية اتجاهاً آخر جديداً .. فقضايا السياسة تظل كبرى القضايا .. ولكن التفكير ذا البعد الواحد أو ذا الزاوية الواحدة لم يعد مجزئاً .. لا بد من أن تتخذ القضايا السياسية — مع الاحتفاظ بطابعها السياسي — أثوابها الأخرى الحضارية والإنسانية .

أما الذين تلهيهم أو تقنعهم ، في الوطن العربي الممزق وفي أوطان شعوب العالم الثالث المبعثرة ، بعض المنجزات التي استطاعوا أن يحققوها فان عليهم أن يحسبوا قبل أن يفرحوا بما أنجزوا — المدى الذي لا يزال يفصل بينهم وبين الحضارة الموصدة من دونهم . ولابد لهم من أن يتساءلوا : هل هذا هو طريق الحضارة الصحيح أم هو طريق القناعات الضعيفة بالقليل والتلهي بما هو أقرب إلى القشور .. ولابد لهم من أن يذكروا حقيقة ضخمة تغيب عنها : ان مقدار ما يتحقق — اذا كان جزءاً من طريق الحضارة — فان هذا الطريق يتطاول بأكثر من الخطى التي يستطيعون تحقيقها .

ومعنى ذلك أنه لابد من أن تفتش عن طريق آخر .. لابد من أن ندرك أن هذه الشعوب — والشعب العربي بخاصة — وقعت في وهم كبير ، وانه آن أن نخرج من هذا الوهم .. أن ندرك أن كل الذي نحمله لايعدو كثيراً أن يكون محاولة لملء القربة المقطوعة .

ان طريق الوحدة ، وحده ، بالنسبة الى العرب هو الذي يمكن أن يكون إنهاء لمرحلة القربة المقطوعة وتجاوزاً لها .

أما بالنسبة الى الشعوب الأخرى المحرومة حضارياً فانها بحاجة الى مؤتمر « باندونغ » حضاري جديد .

هل من الممكن أن تكون البلاد العربية في هذه المرة هي العامل على هذا المؤتمر ! ! ..

* * *

ولكنني أنسى .. أنسى أن العرب يجب أن يكونوا — قبل أي خطوة أخرى — عرباً متحدين .. لا أعراباً متفرقين .

لقاء

مع أنور عبد الملك

عن حرب تشرين والوحدة العربية

أجرى المقابلة في باريس: بدر الدين عرودكي

• تعتقد « المعرفة » أن الآراء الواردة في هذا الحوار تثير عدداً من المسائل التي يمكن أن تكون موضع اتفاق أو اختلاف بين المثقفين والمفكرين العرب ، لكنها في نهاية المطاف مسائل ذات أهمية خاصة . من هنا فان « المعرفة » تقترح أن تكون هذه الآراء بداية حوار سوف تفتح له « المعرفة » صفحاتها ابتداء من العدد القادم .

* حرب اكتوبر لم تنته بعد ، وكل ما حولنا يشير إلى أننا نعيش آثارها . كيف تنظر إلى هذه الحرب ، الآن وبعدمرور خمسة عشر شهراً على انطلاقهـــا !

** لا أظن أن هناك من يفكر أو يتنكر لواقع الأمر : جاءت حرب أكتوبر لتكسر الانكسار وتهزم الهزيمة . وجاء التحرك العربي السياسي والعسكري والاقتصادي في وقت، وفي منطقة وبشكل جعل منه العنصر الأكثر فاعلية في استقطاب ما يسمى بالأزمة ، وهي في الواقع بداية مرحلة تأزم عصر الهيمنة الغربية الذي امتد من القرن الخامس عشر حتى مؤتمر يالطة ١٩٤٥ . وجاءت حرب أكتوبر لتكون عنواناً قوياً لنهضة العالم العربي ، وهي النهضة التي تكون أحد قطبي نهضة شعوب الشرق في عصرنا جنباً إلى جنب مع نهضة آسيا ومحورهـــا الصين الشعبية .

ولعل الخلط – أو التنكر الواعي المدبر ، أو العضوي – جاء نتيجة لرد فعل ا لا ستعمار العالمي ، وخاصة ما أطلقنا عليه « الا ستعمار المهيمن » MperialismeHègèmoniquel الذي تركز بين أيدي الولا يات المتحدة الأمريكية . تحركنا ، وتحرك العدو . تقدمنا وعبرنا ورفعنا ألوية الشرف على قطاعات هامة من الأرض العربية ، سيناء والقنيطرة ، وكان لا بد أن يدبر العدو هجومه المضاد . تحقق شعار « ارفع رأسك يا أخي » ، فكان لا بد أن يتكتل الغرب الا ستعماري بأسره ، على اختلا ف أساليبه وخططه ومناهجه ، ليصد التقدم ويرغمنا أن نواصل مسيرة الخضوع ويقنعنا أن مكانتنا في العالم المعاصر لا يمكن أن تكون إلا مكانة التبعية ، أو في أحسن الأحوال التبعية الممتازة . جمعنا بين أيدينالأول مرة منذعصور مضت حكمة القرار السياسي ودقة تحديد موعد التحرك والقدرة على ربط الحرب الإقتصادية بالحرب العصرية والدبلوماسية الفعالة ، فكان لا بد من وقفنا عند حدنا . تحرك الغرب ، شعوباً ودولا ، في طريق النهضة ، فكان لا بد من إجهاض هذا التحرك .

من هنا نبدأ في محاولتنا لتقييم أبعاد ما بعد أكتوبر . من هنا ، أي من مستوى أدراك المغزى الحضاري للتحرك العربي في عصرنا بوجه عام ، ولحرب أكتوبر بوجه خاص ، لا من مستوى التكتيك السياسي الداخلي أو المحاسبة الدبلوماسية أو فاعلية قصور القيادة العسكرية إلى غير ذلك من المؤشرات الهامة ، وإن كان لزاماً علينا أن نخضع تحليلها النقدي إلى مستوى التحليل العام ، وهذا التحليل العام يجب أن يبدأ بما اقترحنا أن نحدده على أنه « الا ستراتيجية الحضارية » ، أي استراتيجية التحرك العربي في إطار « تفاعل الحضارات » ، بما تحتويه كل

دائرة حضارية منها من أنظمة اقتصادية – اجتماعية – سياسية – ايدلوجية متباينة ، في عصرنا .

كان لا بد للعدو أن يتحرك . وقد تحرك العدو . ان مجموع عمليات ومحاولات الاستيعاب والصد وتقسيم الصف وتقليب قطاعات وطنية على قطاعات أخرى له تاريخ ماثل في أذهان الجميع ولا يزال يندرج تحت أعيننا قدماً . لكن المهم الأهم هو أن ندرك تماماً أن هذه المحاولات كلها في عنفها واتصالها تمثل الاعتراف الدولي بأهمية وخطورة التحرك العربي ذاته. فما كان للسياسة الأمريكية أن تكرس أكبر رؤوسها بشكل متصل لمواجهة التحرك العربي – بالتدخل العسكري أولاً ثم محاولة الاستيعاب ، والتقسيم ، والصد – إذا كان ذلك التحرك من النوع الفرعي الهامشي . ولعل بعض قطاعات الرأي العربي لم تدرك بوضوح كاف بعض هذه المعاني ، وكيف مثلا أن « عام أوربا » أي عام ١٩٧٣ كما أطلق عليه كيسنجر تحول بالفعل إلى « عام العرب » ، بفضل ذكاء وفاعلية التحرك الوطني العربي ، فتغيرت الشعارات واليافطات ، وأصبح العرب أصحاب المبادرة التاريخية في دائرة تحركهم الحضاري .

وكان طبيعياً أن تحدث بعض الخلط في التحليل ، أو قصور في الرؤية ، أو تعجل للنتائج . وكان هذا في رأينا ، مصدر الكثير من الصدامات المتعجلة بين قطاعات هامة من حركتنا الوطنية العربية . وإذا أردنا لقلنا ان هذا الأمر ترتب على الإمعان في عزل العقل العربي عن التفاعل بحرية وتعمق مع المعطيات الجديدة تماماً لتحرك العالم في عصرنا منذ مؤتمر يالطة ١٩٤٥ ، وابعاد المثقفين على اختلاف مدارسهم الفكرية عن مستوى القرار السياسي . هذا موضوع كبير لا بد من علاجه بشكل متعمق ، وإن كنا رأينا هنا الإشارة إليه فقط لكي لا يغيب عن أذهاننا ونحن في محاولتنا المشتركة لتبين أسباب التباين وعدم الوضوح .

وقد جاءت هذه العزلة المتصلة عاملا مشجعاً قوياً للاسترسال في التعمية الفكرية وتعميق المذهبية الجامدة وتأكيد التحليلات القديمة الموروثة من المرحلة السياسية السابقة ، بحيث استمرت قطاعات هامة من طلائعنا الفكرية والسياسية تتناول عالمنا المتغير بل ومرحلة تبدل ميزان القوى فيه على المستوى الحضاري بمفاهيم ومناهج وأساليب ومصطلحات شديدة التخلف وبالتالي ضعيفة الفاعلية .

* ما هي معالم الجديد في الموقف العالمي اليوم ؟

** الموقف العالمي حتى مطلع هذا القرن كان يتلخص في هيمنة الغرب – أوربا أولا ، ثم أمريكا الشمالية منذ حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ – على بقية المعمورة ، وذلك منذ القرن الخامس عشر ، عصر الاكتشافات البحرية الكبرى وتطلع البورجوازيات الأوربية إلى الحكم مسلحة

بفلسفتها العقلانية الجديدة – وهو بالطبع تاريخ تفصيلي نشير إليه فقط بطريقة عابرة . وقد اقترنت مرحلة الهيمنة الغربية هذه بضرب الشرق لكسر شوكته وإبعاده عن مكانة النفوذ السياسي والثقافي . كان هذا تاريخ علاقة الغرب بالشرق العربي الإسلامي عبر أجيال الحروب الصليبية ، ثم الاستعمار التقليدي ، ومن بعده الامبريالية . وليست الدولة الصهيونية إلا المحصلة الموضوعية التاريخية لتاريخ العدوان الغربي ضد العرب منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم . أما عن الدائرة الثانية للشرق ، دائرة آسيا حول الصين ، فقد ساعدتها الظروف الجغرافية بشكل ملحوظ كي تظل على منأى من ضربات الغرب المتوالية . فقد بدأ استعمار الهند وجاوة ، قلب اندونيسيا حالياً ، في نهاية القرن السابع عشر ، وتوغل الاستعمار الأوربي إلى الصين حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وفتح اليابان في ١٨٥٨ فقط . ومعنى هذا أن صعود الغرب إلى مكانة الهيمنة التاريخية تم بالتحديد وبكل دقة على أساس ضرب العرب لعزلهم عن مكانة القوة والنفوذ في المعمورة ، فأصبح البحر الأبيض المتوسط مسرحاً لهذا الصراع المتصل.

كان القرن التاسع عشر عصر نهضة الشرق ابتداء من نهضة مصر حول دولة محمد علي وجيوش ابراهيم والنهضة الثقافية التي حركها رفاعة الطهطاوي وصحبه . وتكالبت أوربا كلها لضرب دولة محمد علي وضرب التحرك العربي الإسلامي كله . وكذا تحركت لضرب الصين في حروب متتالية ، وكذا تحركت لكسر شوكة اليابان بعد نهضة ميجي وإن كانت فشلت في ذلك عندما تمت هزيمة روسيا في حرب ١٩٠٤ – ١٩٠٥ ، وكذا تحركت لكسر حرب الاستقلال في تركيا بزعامة مصطفى كمال أتاتورك ٢٣– ١٩١٩ . بدأت نهضة الشرق ، واستفحل الهجوم المضاد الغربي ،وهو الهجوم الذي ظل هجوماً أوربياً في الأساس حتى ١٩١٩.

ثم جاءت تناقضات النظام الرأسمالي في أوربا خلال حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ فساعدت على انشقاق الغرب المهيمن على نفسه بين أول دولة اشتراكية في تاريخ الإنسانية وهي التي رفعت لواءها ثورة أكتوبر ١٩١٧، وبين بقية دول الغرب الرأسمالية الاستعمارية والامبريالية التي ظلت في الأساس تحت قيادة أوربية حتى الأزمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ – ١٩٣٢ ، ومن بعدها الحرب العالمية ١٩٣٩ – ١٩٤٥ . وقد ترتب على ضعف أوربا المتزايد أن برز الاستعمار الأمريكي إلى مكانة الصدارة ، وأصبح بعد تصفية الاستعمار البريطاني والفرنسي والهولندي والبلجيكي وكسر النظام الفاشي في المانيا وإيطاليا ، أصبح بحق ما أطلقنا عليه « الاستعمار المهيمن » يعمل على إخضاع العالم كله إلى هيمنته الاقتصادية والعلمية التكنولوجية والفكرية والعسكرية والسياسية ، محاولا إقامة نظام عالمي جديد حول مركز واحد .

لكن عالم اليوم على نقيض هذا النمط تماماً :

أ — إن العنصر الأول الجبار إنما يكمن في تحرك شعوب الشرق وفي موجة الحركات الوطنية التحررية والثورات الاجتماعية الاشتراكية التي غيرت صورة العالم كله في نصف قرن : فقد أصبحت الصين الشعبية تشارك الاتحاد السوفياتي في دور قيادة التحرك الاشتراكي العالمي ، وأصبحت ثالث قوة عالمية موضوعياً رغم أنها لاتود ممارسة سياسة الدول العظمى ، بينما كان العالم يبدو في يالطا عام ١٩٤٥ موزعاً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وأصبحت اليابان ثالث قوة صناعية اقتصادية في العالم ، بينما كانت اليابان ١٩٤٥ في دمار القنبلة الذرية . واكتسبت نصف القارة الهندية استقلالها ومكانتها عبر تمزقات وتناقضات اقتصادية — اجتماعية عظيمة . وتحول العالم العربي في ثلاثين عاماً إلى عنصر فعال في التحرك العالمي كله ، وقطع الطريق على المتنكرين ، وتخطى النكسات السياسية والعسكرية ، فكان أن رحب العالم بأسره بالأخ ياسر عرفات رمزاً لهذه المعاني ، كما اعترف العالم بأسره من خلال الحقد والتمجيد معاً بجمال عبد الناصر رمزاً للنهضة العربية المعاصرة ، كما أدرك العالم بأسره المغزى الحضاري لحرب أكتوبر . وعظم شأن قطاعات أخرى من الشرق وخاصة إيران ، وبدأت قطاعات من أمريكا اللاتينية تتحرك تحت تأثير الشرق الناهض وتجاوباً معه ، في كوبا وشيلي وغيرها ، وبدأت بيرو والبرازيل والمكسيك وفنزويلا في طريق كان بعيداً عن الأذهان في مطلع هذا القرن . وبدأت أوربا الغربية تبحث عن وسائل وأساليب تجميع قواها للاحتفاظ بمكانتها باسم الغرب في موقف التحالف والتنافس مع الولايات المتحدة .

والنقطة الأساسية هنا أن العنصر الفعال الجبار الأول في تغير ميزان القوى العالمي ليس هو ما يطلق عليه الاشتراكيون « الحركة العمالية » في البلدان الصناعية المتقدمة ، ولكنه تحرك شعوب الشرق في طريق التحرر والنهضة من المغرب إلى بحر الصين وفي أقل من نصف قرن غير معالم الإنسانية .

ب — العنصر الثاني يكمن في انتصارات الحركة الاشتراكية على تنوعها في العالم . فقد أصبح الاتحاد السوفياتي ثاني دولة عظمى في العالم (ومن الواضح أنه ليس هناك تناقض بين كون الاتحاد السوفياتي « دولة اشتراكية » و « دولة عظمى » ، فهو أول دولة اشتراكية في تاريخ البشرية من ناحية ، وهو ثاني قوة عظمى في ميزان القوى العالمية اليوم . » . واتسعت رقعة الاشتراكية في أوربا فشملت عدداً من البلدان في أوربا الوسطى والشرقية قامت في الأساس

بفضل انتصار الجيش الأحمر ، وعظم شأن الفكر والبرامج الاشتراكية في أوربا الغربية . ولكننا ندرك أن انتصارات الاشتراكية العظمى ولا شك إنما تمت في الشرق : فقد أصبحت الصين أخطر تجربة اشتراكية بفضل فكر وقيادة ماوتسي تونغ ؛ وأضاءت حرب فييتنام التحريرية طريقاً شاقاً أمام شعوب العالم ، وانتصرت الاشتراكية في كوريا ومنغوليا ، وأصبحت قوة جبارة في جنوب شرق آسيا وقوة ذات شأن في نصف القارة الهندية . وكذا أصبحت شعارات الاشتراكية أساساً للحياة القومية العربية في عدد كبير من أقطارها « مصر ، سورية ، العراق ، اليمن الجنوبية ، الجزائر ، ليبيا » . ومن هنا نتبين أن العامل الثاني ، عامل الانتصارات الاشتراكية ، تم أيضاً في دائرة تحرك شعوب الشرق أكثر بكثير مما رأيناه يتحقق في أقطار الغرب التقليدية .

ج — والعامل الثالث إنما هو دخول العالم في المرحلة الثانية الثورة الصناعية التي يطلقون عليها خطأً اسم « الثورة العلمية والتكنولوجية » . إن تطوير نمط الإنتاج الصناعي في عصر الكهرباء والذرة والالكترونيات لعب دوراً أساسياً في تجميع مناطق العالم وأقطاره وشعوبه في نظام عالمي متشابك بالقوة والسلاح نعم ، ولكن أيضاً بالأسواق ذات الطبيعة القارية أو العالمية إلى حد جزئي (السوق الغربية ، سوق المنطقة الاشتراكية السوفياتية ، السوق الصينية شبه المغلقة) ، وأيضاً عن طريق وسائل الإعلام والإذاعة والتلفزيون مما مكن المراكز الثقافية المتقدمة من فرض أنماطها وتجاربها وأساليبها وفلسفاتها على العقل والوجدان في المناطق المتخلفة عنها التابعة لها موضوعياً أو اختيارياً بدرجات متفاوتة . إن تجميع العالم في شبكات متصلة هو الذي جعل من مفهوم « العالم » حقاً مفهوماً واقعياً منذ نصف قرن فقط ، وهو أمر ننساه أو نتناساه — فما كان العالم عالماً قبل ذلك إلا من باب التصور أو المجاز الفلسفي . ومن هنا جاء صدى كل تحرك ذي شأن على كافة أنحاء المعمورة . ومن هنا جاءت الأهمية التاريخية للتحرك العربي : فالعالم العربي حول البحر الأبيض المتوسط — همزة الوصل الجغرافية بين الغرب والشرق الآسيوي ، وهو بؤرة تفاعل الحضارات والثقافات الوطنية في عالمنا ، وهو مقر مصادر الطاقة وأرض الأديان التوحيدية الثلاث ، وساحة التفاعل والصدام الحضاري المتصل منذ حضارات مصر والشرق القديم حتى معركة المصير العربي في عصرنا . ولعلنا لم ندرك بوضوح كاف كيف أن حرب أكتوبر ، رغم حدودها ، كان لها دوي أعظم بكثير على الموقف العالمي من حرب فييتنام البطولية ، نظراً للموقع الحضاري الذي تحتله الدائرة العربية في العالم .

ولا بد هنا من إضافة كلمة تتعلق بالتشكيل العام للنظام العالمي اليوم ، وخاصة فيما يمت

إلى العلاقات بين الدولتين الأعظم . وهنا أيضاً لا بد من تجديد النظرة وتدقيق التحليل . فقد تشكلت هذه العلاقة على مستويات ثلاثة ، أي انها اتخذت ثلاث صور بين ١٩٤٥ و ١٩٧٣ .

أ – الصورة الأولى هي صورة الحرب الباردة بين ١٩٤٥ إلى ١٩٥٦ . كانت هذه مرحلة تقسيم العالم الغربي إلى معسكرين سياسيين راحا يتصارعان في صدام رأسي توقف عند حدود الأزمة النووية وحدها . فالغرب ، وخاصة أوربا ، يحاول الاستمرار في مكانة الهيمنة بعد فقدان المعسكرات القديمة وانهيار الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية ، في نفس الوقت الذي أكدت فيه الامبريالية الأمريكية مكانتها الجديدة كوريث شرعي للاستعمار الغربي والمركز الرئيسي للهيمنة الغربية في النصف الثاني من القرن العشرين . والمعسكر الاشتراكي يوطد ركائز مجموعة الدول الاشتراكية في أوربا ويبدأ في إعادة بناء النزيف والدمار اللذين أصابا شعوب الاتحاد السوفياتي وانتصاره في الحرب التحريرية البطولية التي كسرت شوكة النـازية .

ب – الصورة الثانية ، ابتداء من المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ، اتخذت شكل « التعايش السلمي » و « الحرب الباردة » بين ١٩٥٦ و ١٩٧٢ . كانت هذه المرحلة اعترافاً باستحالة تغلب أحد المعسكرين على الآخر بالسلاح ، خاصة وقد بدأ الخلاف المؤلم في المعسكر الاشتراكي بين الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ، وراحت فرنسا برئاسة ديغول تحاول أن تفلت من إطار الهيمنة الامريكية . هذا بينما اشتدت موجة الحركات والحروب الوطنية التحريرية في الشرق ، حول الحركة الافرو – آسيوية ، مما اضطر الغرب الرأسمالي أن يوزع قواه لمواجهة المعسكر الاشتراكي وهذه الموجة التحريرية الجبارة من ناحية ، بينما رأى المعسكر الاشتراكي بروز حليف له يتعاظم شأنه باضطراد في عالمنا الشرقي . كان لا بد من التريث ، كان لا بد من إيجاد شكل غير حربي للنزاع بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي في وقت ظهر فيه العالم الشرقي كقوة جبارة لم يحسب حسابها من قريب أو بعيد ، في مؤتمر باندنـغ .

ج – الصورة الثالثة بدأت في المرحلة النهائية لحرب فييتنام ، واتخذت اسم سياسة « الوفاق » أو « الانفراج » . والفكرة هي هنا الانتقال من مرحلة الصدام السياسي غير المسلح ، إلى مرحلة التعاون العضوي في الاتجاهات العامة بين الدولتين الأعظم ، وإخضاع شبكة التناقضات التي لا مفر منها إلى مقتضيات هذا الوضع الجديد .

وقد انطلقت حرب أكتوبر على وجه الدقة بعد سنة من إقرار سياسة الوفاق ، وفي أعقاب

توقف الحرب شكلياً في فيتنام ، أي انها شكلت التهديد الرئيسي والأخطر للتشكيل الجديد للنظام العالمي تحت شعار الوفاق أو الانفراج . ومن هنا أصبح لزاماً على الفكر والعمل العربي أن يدخل في حساباته هذا التطور الخطير ، ألا ينسى أو يتناسى أن العرب ، من وجهة نظر الجغرافيا السياسية أي الجيوبوليتيكا ، متواجدون أو متحركون في منطقة التقاء الدوائر الجغرافية الثلاث : الغربية الامريكية ويمثل الأسطول السادس الأمريكي والدولة الصهيونية حدودها الأكثر امتداداً إلى الشرق ، والاشتراكية الأوربية التي يشكل حوض البحر الأبيض المتوسط والعالم العربي ونصف القارة الهندية حدودها الجنوبية ، والآسيوية — الصينية التي نشكل نحن في واقع الأمر « جنوبي غربي آسيا » (وهو الاسم الذي يطلق على ما يسميه العالم الغربي ، من وجهة نظره « الشرق الأوسط ») . وهنا أرجو أن يلتفت الفكر العربي للإسهام الطليعي عميق الدلالة الذي قدمه ويقدمه الأستاذ الدكتور جمال حمدان من خلال سلسلة أعماله وخاصة « العالم الإسلامي اليوم » ، « شخصية مصر — دراسة في عبقرية المكان » ، « ٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية » ، الخ . إن أهمية هذا البعد ، بعد الجغرافيا السياسية أو الجيوبوليتيكا ، هو : أنه يقدم لنا صورة مركبة متحركة لتفاعل القوى المختلفة الأقوى التي منها يتكون الاطار الأعم لتحركنا القومي الحضاري . وعندما نقول : « الاطار الأعم » ، فهذا يعني أنه لا سبيل إلى كسره بمفردنا ، ولكنه لا يعني من الناحية الأخرى أننا خاضعون له ، بل على العكس تماماً ، فإننا قادرون على تحديد تحركنا والتقدم به إلى أبعد مدى بحيث يصبح عنصراً فعالاً في تحريك « كاشات » الجغرافيا السياسية ، فكها وإعادة تشكيلها أو تحييدها أو البدء في كسر المعادي منها ، بشرط أن ندرك طبيعة تشكيلها واتجاه هذا التركيب في حركته التاريخية القريبة والمرتقبة .

ولعلك تذكر أننا قدمنا هذا التحليل بشكل منظم المرة الأولى في التقرير المعروض على المؤتمر السابع لعلم الاجتماع العالمي المنعقد في « فارنا » في سبتمبر — أيلول ١٩٧٠ بعنوان « من أجل نظرية اجتماعية علمية للامبريالية » ، وهو الجزء الأول من كتابنا « سوسيولوجيا الامبريالية » .

* هل فقد الغرب إذن زمام المبادرة التاريخية ؟ .

** هذا لا يعني أننا نعيش في عصر اضمحلال الغرب ، ولكن واقع الأمر هو أننا نعيش في عصر بدأ فيه الغرب يفقد مفاتيح المبادرة التاريخية التي كانت بين يديه منذ القرن الخامس عشر ، وأن الشرق شعوباً ودولاً بدأ يمسك بمفاتيح تلك المبادرة التاريخية بين يديه ،

أي بدأ يحدد بتحركه الذاتي . ومعنى الإمساك بمفاتيح المبادرة التاريخية هو : أن تحرك الشرق بدأ يطرح من خلال المنطق الموضوعي لذلك التحرك نفسه التساؤلات الكبرى التي يجد الغرب نفسه الآن ، وأيضاً بقية العالم ، مطالباً بالإجابة عليه . ان سلاح البترول مثلا لا يعني مجرد مناقشة تكتيك مواجهة مصدري البترول ، أو دراسة الربط بين الموارد البترولية والتنمية الصناعية ، وهو لايعني أيضاً مجرد الربط بين البترول وبين قضية الحدود الموضوعية لمصادر الطاقة في عالمنا اليوم ، وهي قضية على جانب عظيم من الأهمية الاقتصادية . وإنما سياسة البترول ، وهذا هو بيت القصيد ، وضعت نمط تنظم الاقتصاد الغربي نفسه – أي نمط السعي المطرد إلى زيادة إنتاج الماديات ومضاعفة الاستهلاك وخاصة استهلاك الكماليات باسم مجتمع الرفاهية واللحاق بمجتمع الرفاهية المزعوم هذا – نقول أن سياسة البترول التي فجرتها حرب أكتوبر وضعت منطق المجتمعات الغربية بأسرها ، وخاصة الرأسمالية منها ، في موضع الشك ، والتساؤل ، بل والاتهام . وجملة القول إن ما يسمى الآن « أزمة » في الغرب ليس هو في حقيقة الأمر معدلات نمو البطالة أو تلويث البيئة أو غير ذلك ولكنه في جوهره أزمة المنطق العميق المستمر للمجتمعات الغربية منذ بداية صعودها إلى مكانة الهيمنة في القرن الخامس عشر ، ومن هنا بدأت قضية أزمة الحضارة الغربية كلها : ماهي غاية الحياة الاجتماعية ؟ ما هو المجتمع الأفضل ؟ ما هو سلم القيم الاجتماعية التي تعمل على تعميق انسانية الإنسان ؟ ما هي العلاقة بين التهالك على الاستهلاك والانتاج من ناحية وبين اقامة علاقات اجتماعية تتسم بطابع الاخاء والتعاون لمواجهة أزمات الموارد المادية في العالم ؟ ما هي العلاقة بين القاعدة المادية والمستوى الثقافي – الفكري – الروحي ؟ هكذا أخذت أزمة الطاقة التي فجرتها حرب أكتوبر بيد الرأي العام العالمي حتى عتبة التساؤلات الفلسفية الكبرى في عصرنا . وهذا بالضبط مانعنيه بعبارة أن الشرق بدأ يأخذمفاتيح المبادرة التاريخية بين يديه .

وهناك معنى ثان يجب الالتفات إليه إذ نحلل عملية التحول التاريخي الراهنة ، الا وهو وجوب الابتعاد كل الابتعاد عن التقسيمات « الثنائية » المتنابذة ، فالعالم ليس « أبيض » أو « أسود » ، وكل موقف ليس « الخير » أو « الشر » ، وكل عملية صيروة ليست « ايجابية ناجحة » أو « سلبية فاشلة » على وجه الاطلاق . إن هذا المنطق الصوري الجامد الذي هيمن على الفكر الغربي أجيالا طويلة منذ أرسطو وتوما الاكويني وديكارت و كانط يحجب عنا رؤية التفاعل الجدلي لعملية الصيرورة التاريخية ، وهو المنهج الذي بدأ على أيدي هيغل وماركس وبلغ ذروته التاريخية عبر مسيرة طويلة ، خاصة على أيدي غرامشي في أوربا ، حتى

يبلغ ذروته في فلسفة ماوتسي تونغ ، نقول : ليس الغرب إلى أفول ، ولن ينتهي الاستعمار المهيمن في حقبة بضعة سنوات ، وإنما نقول على أساس المنهج الجدلي لتفاعل الحضارات : ان معدل نمو الغرب الرأسمالي المهيمن أخذ يتباطأ ، في الوقت الذي بدأ معدل نمو الشرق الناهض يتزايد سرعة باضطراد ، وهذا ما نعنيه أيضاً بعبارة المبادرة التاريخية . فالمسألة ليست مسألة « زوال » ما هو قائم و« احلال » ما هو ليس قائم محل هذا الذي هو زائل ، وإنما المسألة هي كيف نتبين التفاعل الجدلي بين عمليتي نمو ، الأولى في تأزم نسبي ، رغم احتفاظها بمكانة الصدارة حتى الآن ، والثانية في نهضة مضطردة واضحة . ان التفاعل الجدلي بين هاتين العمليتين التاريخيتين هو الذي يكون جوهر مانطلق عليه جدلية الحضارات في عصرنا ، وهي نظرة بعيدة كل البعد ، بل على نقيض تام من النظرة الصورية السطحية الصبيانية التي «قدناهـا» .

ومن هنا كانت نظرتنا إلى المغزى الحضاري لحرب أكتوبر أوسع أفقاً بكثير وأعمق مدى من مجرد النظرة الاستراتيجية سياسية كانت ام عسكرية أم اقتصادية ، وأن كانت بطبيعة الأمر تشمل نظرتنا هذه في إطارها العام النظرة الثانية المحدودةالتي لاغنى عنها .

* لننتقل إلى جانب آخر من جوانب التحرك العربي الحضاري في عصرنا . فالنضال من أجل الوحدة العربية يحتل مكان الصدارة في النهضة العربية المعاصرة من حيث أهمية الوحدة بوصفها مشروعاً حضارياً . ولقد سبق لك ، في عام ١٩٦٤ ، أن قدمت في أعمالك محاولة لتعميق هذا النضال على المستوى العملي . ومع أن حرب أكتوبر قد طرحت من جديد قضية الوحدة سؤالا وواقعاً واشكالية ، فإن هذه القضية ، على أهميتها التاريخية والحضارية والاستراتيجية ، أكثر القضايا العربية تعقيداً . فكيف تنظر إلى هذه القضية على ضوء التقييم الذي قدمته للتحرك العربي والموقف العالمي اليوم ؟ .

** لاشك أن انجاز المهام التاريخية بالتحرك العربي في طريق النهضة الحضارية — على ضوء العناصر والاعتبارات التي قدمناها هنا — يحتاج إلى تجديد النظرة إلى كيفية تجميع الطاقة القومية وتعبئتها بطريقة ذكية فعالة تضمن الفتح .

وبمعنى آخر : أصبح لزاماً علينا أن ندقق النظر في تجديد فهمنا وممارستنا لاشكالية الوحدة من جميع النواحي .

فاذا اعترنا أن نبدأ باشكالية الوحدة العربية ، نستطيع أن نتبين أننا الآن في مطلع مرحلة جديدة في التنظير والممارسة معاً ، على النحو التالي :

آ – المرحلة الأولى في تاريخ فكرة الوحدة العربية ، أصبحت الآن جزءاً من التاريخ . وبطبيعة الأمر اتخذت فكرة الوحدة منذ نشأتها في أوائل هذه القرن حتى دخولها في مرحلة التجارب والمحاولات الأولى للإنجاز ، طابعاً يمت إلى مجال فلسفة التاريخ ، شأنها في ذلك شأن مثل هذه الدعوة في قطاعات أخرى من العالم . كان مضمون هذه النظرة الفلسفية التاريخية يتكون في الأساس من تأكيد الإطار الثقافي الواحد ، استناداً إلى التاريخ المشترك من ناحية وعلى وحدة اللغة والوجدان والأديان من ناحية أخرى . وقد اندرجت هذه الدعوة في مرحلة لم يملك فيها العالم العربي قاعدة قوية للفكر والعمل تستطيع أن تمارس مهام الوحدة . فقد ضربت دولة محمد علي في ١٨٤٠ بالسلاح والحصار على أيدي الحلف المقدس بين جميع دول أوربا دون استثناء ، ووقعت جميع الأقطار العربية في قبضة الإحتلال الاستعماري الأوربي ، أي البريطاني والفرنسي ، ومكنت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ تلك الدول بالذات أن تكتل قواها اقتصادياً وعسكرياً وثقافياً وسياسياً في العالم العربي بحيث أصبحت القبضة الاستعمارية في عام ١٩١٩ أشد وأخطر بكثير مما كانت عليه فيما سبق . كان موقف الضعف السياسي هذا ، وزوال قطب الدولة المصرية المستقلة بالذات ، هو الأوضية التي طبعت فكرة الوحدة بهذا الطابع الفلسفي التاريخي العام .

ب – والمرحلة الثانية ، كانت في الواقع مرحلة مزجت بين الفكر والممارسة في ظروف قومية وعالمية جديدة . لقد امتزجت موجة الثورات الوطنية التحريرية في العالم العربي بعد ١٩١٩ بقيادة الطبقات البورجوازية والأحزاب الوطنية وبالاستناد إلى جماهير الشعب (الوفد ، الكتلة ، الخ) ، مع آثار الأزمة الإقتصادية العالمية التي أضعفت ركائز الاستعمار في المنطقة بالنسبة إلى تزايد بأس الحركات الوطنية ، بحيث جاءت المرحلة الثانية من الثورة الوطنية التحريرية بين ١٩٣٥ و١٩٥٢ أعمق بكثير وأبعد مدى مما حدث حتى هذا التاريخ . بدأت مصر تسعى بشكل فعال في طريق إقامة دولة وطنية مستقلة قوية من جديد تستطيع أن تواصل رسالة دولة محمد علي . واتسعت الجبهة الوطنية المتحدة في معظم البلاد العربية إلى قطاعات هامة من الجماهير الشعبية والجيش الوطني ، وأصبحت تسعى إلى أساليب

ثورية في التنظيم والتكتيك والعمل (التنظيم السري لحزب الوفد في ١٩١٩ – ١٩٢٣ ، الثورات المسلحة في سورية وفلسطين والعراق بين الحربين ، ثورة الجيش في العراق والموجة الثورية الشعبية في مصر في ١٩٣٤ – ١٩٣٦ ، ظهور المشروع الاشتراكي من خلال الأحزاب الشيوعية والحركة النقابية ، الانقلابات العسكرية الوطنية ، حرب التحرير الجزائرية ، موجة الحروب ضد الدولة الصهيونية ، المقاومة الفلسطينية ، المحاولات الثورية في جنوب الجزيرة العربية الخ) .وقد استقطبت الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر مجموع هذه التحركات والمحاولات . كانت الطبقات البورجوازية ، وخاصة البورجوازية المصرية ، تنظر إلى الوحدة العربية نظرة اقتصادية – ثقافية ، على أنها توحيد السوق العربية حول الدولة الأقوى ، وعلى أساس أنها سوق تتكون من شعوب تمت كلها إلى الثقافة العربية . وجاءت فكرة البعث داعية إلى تقديم فكرة التاريخ الحضاري المشترك والمصير الواحد على الاعتبارات الاقتصادية والسياسية المباشرة . وشرع جمال عبد الناصر وصحبه في إقامة أول « جمهورية عربية متحدة » بطريقة تغليب الدولة المركزية الواحدة على الأوضاع الإقليمية ، وقد تلت هذه التجربة محاولات عديدة أخرى تتسم كلها بالحرص الشديد على التقدم خطوة إلى شكل وحدوي لم يتحدد بشكل واضح بعد . لكن هذه المرحلة الثانية كانت حاسمة ، إذ نقلت الوحدة من فكرة إلى عمل ، من أمل إلى محاولة ، من فلسفة إلى تحرك تاريخي لم ينقطع .

ج – والمرحلة الثالثة التي نخوضها الآن تمت مباشرة إلى المفهوم الثالث للوحدة العربية ، وهو المفهوم الوطني التقدمي الذي قدمته الطلائع الاشتراكية في الأربعينات ألا وهو أن الوحدة العربية تقوم على أساس التاريخ المشترك ، وهي في مضمونها تمثل النضال المشترك للشعوب العربية وجبهاتها الوطنية المتحدة ضد الاستعمار والصهيونية من أجل تحقيق حياة مستقلة عصرية تتطلع إلى آفاق الاشتراكية والنهضة . جاءت نكسة حرب يونيو – حزيران ١٩٦٧ وزوال قيادة جمال عبد الناصر في سبتمبر – أيلول ١٩٧٠ بمثابة الإنذار . وجاءت أزمة الضمير قاسية ، شاملة ، تنزع الاطمئنان وتضاعف النقد والتساؤل . وأصبح من الواضح أنه لا مفر من تصعيد المعركة مع الاستعمار إلى مستوى جديد ، أشد وأعم وأبعد مدى بكثير مما تصورته الطلائع العربية في المرحلة السابقة . وبدأ النقد ينصب على أعماق التكوين النقدي ذاته ، ليس فقط على أساس اقتصادي أو سياسي مباشر ، وإنما بلغ أركان الشخصية العربية في مواجهة الاستعمار الحضاري منذ القرن الخامس عشر . ومن هنا كانت محاولات جادة ، متشعبة لكنها قليلة الترابط والاتصال ، بدأت شيئاً فشيئاً تسلط الأضواء على الارتباط العضوي

بين السياسة والثقافة ، بين الاستعمار الحضاري بجميع أبعاده والنهضة الحضارية الشاملة . برزت الدولة الصهيونية بوضوح لا كركيزة متقدمة للاستعمار الغربي بوجه عام والأمريكي على وجه التخصيص كما كانت نغمة الأمس ، وإنما كاستعمار عالمي متميز استطاع أن يؤثر على مفاتيح الحكم والقرار السياسي في قلب الاستعمار الأمريكي نفسه وهو دعامة الصهيونية الرئيسية. ولا شك ، وأن يستند على المؤازرة الحضارية والأخلاقية — الإنسانية الموضوعية للغرب كله ، بحيث أصبح وجوده في المنطقة هووجود للغرب قلعة هجومية عنصرية لا مفر منها في الشرق العربي ، طالما ظل العرب قاصرون عن تحقيق جميع أبعاد نهضتهم الحضارية كاملة غير منقوصة على أرضهم وفي منطقتهم .

ومن الواضح أنه لاسبيل إلى الطاقة العربية أن تعمل بشكل فعال من خلال التجزئة . ولا شك أن شعار الوحدة يتخذ اليوم طابعاً ملحاً جديداً . ولا شك كذلك أنه يستطيع أن يعتمد على مستوى متقدم من استعداد الشعوب وحركات الوطنية وكذلك الدول العربية . ولا شك أيضاً أنه لا يزال يواجه الكثير من العوائق ، بعضها موروث ، وبعضها موضوعي . إن طريق الجمع بين سلاح البترول والثورات العربية الشعبية ، بين الجيوش الوطنية وآمال جماهير العمال والفلاحين والمثقفين في الريف والمدن ، بين الدبلوماسية في عصر الوفاق وما يقتضيه التحرك العربي من سياسة نضالية متصلة ، بين الأنظمة التقدمية بسياساتها الهادفة إلى الإشتراكية والدول المحافظة ذات الأنظمة الاقتصادية المتخلفة — نقول ، لا شك أن هذه العوامل تحدد أركان تلك « المعادلة الصعبة » التي أشار اليها أحمد بهاء الدين في نهاية الأربعينات ، ولا زالت تفرض نفسها على الفكر والعمل في العالم العربي ، في كل آن ومكان ، وان كانت امكانات الحل الإيجابي تتزايد باضطراد . ولا شك أن حرب أكتوبر ، بايجابيتها التاريخية العظيمة وحدودها معاً ، شقت طريقاً أوسع أمام تحقيق الحل الإيجابي لهذه المعادلة ، لتحقيق وحدة الفكر والعمل بطريقة جديدة ذكية ، واقعية ، فعالة .

وعندنا ، كما عرضنا في سنة ١٩٦٤ ، أن مفهوم الأمة يمكن أن ننظر اليه على أنه مفهوم ذو مستويين :

— الأمة بمعناها الشامل ، وهي الأمة العربية ، أي الدائرة القومية — الثقافية التي تجمع عموم العالم العربي كما تكون منذ القرن السابع ، وكما أصبح اليوم .

— الأمة بمعناها الوطني القطري المحدد حول الدولة الوطنية المستقلة ، خاصة إذا تميزت.

هذه الأمة الوطنية وتلك الدولة بعمق الاستمرار عبر التاريخ كما هو الحال بوضوح في مصر مثلا ، وأيضاً إلى درجة كبيرة في المغرب .

وعلى ضوء هذا المفهوم ، مفهوم « الأمة ذات المستويين » – يمكن أن يكون حل الإنتماء المزدوج بين الانتماء القومي والوطني . فالإنسان العربي في كل مكان عربي قومياً بالمعنى الأعم ، والإنسان العربي في كل بلد عربي يحدد شخصيته وولاءه بالانتماء إلى هذه الدائرة الوطنية المحددة .

○ أود أن أتوقف عند هذا المفهوم لاستيضاح أمرين : أولهما ، لمن تتوجه بهذا المفهوم ، وعلى من ترد بصياغتك له على هذا النحو ؟ وثانيهما ، فيما يتعلق بمسألة ازدواج الإنتماء الذي أشرت اليه . فهل ينفي الانتماء إلى الأمة بشكلها الأعم الانتماء القطري الذي سيكون فيما أرى ، ضمن إطار دولة واحدة ، انتماء ثانوياً لا أهمية له ؟ وهل ينتفي في رأيك الإسهام التاريخي الخاص لكل شعب من الشعوب العربية على امتداد التاريخ ضمن إطار الدولة العربية الواحدة التي سيكون الانتماء فيها ، أساساً ، انتماء عربياً ؟ .

○○ إني سعيد بهذه المجموعة من الأسئلة ، فهي تعكس في الواقع تساؤلات ومشاعر قطاعات عزيزة من الرأي العربي . ربما استطعنا توضيح القضايا المثارة على النحو الآتي :

آ – ليس تقديم مفهوم « الأمة ذات المستويين » – وهو مفهوم وليس شعاراً ، فالشعار في هذا المجال هو « الوحدة العربية من أجل تحقيق النهضة الحضارية » – لا يقصد به الرد على أحد ، وإنما يقصد به تعميق فهم القطاعات العربية المختلفة بعضها للبعض الآخر . فالدعوة إلى الوحدة الشاملة أعمق ما تكون في سورية العزيزة ، خاصة ابتداء من تمزيق الشام بعد الحرب العالمية الأولى وتشتيت وحدتها الطبيعية إلى أربع دول . وهو ، أي الشعور بالوحدة ، يتخذ طابعا آخر ليس في مصر فقط – وهي أقدم مجتمع قومي ، أقدم أمة ، عرفها التاريخ – وإنما أيضاً في أقطار المغرب والجزيرة العربية . أي أن هناك درجات مختلفة في سلم استشعار شعوب وطلائع مختلف الأوطان العربية بانتمائها إلى القومية العربية بالمعنى الأعم . ومن هنا كان تقديم مفهوم الأمة ذات المستويين ، أو الدائرتين ، توكيداً لكل ما فيه تعميق وتأصيل وتحقيق الوحدة الشاملة . ليس رداً « على » وإنما « إسهام في » عملية الوحدة .

ب – مسألة النسب المختلفة بين الانتماء القومي والانتماء الوطني – أقول « الوطني » وليس « القطري » – ثم بين محصلة التراث الحضاري العربي من ناحية والطاقات الوطنية المختلفة من ناحية أخرى ، مسألة غاية في التعقيد لا أظن أنها قابلة لرد واحد مسطح ينطبق على جميع الوحدات التي يتكون منها الإطار القومي العربي . لكن هناك ولا شك بعض الأفكار المحورية التي لا غنى عنها . الفكرة الأولى – وهي متضمنة في تعريفنا للمستوى الأول للأمة العربية أعلاه – هي : ان مهمة تعبئة الطاقة العربية هي عملية تركيبية تتكون على وجه التحديد من التفاعل بين محصلة تاريخنا الحضاري من ناحية والطاقات والامكانات القائمة بالفعل في مختلف الأوطان العربية من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى محصلة التاريخ الحضاري المتميز قبل المرحلة العربية لتلك الأوطان التي تمتعت باستمرارية تاريخية متميزة وخاصة في مصر . وعبارة « التفاعل » تعني أن العملية ليست عملية « جمع » بين طاقات وحدات مختلفة بشكل حسابي وإنما هي عملية جدلية يمكن أن تحقق نتائج أوسع وأسرع وأعمق بكثير من خلال تحقيقها ، وذلك نظراً لانتماء أوطاننا المختلفة لإطار القومية العربية الأعم . والفكرة الثانية يمكن التعبير عنها على النحو التالي : إن الولاء ، حتى الآن ، لا زال يتحدد في الانتماء الوطني ، وهذا أمر طبيعي في تاريخ الأمم والشعوب قاطبة . وبقدر ما تبدو الوحدة العربية إسهاماً في تحقيق آمال شعوب مختلف الأوطان ، سوف يتسع أفق الولاء من الأقرب إلى الأعم . فالمسألة ليست مسألة فرض نظري ، وإنما محصلة عملية تاريخية موضوعية كما تمارسها الشعوب في وجدانها العميق وفي واقع أوطانها المختلفة ضمن الأطار القومي العربي . ولا أظن أنه من المعقول ولا من الضروري أن نتوقع زوال الولاء الوطني في كل من الأوطان العربية التي تتمتع بعمق المجال التاريخي بشكل واضح . ولكن المعقول والمتوقع هو الربط بين هذا الولاء التاريخي والأولي والمباشر والولاء للإطار الوحدوي العربي الأعم ، ما دام أن تحقيق مستقبل المجتمعات الوطنية المختلفة يوازي ، ويرتبط ، ويندرج من خلال تحقيق النهضة الحضارية العربية الشاملة . ومما لا شك فيه إطلاقاً أن المعركة الحضارية الشاملة ضد الاستعمار الحضاري الشامل في حاجة متزايدة على تأكيد مستوى العمل العربي الموحد في كافة المجالات وبالتغلب على كافة العقبات ، نظراً لشمول التحدي وضراوة مناورات التقسيم والتفتيت بين صفوفنا ، وأيضاً ولم لا ! نظراً لعمق تمسك العرب أجمعين ، في قرارة نفسهم ، بالعقل والوجدان والإرادة ، بالإخاء العميق بعد طول تمزيق أو انزواء .

وأود هنا أن أعود إلى جانب من تحليلنا ، خاصة وقد رأيناه يكون الآن أساس حملة من

نوع جديد ، باسم « التقدم » للتفرقة بيننا . فهل يكون التباين الواضح حقيقة بين مجتمعاتنا المختلفة عائقاً للوحدة العربية ؟ . وهل معنى ذلك أنه لا بد من توحيد أنظمتنا الاجتماعية قبل الشروع في الوحدة ؟ .

تبدو هذه الحجة لأول وهلة وكأنها حجة علمية . فالتباين والاختلاف هام وموضوعي لم ينكره أو يتنكر له أحد . لكن واقع الأمر أنه حتى في نطاق الدولة الوطنية الواحدة كما نشهدها اليوم هناك اختلافات وتباينات بالغة الخطورة : انظر مثلاً إلى سردينيا وصقلية بالنسبة لشمالي إيطاليا ، أو كورسيكا ومنطقة بريطانيا بالنسبة لبقية فرنسا ، أو ذلك التمايز بين كاتالونيا والأندلس وبلاد الباسك في اسبانيا ، أو الهوة بين اسكوتلنده وبلاد غال وايرلندا بالنسبة لبريطانيا العظمى . أو جزيرة سابورو الشمالية وقلاع الضاعة في اليابان الوسطى على ساحل المحيط الهادي ، الخ . وفي التجمعات القومية الاقليمية أو الاتحادات نشهد نفس التباين : الفوارق بين سيبريا وآسيا الوسطى وجمهوريتي روسيا وأوكرانيا في الاتحاد السوفيتي ، التيبت وسين كيانغ بالنسبة للقطاع الشمالي والشرقي من الصين الشعبية ؛ والاختلافات الشاسعة بين مختلف بلدان السوق الأوربية المشتركة ، وكذا في إطار أمريكا اللاتينية ، وكذا أيضاً بين مختلف ولايات الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل ، وكذا أيضاً بين مختلف مناطق الهند الخ . جملة القول : ان التباين والاختلاف في مستوى التقدم الاقتصادي وطبيعة النظام الاجتماعي لا تكون بحال من الأحوال حجة لادعاء استحالة الوحدة . بل على العكس من ذلك تماماً : فإن عملية الوحدة من خلال المعركة التاريخية ضد الاستعمار تمثل أكبر عون للتقريب بين هذه المستويات المختلفة وتغليب المتقدم منها على المتخلف وتعميق أثر التجارب والأنظمة التاريخية على غيره ، أي أن الوحدة تمثل طريق التقدم ، بينما تمثل الدعوة إلى حل التباين الاجتماعي قبل تحقيق الوحدة ضرب هذه الوحدة عينها ومنع العرب من إقامة نهضتهم الحضارية على أساس قوة سياسية فعالة في المجال العالمي — وهذا هو بيت القصيد . والمهم هنا أن ندرك تماماً أن هذا الهجوم المضاد الاستراتيجي يتولاه قطاعان : القطاع الاستعماري المحافظ التقليدي في الغرب ، وأيضاً وبطريقة متزايدة القطاع « المتياسر » في الغرب والشرق معاً على أساس « علمي » بغية ضرب التحرك السياسي العربي على أساس قومي — حضاري في قلب إعادة تشكيل ميزان القوى في العالم ، وفي طليعة تحرك الشرق الناهض ، وفي إطار التفاعل الجدلي بين الحضارات في عالم اليوم والغد .

ه إن الحديث عن الوحدة العربية ، يقود أيضاً وبالضرورة إلى الحديث عن الوحدة في المجال الداخلي . . .

هه العلاقة بين حركة الوحدة العربية كما أكدتها وحركة الوحدة في الداخل أو ما يطلق عليه الجبهة الداخلية .

حديثنا اليوم اخترنا أن نركزه على البعد الخارجي ، أي دراسة العلاقة بين التحرك العربي والعالم الجديد الذي يتشكل أمامنا ، وإلى حد هام بفضل تحركنا النهضوي .

إن موضوع الوضع الداخلي في أقطارنا العربية يثير شبكة من القضايا لا بد من إفراد دراسة خاصة ، ولو لمجرد الاقتصار على عرض رؤوسها . إلا أن هناك بطبيعة الأمر حاجة ملحة لذكر شيء عن الجبهة الداخلية في ارتباطها بالتحرك العربي في العالم المعاصر .

والحق أن عبارة « الجبهة الداخلية » عبارة عامة ، وعندنا أنه من الأوفق استعمال عبارة « الجبهة الوطنية المتحدة » – على حد تعبير رائد الاشتراكية الثورية الوطنية العظيم الراحل في مصر شهدي عطية الشافعي . وأود هنا أن أحدد كيفية تشكيل هذه الجبهة في عالمنا العربي وعلى ضوء ظروفنا التاريخية والموضوعية . وعندي أن الجبهة الوطنية المتحدة تتكون على مستويين :

أ – المستوى الأول ، التقليدي ، هو : التحالف بين مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية والأحزاب السياسية والتنظيمات الشعبية والنقابية ، على أن يتم هذا التحالف على أوسع صورة ممكنة فقط ، فلا يستثنى منه إلا ذلك القطاع من كبار أصحاب المنافع المتهادنين مع الاستعمار القابلين بمخططاته أو القانعين بها . وهذا هو الفارق بين ما يطلق عليه « الجبهة الشعبية » في مفهوم الحركة الاشتراكية الاوروبية ، وهي الجبهة التي تتكون من الجماهير الكادحة في المدن والقرى وحدها ومن أحزابها اليسارية ونقاباتها وذلك في مقابل جبهة الرأسمالية على اختلاف فئاتها وأحزابها . والفارق واضح كل الوضوح : ان شعوب آسيا، وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تواجه في الأساس عدواً رئيسياً هو الاستعمار . وهي تواجه أيضاً ، ولكن بوصفه التناقض الثانوي ، عدواً طبقياً يتمثل في الطبقات والفئات اليمينية المرتبطة بالاستعمار ، بينما تشارك غالبية الطبقات والفئات الرأسمالية التحرك الاستقلالي الوطني إلى درجات متفاوتة . وعلى هذا فإن القاسم المشترك بين تلك العناصر الاجتماعية والسياسية التي هنا إنما هو المشاركة في المعركة من أجل الاستقلال ، والتحرر الوطني ، والانتقال به من استقلال صوري إلى تحرر جذري – وهي العملية التاريخية التي تكون مضمون المرحلة الأولى من الثورة الوطنية التحريرية في البلاد التي ظلت تابعة للامبريالية خلال مرحلة طويلة من

الزمن . ومن الواضح أن المرحلة الثانية ، الاشتراكية ، تقتضي إعادة تشكيل هذه الجبهة الوطنية المتحدة ، الذي سنشير اليه بعد قليل .

ب — مستوى التأليف في حوار جدلي بين ما نطلق عليه المدارس الفكرية الرئيسية المتأصلة في ثقافتنا الوطنية ، وخاصة : الاتجاه الوطني التقدمي ، والاسلام السياسي ، والاتجاه القومي الاستقلالي — وهي مدارس تتخذ صوراً مختلفة حسب الأقطار . وان ظل القاسم المشترك بينها هو اشكالية الجمع بين النضال الاستقلالي في طريق النهضة ، بينما تسعى مدارس واتجاهات فكرية أخرى إما إلى تقليد الغرب المهيمن بحيث تتنازل عن النهضة كهدف ، واما تقليد ألليات « متياسرة » معادية للقومية ولا ترى مستقبلا لشعوبنا العربية وعالمنا العربي إلا في التبعية الايدلوجية وذلك بتقسيم الصف الوطني واستعداء العرب ضد الحركة الاشتراكية العالمية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية .

وهنا أيضاً تتبين اختلاف مفهوم الجبهة في بلادنا عن المفهوم التقليدي في الغرب . ومصدر الفارق مرده إلى بعد العمق التاريخي لحضارات الشرق ، وخاصة في مصر وإيران والصين وكذا في العالم العربي — الإسلامي في مجموعه إذا قارناه مثلا بالولايات المتحدة أو ببوليفيا أو بلجيكا .. الخ . (ومن الواضح أن قوميات مثل فرنسا وانكلترا واسبانيا وألمانيا وإيطاليا تقع في منزلة بين هاتين المنزلتين ، بحيث انها أقرب الينا من بقية الغرب) . إن هذا العمق التاريخي ، وبوجه خاص استمرار عدد من المجتمعات الشرقية حول الدولة فيها عبر الأجيال في مجتمعات زراعية ثابتة ساعد على تشكل أنماط وإطارات وأساليب متميزة من تفهم عملية التحول الجدلي التاريخي ، بحيث كان لا بد من الانتباه لهذا الطابق الثاني من جبهتنا الوطنية المتحدة . وهناك أمثلة بينة لن نخوض فيها الآن حيث رأينا كيف يتوزع اتجاه فكري واحد ، أو بوجه أدق مدرسة فكرية واحدة على العديد من الطبقات والفئات الاجتماعية والتكوينات السياسية أيضـــاً .

وباختصار شديد يمكن أن نعالج موضوع كيفية الانتقال من المرحلة الأولى للثورة الوطنية التحريرية ، إلى مرحلتها الثانية ، الاشتراكية ، كما يلي : يغلب على قيادة الجبهة الوطنية المتحدة في المرحلة الأولى طابع البورجوازية الاستقلالية أو الوطنية ، أي أن محور السلطة السياسي والقرار السياسي يتحدد في الوسط ، مع تشكلات فرعية إلى يمين الوسط أو يسار الوسط في حدود لا يتعداها كثيراً اللهم إلا بفترات اشتداد الأزمة الوطنية كما حدث مثلا في مصر جمال عبد الناصر عام ١٩٦٦ (الحملة لاستئصال اليمين المتزمت ، وتفتيت طبقة

كبار ملاك الأرض بدلا من تحييدها ، والاتجاه بقوة إلى العمال والفلاحين وصغار الضباط كأساس للتنظيم السياسي الجديد ، وتعميق المفاهيم الاشتراكية وتأصيلها في نشاط الدولة والحزب والمجتمع — مما ترتب عليه قرار الامبريالية باطلاق العدوان الصهيوني في حزيران — يونيو ١٩٦٧ للقضاء على تعميق اتجاه الجبهة الوطنية المتحدة في مصر ، وتأصيلها هكذا جذرياً نحو الاشتراكية من خلال تحرك الجماهير الشعبية حول دولتهم الوطنية المستقلة) . وخلال الانتقال إلى المرحلة الثانية ، لا بد أن يهدف نضال الطبقات والفئات الشعبية والتنظيمات الأكثر تقدماً والاتجاهات الأكثر راديكالية إلى وضع مقاليد القيادة السياسية للجبهة أكثر فأكثر بين أيدي هذا القطاع الشعبي المتقدم ، أي نقل مركز الثقل من الوسط أو يمين الوسط إلى يسار الوسط بصور ودرجات متفاوتة بطبيعة الأمر . ان عملية الانتقال هذه لا تتم باحلال طبقة محل طبقة ، أي لا تتم باحالة الطبقات والفئات الرأسمالية الوطنية الشريفة إلى المعاش وفرض حكم طبقة واحدة ، كما يحلم البعض ، وإنما بالنضال من أجل إعادة تشكيل قيادة الجبهة الوطنية المتحدة في اتجاه شعبي راديكالي عامل من أجل الجمع بين التحرر الوطني والثورة الاجتماعية من أجل مجتمع وطني مستقل اشتراكي يهدف إلى تعميق المسيرة نحو النهضة الحضارية . ومن الغريب أن تحدث هذه الأفكار العريقة في حركتنا الوطنية « ذهولا » مصطنعاً هنا وهناك . فهي كما قلنا ، متأصلة عميقة الجذور في تراث الاشتراكية الثورية كمدرسة فكر وعمل في قلب حركتنا الوطنية . وهي تتفق تماماً أيضاً مع التطور الذي قدمه أنطونيو غرامشي للفكر الاشتراكي الأوربي وهو أكبر إسهام نظري في الغرب في عصرنا والذي مكن الحركة الاشتراكية في إيطاليا واسبانيا وقطاعات هامة من الغرب من تخطي المذهبية الجامدة وإشكالية الصدام الرأسي الذي يسلب الشعب فرصة التحالف التاريخي مع حلفاء له عظام الشأن هم أيضاً رفاق المسيرة وأخوة في الوطن .

وإذا أردنا ، فلن نستطيع أن نضيف إلى عبارة الرائد الكبير الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي : « ليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر والمصنع » .

باريس .

٭ ٭ ٭

قمر شيراز

عبد الوهاب البياتي

(١)

أجرح قلبي ، أسقي من دمه شعري ، تتألق جوهرة في قاع النهر الانساني ، تطير فراشات حمر ، تولد من شعري : امرأة حاملة قمراً شيرازياً في سنبلة من ذهب مضفوراً ، يتوهج في عينيها عسل الغابات وحزن النار الأبدية ، تنبت أجنحة في الليل لها فتطير ، لتوقظ شمساً نائمة في حبات العرق المتلألىء فوق جبين العاشق ، في حزن الألوان المخبوءة في اللوحات : امرأة حاملة قمراً شيرازياً في الليل تطير ، تحاصر نومي ، تجرح قلبي ، تسقي من دمه شعري ، أتعبد فيها : فأرى مدناً غارقة.

في قاع النهر النابع من عينيها ، يتوهج سحر عسليّ
يقتل من يدنو أو يرنو أو يسبح ضد التيار ،
أرى : كل نساء العالم في واحدة تولد من شعري
أتملكها ، أسكن فيها ، أعبدها ، أصرخ في وجه
الليل ولكن جناحي يتكسر فوق الألوان المخبوءة
في اللوحات

(٢)

مجنوناً بالنهر النابع من عينيها
بالعسل الناري المتوهج في نهر النار
أسبح ضد التيار

(٣)

أكتب تاريخ الأنهار
أبدؤه بطيور الحب وبالنهر الذهبي الأشجار

(٤)

بدمي يغتسل العشاق
وبشعري يبني الغرباء
في المنفى « شيراز »

(٥)

أتملكها ، أسكن فيها
أعبدها
أرسم في ريشتها : مدناً فاضلة يتعبدفيها الشعراء

(٦)

مجنوناً بالنهر النابع من عينيها
بالسيل الجامح والفيضان
باللهب المفترس الجوعان
أسبح من غير وصول للشاطىء ، أغرق سكران

(٧)

أفرد أجنحتي وأطير إليها في منتصف الليل ، أراها نائمة ، تحلم بالقمر الشيرازي الأخضر فوق البوابات الحجرية يبكي ، يتدلى من أغصان حديقتها ويظل وحيداً يتعبد فيها : ما كان يكون : حياتي كانت في الأرض غياباً وحضوراً تملؤه الوحشة والترحال وأشباح الموتى : كوني : أيتها المشربة الوجنة بالتوت الأحمر والورد الجبلي الأبيض : زادي في هذي الرحلة : كوني : آخر منفى : وطن : أعبده ، أسكن فيه وأموت

(٨)

قولي : للحب : « نعم » أو قولي : « لا »

(٩)

قولي : « أرحل ! » فسأرحل في الحال
قولي : « أهواك »
أو قولي : « لا أهواك »

(١٠)

قنديلا ذهب عيناك
ويداك شراعان

(١١)

أُخفي فاجعة تحت قناع الكلمات . أقول لجرحي
« لاتبرأ » ولحزني : « لاتبرد » وأقول :
« اغتسلوا بدمي » للعشاق

(١٢)

تلتهمُ النارُ : النارَ وتحبو أحزان العشاق الرُحل
في صحراء الحب وتبقى « شيراز » ونبقى : نرحل في
الليل إليها : محترقين بنار الحزن الأبدية ، تنبت
أجنحة في الفجر لنا ، فنطير ولكنا قبل وصول
الركب اليها : نتملكها ، نسكن فيها ونعود

(١٣)

وجدوني : عند ينابيع النور قتيلاً ، وفمي بالتوت
الأحمر والورد الجبلي الأبيض مصبوغاً وجناحي
مغروساً في النور

* * *

الزهرة

قصة: زكريا تامر

كانت يداً خشنة نحيلة مدفونة في التراب ، ولقد تاقت الى الشمس والمطر والسماء الزرقاء والريح ، فزحفت ببطء طوال أعوام متجهة الى أعلى ، وتخضبت بدمها النازف وعذّبها طويلاً ألم قاس ،ولكنها لم تتخل عن محاولتها حتى تمكنت من أن تنبثق من التراب كانفجار صغير مباغت .

وترنحت نباتاً غريباً ، منتشية بالضوء والهواء والأصوات ، متلهفة الى ما ينسيها ظلمة التراب ، وتلمست اصابعها المرتعدة سطح الأرض ، وتجمدت لحظة أمسكت بزهرة ؛ وغمرها حنو عارم مبهم ، وعصف شوق في شرايينها منادياً نهداً كان أجمل وردة بيضاء ، وامتزج النداء بصرخة انطلقت يوماً من حنجرة رجل تهاوى أرضاً ملطخ الصدر والفم بالدم .

وركض نداء اليد وصرخة الرجل في شوارع صاخبة ، وفتشا البيوت بيتاً بيتاً ثم تلاشيا ذليلين .

وتذكرت اليد الخشنة النحيلة المرأة التي تملك جسداً من نجوم بيضاء دائمة الارتعاش .

وضحكت المرأة ، وهمست بمرح : « لنفعل ما نشاء وليفعل أهلي ما يشاؤون » .

وضحك الرجل وقال : « سنعيش كما نريد ولن نبالي بأحد » .

والتصق جسداهما عشباً أخضر ووردا أحمر وناراً وماء ،.

ولكن السكاكين أقبلت ، وحاول الرجل أن يحمي جسده بيديه الخشنتين النحيلتين غير أن السكاكين استمرت في مطاردته وطعنه حتى سقط كورقة شجرة يابسة ، ودفن في بستان أخضر ، وفني اللحم الممزق الدامي رويداً رويداً في التراب وبقيت اليد الخشنة النحيلة التي لم تستطع النسيان .

ووهنت قوى اليد ، وأوشكت أصابعها أن تفلت الزهرة ،ولكنها تشبثت بها باصرار .

وجاء في تلك اللحظة خمسة رجال وبرفقتهم امرأة وبنت لايتجاوز عمرها العاشرة ، وقعدوا على بساط بالقرب من اليد الخشنة النحيلة .

قالت المرأة متصنعة التذمر : « أنتم خمسة . ماذا سأفعل بكم ؟ ستتعبونني كثيراً » .

قال رجل : « ماذا تقترحين ؟ » .

قالت المرأة : « أن تساعدني بنتي » .

قال الرجل : « لكنها صغيرة » .

فصاحت البنت بصوت رفيع حانق متحد : « هيا جربني وستجد أني أفضل من أمي وستدفع لي أكثر مما ستدفع لها » .

فارتعشت اليد الخشنة النحيلة ، وافلتت الزهرة ، وانسحبت هاربة إلى ظلمة التراب .

دمشق

* * *

مدخل

لدراسة الحركة الأدبية المعاصرة في سورية

خلدون الشمعة

يذكر كاتب معاصر أن مخطوطاً كتبه كيميائي قديم عن « حجر الفلاسفة » الذي كان يزعم أنه يمتلك طاقة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، يقدم النصيحة التالية ، للعثور على هذا الحجر الخيالي :

« يمكن أن يوجد حجر الفلاسفة عندما تعتمد عملية البحث على الباحث نفسه .

إذا بحث بشدة فلن يجد شيئاً . وإذا هو استنكف عن البحث فلا بد أن يجده »

إن استجلاء ملامح حركة أدبية معاصرة ما ، هو أشبه بالبحث عن حجر فلاسفة وهمي . إنها ماثلة في قصص وقصائد ودراسات لمن لا يبحث عنها . أما حين يصبو الناقد إلى أسرهـا ضمن سياق تاريخي نقدي ، فلابد أن يكتشف بشيء من الخيبة ، أن الحركة الأدبية المعاصرة صيرورة دائبة التشكل ، وانه يتعذر صياغتها بالفعل الماضي ، لأنها بنية مركبة ، متعددة الأصوات وموضوعة في سياق حاضر متغير . فهل هي حركة فعلا . . ! . . أم لعلها مجموعة تيارات ، أومنظومة اتجاهات ، أو نسق مذاهب . . ! . .

من المحقق أن المجردات في ثقافتنا العربية الراهنة قد استفحل استخدامها غير المحدد بحد إلى مدى اصبحت معه ضعيفة الدلالة . فحين يتصدى الباحث لموضوع الحركة الأدبيـة المعاصرة في سورية ، لا مناص من أن يتساءل عندئذ عما إذا كانت المصطلحات المكونة لعنوان البحث ، تمتلك مفاتيحها التي تشير الى وجود فعلي ، كما أنه عاجز عن تجنب التساؤل عما إذا كان لعملة المصطلحات الورقية المتداولة ، هذه ، غطاؤها الحقيقي من الأرصدة الذهبيـة .

ذلكم هو الحد الأساسي في الخلاف الذي كان (الاسميون) و (الواقعيون) أقطابه المتنازعة في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر : هل يشير حديثنا عن (القصة) في الأدب العربي القديم مثلا ، إلى جنس أدبي قديم ومتسق ومائل المواصفات ، أم أننـا نشير باستخدامنا للمصطلح إلى معنى مستحدث نسقطه على تاريخ الأدب العربي القديم اسقاطاً . . ؟

إن الصواب والخطأ من الناحية الفلسفية المحضة ليس بذي موضوع في مجال استقصائنـا هذا . إلا أننا نود أن نبين صعوبة تحديد معنى المصطلح في بحثنا الراهن الذي يشتمل على عنصري التاريخ والنقد الأدبي في آن واحد . فقد سيطرت على النقد العربي الحديث بدءاً من عصر النهضة ، نبرة عالية تفترض باستمرار ، حالة من التطابق النموذجي بين التاريـخ الاجتماعي والسياسي وبين تاريخ المخيلة المبدعة . وبالتالي فقد سيطر الإطار الاجتماعي والسياسي للمبدعات الأدبية على اختلاف أجناسها ، على حقيقة هذه المبدعات التي أصبحت تعامل على أساس أنها لاتشكل علامات حاسمة في تاريخ أدبي وإنما هي أجزاء تابعة دائمـاً للسياق الإجتماعي والسياسي ، بل وممثلة لهذا السياق على نحو بلغ من الميكانيكية حداً يفترض أن الكاتب مرتبط سلفاً بنوع من السحرية التي ترغمه على ترداد ماهو شائع حيناً ، وما هو متوقع منه في أحيان أخرى .

هذا الافتراض بل التسليم بتبعية الكاتب العربي الدائمة للسياق التاريخي للأحداث ، لم

يكتف بتكريس المبدعات الأدبية التي كانت نتاج ردود فعل قاصرة فنياً على الأحداث ، واعتبارها الأدب كله وليس جزءاً من الأدب ، وانما تعدى الأمر ذلك الى وضع أعمال فنية كثيرة خارج نطاق الحركات والمذاهب الأدبية ، لمجرد أنها متمردة على الإيقاعية السياسية السائدة .

وبالطبع فان السيطرة الجامحة لتاريخ الأدب ، بما فيه من عناصر بيئية سياسية واجتماعية قد بلغت في مثال النقد السوري الحديث حداً ، لايمكن معه استثناء النقد الجامعي أو الحر أو الصحفي من هذا الحكم . ولا أريد أن ابدو متشائماً لوجه التشاؤم في هذا التشخيص . حسبي أن أشير الى جملة من المصطلحات الشائعة في النقد السوري الحديث وهو بطبيعة الحال جزء فاعل ومنفعل من المجهود النقدي العربي . فالحداثة والمعاصرة والكلاسيكية والتجريبية ، على سبيل المثال ، قد أصبحت في مثال النقد السوري مفاهيم سياسية دوغمائية بالمعنى المباشر للسياسة . وبالتالي فانها لم تعد تعبر دائماً عن قيم نابعة من صميم البنية الفنية للأعمال الأدبية بحد ذاتها ، وإنما هي في أحيان كثيرة أدوات في تقارات فوضائية تسهم في عرقلة المحاولات ، التي ترى أن للأدب سياقه الخاص ضمن سياق التاريخ العام ، دون أن تنكر علاقة التواشج بين السياقين .

إن عبارة (شاعر كلاسيكي) وعبارة (شاعر حديث) اللتان تترددان في الدراسات النقدية السورية قد اصبحتا في أيدي العديد من مؤرخي الأدب سلاحين لا علاقة لهما بالحد الأدنى الا تفاقي والمتعارف عليه ، لكل منهما . فالشاعر السوري عندما يكون (كلاسيكياً) هو أقرب إلى ان يكون مدان سياسياً كما تراه باصرة الناقد المتعاطف مع الحداثة الشعرية . وهو على النقيض من ذلك كما تراه باصرة الناقد المتعاطف مع الشعر القديم . وهكذا فإن (الكلاسيكية) لم تعد حكماً تصنيفياً يمكن أن يبنى عليه حكم قيمي من داخل المذهب نفسه ، وإنما استحالت إلى حكم قيمي مباشر في حد ذاته ، إيجابياً كان هذا الحكم أو سلبياً .

وحتى (الحداثة) و (المعاصرة) فإنهما تستخدمان على أساس انهما شيء واحد قد لا يختلف عن (التجريبية) في نهاية المطاف ، وهكذا فإن المصطلحات الثلاثة كثيراً ما تتردد في كتابات نقدية سورية وكأنها تنطوي على تقويم إيجابي أو سلبي .

وحصيلة ذلك ان عملة المصطلحات الورقية المتداولة هذه ، إنما تغدو فاقدة لغطائها الفعلي من الأرصدة الذهبية . ومن هنا فإن الحذر ضروري في نطاق تحديد موضوعنا ، باعتبار انه ينهض على ثلاثة محاور :

١ – المحور الأول ويتعلق بالتسليم بوجود حركة أدبية ، رغم أن مصطلح الحركة الأدبية يوحي بأن ثمة سياقاً واحداً متسقاً يتجه وجهة معلومة ، ورغم أنه يوحي بوجود تمذهب على المستوى الجماعي يمكن تقري خصائصه التقنية والمضمونية على أساس أنه يعبر عن نفسه ضمن سيالات ذات ديمومة واستمرار وليس في جزر فردية منعزلة تتميز بالانقطاع والفجائية والانعزال

٢ – وأما المحور الثاني فهو يتصل بمسألة رسم حدود المعاصرة . هل المعاصرة مفهوم زماني أم مفهوم فني أم مفهوم زماني وفني معاً . . ؟ . . فكيف نميزها عن الحداثة . . ؟ . . وهل هي مفهوم مستقر أم متحرك . . ! . .

٣ – وأما المحور الثالث فهو يتعلق بمعنى الهوية السورية للحركة الأدبية . هل يمكن التعامل مع الأدب في سورية على مدى فترة من الفترات ، على أساس الافتراض بأنه يشكل وحدة تعبيرية ، أو وحدة تاريخية ، أو وحدة مكانية . . ؟ . .

لقد وصف أرسطو الإلياذة حسب التسلسل التالي :

– الإلياذة إغريقية
– قصيدة روائية
– عن الحرب الطروادية

ولكن كيف يمكن الحديث عن خصوصية أدب سوري بمعنى الحديث عن خصوصية ادب أغريقي . . ؟ . . إن من الخطورة بمكان الخلط بين مفهوم الهوية (المحلية) ، وبين مفهوم الهوية (القومية) . وحتى مسألة المحلية لا تبدو في مثال الأدب في سورية ، متجانسة إلى حد القول بوجود محلية واحدة بدل وجود محليات . إن الحديث عن الأدب في سورية يصبح بهذا الاعتبار محاولة لتبسيط الدراسة وليس محاولة لاصطناع خصائص متميزة من حيث الموضوع أو من حيث الأداء ، ضمن السياق العام للأدب العربي .

وعلى ذلك فإن الحركة الأدبية تتضمن من بين ما تتضمنه ، وجهة نظر كاملة لمرحلة من المراحل . انها شيء آخر غير المرحلة . إنها خصائص المرحلة وسماتها . ولهذا فإن تحديد المرحلة التي يغطيها مفهوم المعاصرة في الأدب لا يمكن أن يكون تابعاً تبعية ميكانيكية لخارطة الأحداث ، ذلك أن مفهوم المعاصرة بالمعنى الفني ، إنما يغطي الأعمال التي تنتمي إلى الفترة الحاضرة بالإضافة إلى الأعمال التي تبدو وكأنها من الفترة الحاضرة ، على الرغم من انها قد تنتمي زمنياً إلى مرحلة مبكرة .

ولعل تداخل مفهوم الأدب المعاصر ومفهوم الأدب الراهن (Current Literature) من الأسباب التي تسهم باستمرار في الخلط بين قيمة الأدب باعتباره يمثل مراحل تاريخية في تطور الأدب ، أو الجنس الأدبي ، أو نتاج الكاتب نفسه ، وبين قيمته الحقيقية التي تتسم بالديمومة التي صمدت للزمن وأثبتت قدرتها على استمرار التأثير في عصرها وخارج عصرها . إن هذا الخلط الذي يطلق عليه النقد اسم (المغالطة التاريخية) يؤكد على أن تحديد من كان البادىء أولاً في ابتكار شعري جديد مثلاً ، لا معنى له بمعزل عن مفهوم القيمة الفنية . وقد رأينا في مثال الأدب العربي الحديث ومن ضمنه الأدب السوري ، أن كثيراً من الأعمال الأدبية المعاصرة قد استمدت نسغ الاعتراف النقدي بها من كونها تشكل ردود فعل هيجانية على نكسة حزيران وذلك بمعزل عن مفهوم القيمة الفنية أو حتى الحد الأدنى من هذا المفهوم كما يتجلى في نظرية الأدب المستمدة من الأعمال الفنية العظيمة في الآداب العالمية .

ومن جهة أخرى فان (المغالطة التاريخية) تتجلى أيضاً في الضوضاء التي تثار حول القصيدة الأولى في الشعر العربي الحديث . هل هي (كوليرا) نازك الملائكة حقاً . . ؟ . . ام انها قصيدة لشاعر عربي مجهول ينقب عنها تنقيباً ، ناقد مجتهد في أكداس صحف ومجلات قديمة . إن أحداً لم يجشم نفسه عناء القول بتهافت قصيدة (الكوليرا) وبالتالي التأكيد على أن قيمتها الحقيقية تاريخية بمعنى انها جاءت مبكرة في السياق ولكنها لا يمكن أن تكون جيدة بالمقياس النقدي لمجرد كونها بداية ، كما لا يمكن أن تكون قصيدة أخرى رديئة لمجرد انها لا تدشن بداية من نوع آخر . ان مقياس القيمة هذا له سيطرته على الكثير من المفاهيم النقدية الآخذة بالرسوخ وخصوصاً فيما يتعلق بالفن الشعري . وإذا كانت هذه الظاهرة عربية الا متداد فإن الأدب في سورية ليس بعيداً عن بؤرتها المركزية بكل تأكيد .

فـ « الأول هو الأفضل » . أو بلغة أشد تواضعاً :

« الأول يستحق أن يكون الأفضل » . ولكن هذا النوع من المحاجات لا يصمد للتمحيص النقدي . ذلك انه يفترض على الأقل وجود سياق لغوي أو تعبيري تظهر من خلاله الطفرات ونقاط البروز . أما الحقيقة فهي أن الوضع الأدبي لدينا إنما يعكس ثقافات مختلفة أكثر مما يعكس واقعاً متطوراً في سيالة متسقة تتميز بالتواصل وتعبر عن ثقافة متسقة بعينها .

وعلى هذا يمكن القول بأن مصطلح الحركة الأدبية المعاصرة في سورية ، إنما يشير إلى واقع الأدب الراهن Current Literature في منطقة جغرافية وليس ثقافية ؛ تاريخية وليس تعبيرية .

فالحركة نقيض السكون . ولهذا فإنها تعبر عن التغير والتحول في اتجاهات . وإذا كانت إضافة الا تجاه الى الحركة تؤدي بنا إلى نشوء مشكلة التيار ، فإن من التعسف القول بوجود تيارات متبلورة في الحياة الأدبية في سورية ، لما يفترضه اصطلاح التيار من وحدة وتواشج واتساق .

من المحقق ان من المتعذر إنكار حقيقة ان الكتاب السوريين يعيشون في فترة معينة ويتعرضون لمؤثرات بيئية واحدة ، سياسية واقتصادية واجتماعية . ولكن هل وحدة البيئة وتجانسها الدليل على أن النتاج الثقافي متجانس ومتسق بالكيفية نفسها ؟ ثم هل يمكن أن نستنتج من وجود تجانس واتساق مفترضين في البنية الثقافية السورية وجود مثل هذا التجانس والا تساق في البنى السياسية والا قتصادية والاجتماعية !

إن هذا الموضوع من المسائل الخلافية التي يصعب استسهال إجراء أي حسم فيها . فما تثبته قاعدة ينقضه استثناء يصبح بدوره قاعدة ينقضها استثناء آخر . وبالتالي فإن علينا أن نأخذ النقاط التالية بعين الا عتبار :

١ — ضرورة السيطرة على تزمين التاريخ الأدبي بدلا من أن ندع التاريخ يزمّن .

٢ — مفهوم الحركة ، أو الفترة ، يكتسب ملامحه من الأفكار التي نضعها فيه . إنه مجرد اسم اصطلاحي .

٣ — التغير في المسارات المختلفة داخل الحركة الأدبية خاضع لجملة من العوامل التي يستجيب لها الكتاب والتي يسهمون في صنعها . إلا أن ذلك لا يعني بأي حال ، ان استقصاء الواقع الأدبي الراهن ، واستنتاج المفاهيم التي تميزه ، ووضع هذه المفاهيم في بؤرة ضوء ، ينطوي على إنكار القوى والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تسهم في صنع العمل الفني .

٤ — يمكن تحديد فترتين رئيستين لدى التعرض للأدب المعاصر في سورية :

— الفترة الأولى وتتعلق بمرحلة الخمسينات التي سادها الإيقاع الواقعي بالمعنى الإيديولوجي الصارم لهذا المصطلح .

— والفترة الثانية وتتعلق بمرحلة الستينات ومنتصف السبعينات . ويمكن رصد هذه المرحلة باعتبارها تغطي أنشطة الأدب المعاصر في سورية بما ينسجم والمفهوم الزمني للأدب الراهن ، ولهذا فإن هذه الفترة هي التي ستكون موضوع مدخلنا إلى دراسة الأدب في سورية .

تتميز الفترة موضوع البحث بخصائص عديدة يمكن إجمالها من خلال ملاحظة الانتقال المفاجيء ، أو التطور المتصل ، أو ردّ الفعل الحاسم ، على أساليب وأدوات وتقنيات الكتابة التي كانت في فترة الخمسينات تحفل فنياً ونقدياً بالرؤية البسيطة بله المبسطة على حساب الواقع المركب . وهكذا حدث تحول تعبيري من لغة الرؤية المسطحة إلى لغة الرؤيا المركبة . ومع الاعتراف بان عملية حسم قد حدثت في مجال الشعر الحديث والقصة القصيرة والرواية ، لصالح مفاهيم الحداثة والمعاصرة . فإن واقع تعايش الأشكال والمذاهب الفنية المختلفة ربما كان يومىء إلى ضرورة التأكيد على أن المسألة ليست مسألة أجيال ، بمعنى أن جيلا لاحقاً قد تجاوز جيلا سابقاً بالحد التقني للمصطلح ، وإنما نحن نلمح تداخلا شديداً بين أجيال مختلفة ، وتبايناً ظاهراً بين أفراد جيل واحد ، وهكذا فإن من الصعوبة بمكان أن نتقرى سياقات محددة في حمى البحث المحض عن الأشكال والذي يشهده الأدب العربي المعاصر بشكل عام[7]. فالتجريب فرض واقع التنوع ، والتنوع سمح بوجود الحد الأدنى من التعايش بين الأشكال ، والتعايش قد أحال الصدام المفترض بين القيم التي تكرس الأداة الفنية الممتثلة للعرف والتقليد ، وبين القيم المتفجرة والتي تسمح باستثمار امكانات المخيلة إلى الحد الأقصى إلى تنابذ وانفصال بين قناتين متباينتين كل منهما تبث وفق ذبذبة لا تلتقطها القناة الأخرى .

غير أن لغة الحداثة هي بالطبع ، اللغة السائدة في المشهد الادبي العربي المعاصر بمثاله السوري . فن النادر ظهور قصائد كلاسيكية الأداء ، أو قصص واقعية بالمعنى التبسيطي للمصطلح في الدوريات السورية اليوم . واذا نحن أردنا رصد السياق أو السياقات التي تمثل إيقاعات الحركة الأدبية الراهنة في سورية ، فإن ذلك لا بد أن يتم من منظور التسليم من جانب الكاتب والمتلقي وإن كان يصعب الجزم فيما إذا كان المتلقي هو الذي تخلف عن الكاتب ، أو أن الكاتب هو الذي تجاوز المتلقي ، إن هذه الحساسية التي تتميز بالقدرة الفائقة على الإحساس العاطفي والإدراك العقلاني البالغ الرهافة للظاهرة الفنية ، هي بمثابة العصب الحي لمشهد أدبي متبدل باستمرار .

وبالطبع فإن تقصي ظواهر الحساسية الفنية (..) ، غير ممكن إلا من خلال أمثلة ، وأما استعراض الأسماء والأعمال على نحو يسيطر فيه منهج التأريخ ، فإنه لا بد أن يؤدي إلى تنظيم فهارس تجميعية للقصة القصيرة والرواية والقصيدة فحسب . وهذا الأمر خارج عن مدار هذا المدخل . إن البديل عن الفهارس هو استكشاف أبرز المفهومات التي تميز معالم الصورة الجديدة للحركة الأدبية المعاصرة والبحث عن أشد الأمثلة انطباقا ، بحيث تلوح لنا نقاط التميز ع

وحدود التغير ، وأبعاد التطور من خلال منظور مفترض لسياق أو سياقات . ولكن ما هو المقصود بالسياق . . ؟ . .

إنه هنا يتعلق بأدوات الأداء الفنية ، واللغة الأدائية على وجه الخصوص . وبهذا الاعتبار فإن السياق هو طبقة أو طبقات من المعنى الذي تضيفه البلاغة إلى لغة الأداء . فأي نوع من البلاغة أي نوع من الفنتبلور في تجربة الستينات والسبعينات ؟ وكيف يمكن دراسة هذه البلاغة واللغة الجديدة ، والتعرف إلى دواخل آليتها وتحسس نقاط تمفصلهامع الواقع جذباً أو نبذاً . .؟ . .

دعونا نحاول تقليص حجم التاريخ الأدبي الراهن إلى جملة من المفاهيم الأساسية التي تتكشف دلالاتها من خلال الأمثلة . ولتكن هذه المفاهيم إضاءات لجوانب من أرضية شاسعة المساحة بدلا من أن تكون قفزة في الظلام . إن هذه المفاهيم المميزة لحركة الأدبية الراهنة في سورية يمكن تركيزها في المصطلحات التالية :

آ — التلفيظ Verbalization

ب — الترميز

جـ — التجريد

د — التجريب

هـ — التنميط

وبدراسة الجانب التطبيقي من هذه المصطلحات باعتبارها تكشف عن التغيرات التي طرأت على البنية الأدائية للوضع الأدبي المعاصر ، لا يمكن توجيه تهمة الانتقائية إلى هذا المنهج في الكشف ، ما دام مفهوم الأدب مرصوداً من منظور نقدي جاد ، يعني مجموعة أعمال أدبية تتمتع بقوة البروز والتأثير والتألق ، ولا يعني جميع ما ينشر من كتب ومجلات دون تحديد .

آ — التلفيظ Verbalization

أعني بالتلفيظ جعل الأدب مرتكزاً إلى إيقاع اللفظة قبل معناها . واللغة تصبح بهذا الاعتبار غاية بقدر ما هي وسيلة . وفي هذا تشديد على دور الموسيقى في الفنون . فإذا ما صح القول بأن : جميع الفنون تصبو إلى تحقيق مثال الموسيقى فإن تلفيظ الأدب هو دفع له في اتجاه موسيقي ، ولا أعني بالموسيقى الانسجام الصوتي الخارجي وحسب ، وإنما أعني أيضاً الاتساق الداخلي .

وقد كان من أبرز التحولات التي طرأت على الحركة الأدبية المعاصرة في سورية ، هذا الاتجاه نحو تلغيظ الأدب . ويمكن إدراك عمق التغير الذي استهدف البنية الأدبية عندما يقارن المرء بساطة (الرؤية) التي سيطرت على مفهوم الأدب في الخمسينات ، سواء كان ذلك يتعلق بالواقعية في القصة السورية أو الشعر الحديث في بعض نماذجه المبكرة ، بتركيبية (الرؤيا) التي تلبست الفنون الأدبية الثلاثة من شعر وقصة ورواية ، بدءاً من مطلع الستينات وحتى الآن .

اقرأ هذا المطلع من قصيدة (البحر الأسود المتوسط) لعلي الجندي، كمثال على (تلغيظ) الشعر :

« هو البحر : دمدمة وصهيل مع الموج ، تيه على الموج ، زوبعة وهدير ، بروق ، وأشباح قافلة من أناس خفيين ساروا بعيداً على الماء ، لغط خفي وريح .. هو البحر : قلعة صمت تميل على الموج ، أو تتدلى إلى الموج ، محروسة بالرياح ، وأشرعة وصخور ، ورعد وبرق وماء ، وماء ، دلا فين نار ، محوطة بالغناء ، الكلام المبعثر ، منخورة بالمياه القديمة ، بالموج والموج ، والريح والملح ... » .

هي ملحمة مرثائية الإيقاع إذا شئت ، رؤياوية الاتساع ، تركيبية البنية : البحر يحتاج كل شيء على أصعدة متعددة ، وليس ثمة عاصم سوى الصحراء .

وتبرز نزعة (التلغيظ) هذه منذ الديوان الأول لفايز خضور : « الظل وحارس المقبرة » حتى ديوانه الأخير (كتاب الانتظار) كما تتضح في نتاج (محمد عمران) وبخاصة في « الدخول في شعب بوان » وتصل هذه النزعة حد الجموح في قصيدة نثرية طويلة لمحمود السيد ، عنوانها (مونادا دمشق) ، وتنقسم إلى أربعة أقانيم :

« بالقتل نبتكر ، بالقتل ندخل بطانة الأشياء حلاوة الثمر . وبالقتل يا ثالوث المسرة والفروسية والدم ، ندحرج القارات كرات من طين معجون بسخونة الحب لأطفالنا المتصدين ابدا للشمس . . . الأطفال يترجمون فحولة المطر ، أنوثة التربة ، والعشاق المغامرون يركبون الثيران الضخمة عبر مقاصير البحر ، المرتكزة على أعمدة التأوه وكرز الجنس المقفطن بقرنفل حار ... » .

وفي الديوان الأول لسليم بركات :

« كل داخل سيهتف لأجلي وكل خارج أيضاً » .

مثال آخر على (تلغيظ) الشعر :

« باسم الجبل الواحد في أحزاني أتقدم ..

لن يسلم ماء ،

أتقدم ..

لن يسلم حلم يتواتر عن أول موت ختم به البحر آفاقه .

وأستنسر في يابسة الهجرات المهجورة بالشجر السرى وبالأطفال يسيرون فرادى فوق نسيج الصوت ويلتحمون أمام نشيد الشجر السري ، وبي أتقدم منهوراً كشعاب يجرحها الفلاحون بأقدام النيران .. » .

(من قصيدة « مبعوث الفراشات ») .

وربما كان مطاع صفدي) (أول القصاصين السوريين الذين عنوا بتلغيظ الأدب . وقد اختلط لهذا النهج تقاليد ركزت إلى أقصى حد على مسألة استغلال الطاقة التوليدية للغة العربية . وتتألق هذه النزعة سواء في مجموعته القصصية (أشباح أبطال) أو في روايته (جيل القدر) و (ثائر محترف) .

تستهل (ثائر محترف) على النحو التالي :

« كان لها عينان كبيرتان من الجوهر الأسود البراق .

وأنا رجل مرهق ، اتسلق الجبال الخضراء ، وأتحسس عند كل دغلة من الصنوبر ظهري وقد تقوس تحت حمله . . . . اني أسير في الليل ، وتحف بي ردهات من الحفيف المبحوح ، تبعثها الأشجار البعيدة وتصطدم بالصخور العذراء لتلقي بي أخيراً في غابة من السكون الموسوس ومن الرعب المكبوت . . »

وفي أعمال (هاني الراهب) (المهزومون) ، (وشرخ في تاريخ طويل) ومجموعته القصصية (المدينة الفاضلة) تلغيظ يصل في هندسته درجة الحساسية المرضية أحياناً . إلا أن (حيدر حيدر) يبدو أشد خشونة في محاولته بلورة بلاغة ايقاعية تحيل العالم إلى جسد مصنوع من ألفاظ صائتة تصل حداً بعيداً من الكثافة سواء في رؤيته الأولى أو في مجموعتيه القصصيتين (حكايا النورس المهاجر) (الومض) .

ب ـ الترميز

يقال في تعريف (الترميز) انه استخدام شيء لتمثيل شيء آخر ، والرمز قائم بذاته ،

ومع ذلك فهو يرمز إلى ، أو يذكر بـ ، أو يعني شيئاً آخر . ولكن هذا التعريف يوغل في تبسيط مسألة الترميز . فالرمز بالمعنى الفني أشد تركيباً وتعقيداً من التشبيه .

انه نتاج المخيلة . ويعرف (الجرجاني) المخيلة التي كان يطلق عليها اسم (المتخيلة) بقوله انها :

« القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة ، والمعاني الجزئية ، المنتزعة منها ، وتصرفها فيها بالتركيب تارة ، والتفصيل أخرى ، مثل انسان ذي رأسين ، أو عديم الرأس . »

هذه القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة ، وجدت مجالها الحيوي في التاريخ . فقد لجأت إلى الرموز التاريخية تستخدمها من خلال منهجين :

١ – المنهج الأول هو إعادة التاريخ ، أي استحضار الشخصية التاريخية وكأنها تشير إلى وضع ستاتيكي لم يتبدل فيه شيء بين ماض غارب وحاضر راهن ، ويصبح الترميز هنا عملية ميكانيكية يسهل فيها إيجاد حالة تطابق الرمز وبين المرموز اليه .

٢ – وأما المنهج الثاني فهو يقوم على فكرة الاستعادة . عندما يستعاد التاريخ فإن معنى ذلك نفي التكرار الميكانيكي ، ومنح الرمز التاريخي دلالة مغايرة لما كان يقوم عليه في الماضي .

يقول (ستيفن سبندر) في كتابه « نضال الحديث » :

« إن الانصهارات العظمى للحاضر والماضي واندماجها ، تتمثل في أعمال يوليسيس لجويس و (غورنيكا) لبيكاسو . في يوليسيس ثمة محاولة لاستيعاب كلية الحياة المعاصرة في مكان وزمان معين ، لتصطدم بالملحمة الهومرية وقد ترجمت من خلال مصطلحات ذلك الحاضر ، أما غورنيكا ، ففي عملية معاكسة ، تمت ترجمة الرعب من جراء غارة جوية (حديثة) إلى صور المأساة الاغريقية الكلاسيكية – الثور الاضحية .. والسيف والشعلة الملتهبة . »

إن رواية يوليسيس ، لجويس ولوحة (غورنيكا) لبيكاسو ، مثلان باهران على علاقة الاستعادة بين العمل الفني وبين التاريخ ومن أمثلة الاستعادة المتميزة في الشعر السوري المعاصر ، قول (محمد عمران) في ديوانه (الدخول في شعب بوان) :

« الطفل يولد ، ثم يكبر في ثوان ثم يصبح سيداً ،

قارون شحاذ ،

وقابيل قتيل

وجه يوسف احدب

هيلين عذراء

كيمياء تبدل الأشياء . . . »

الرمز التاريخي هنا يشير الى نقيضه فهو لا يتم بعملية اعادة وانما بعملية استعادة اخلاقية .

وفي قصيدة (إعترافات الحسين بن علي؟) لفائز خضور نموذج آخر لهذاالنوع من الاستعادة الأخلاقية لشخصيات تاريخية . ان الرمز هنا لا يفسر وإنما يخضع للتأويل . انه شخصية تاريخية تتلبس لبوس الفكرة التي يريد الشاعر أن يرمز إليها ، كما يبلورها حسه بالمعاصرة .

وثمة عشرات الأمثلة على هذا النوع من الترميز في الشعر السوري الحديث كما لدى (ممدوح عدوان وعلي كنعان وعبد الكريم الناعم وسهيل ابراهيم)

ولكن الخيال الذي يعبر عنه هذا الترميز غالباً ما يكون خيالا خاصاً ، انعزالياً ، جزافياً . وبالتالي فهو خيال لا اجتماعي Asocial هذا إذا لم يكن خيالا ضد اجتماعي . فالشاعر ينكفيء الى الماضي باستمرار . انه لا يرى الحاضر إلا من خلال رموز الماضي التي تشبه حشداً من المومياءات يتفخ فيها الحياة ويحركها بمهارة جاذب خيوط الدمى المختبيء وراء المسرح ، وهكذا فان مخيلته تتحرك في مجال حيوي هو التاريخ ، تستعير رموزها منه ، بينما تهمل رموز المجتمع الراهن .

ويكاد (شوقي بغدادي) أن يكون من القلائل الذين يعاملون الشعر بمباشرة تتجنب الترميز في كثير من الأحيان . يقول في قصيدته (بين المخدة والعنق) :

« سكينهم

بين فم الرضيع والحلمة

بين فم الجائع واللقمة

فكيف نلتقي

خلف قميصي الداخلي

فوق لحمي

تملكوا ، واقتسموا جسمي

مملوكهم أنا
ويجهلون من أنا
وعند كل خطوة
احتاج للبطاقة الشخصية
فكيف نلتقي ؟ . .»

هذه المباشرة التي حلقها ودشنها (نزار قباني) تكاد تختفي من خارطة الشعر السوري المعاصر . وقد اصبح الترميز في احيان كثيرة ، حيلة يتوسل بها من أجل المراوغة واصطناع غلالة تحجب حقيقة كون القصيدة لاتقول شيئاً . قد يحتج محتج على ما أقول ، بمحاجة معاكسة يبلورها في سؤال تهكمي : ولكن من قال أن على الشعر أن يقول شيئاً . . شيئاً معيناً على وجه التحديد . . ؟ . .

هناك مماحكون وهناك أيضاً دعابيون من هذا الطراز . إلا أن هذا لاينفي حقيقة تثبتها عشرات القصائد التي تظهر في صحافتنا المحلية والعربية في هذه الأيام ومفادها أن الترميز أصبح لعبة في نماذج شعرية عديدة ، وأن الحاجة إلى بلورة حدود تميز بين الغموض والابهام في الشعر قد أصبحت ماسة أكثر من أي وقت مضى . ان الغموض خصيصة أساسية من خصائص الأداء المواروب، الأداء غير المباشر احياناًو الذي يتسم به الشعر الحديث . إلا أنه عندما يستفحل الغموض فانه سرعان مايستحيل إلى(ابهام)اي استغلاق في المعنى وعجز عن الايصال أو التأثير .

واما بالنسبة لمثال القصة ، فان الترميز اصبح جزءاً لا يتجزأ من تقنيتها العامة . وقد كان(زكريا تامر) أول وأقدر الكتاب الذين استخدموا الرمز على نحو يحقق أبرز خصيصة في الاستعادة الأخلاقية للتاريخ وهي الإبتكار . وقد استّن هذا المنهج منذ مجموعته القصصية الثانية (ربيع في الرماد) وحتى الآن . وكواقعي تعبيري فإن (زكريا تامر) أدرك منذ البداية انه لكي تكون واقعاً جيداً عليك أن تكون رومانتيكياً جيداً . فالحلم جزء من الواقع .

ومحاولة أسطرة الواقع أو ترميزه إنما هي تعبير عن صبوة لتقديم هذا الواقع باعتباره رؤيا مركبة وليس رؤية بسيطة . إلا أن شخصيات (طارق ابن زياد وعمر المختار وسليمان الحلبي والشنفرى ويوسف العظمة) التي يستدعيها الكاتب ، ليست رموزاً لافكار بقدر ماهي شخصيات مستعادة استعادة جديدة ، مخلوقة خلقاً جديداً ، بدلالات معاصرة ، كثيراً ماتنطوي على روح تهكمية كلبية جارفة . إنها كما تتجلى في (الرعد) و (دمشق الحرائق) ليست رموزاً تحمل

مفاتيح يقوم القارىء على ضوئها، بعملية المطابقة أو التوحيد بين الرمز وبين المرموز اليه . بل هي رموز مفتوحة للتأويل وتستهدف صدم الوعي ، وخلخلة تجذّر المألوف .

ج ــ التجريد

التجريد نقيض التجسيد . ولكن أحد المعاني الرئيسية للتجريد في الأدب هو نزع الحادثة أو الشخصية من مهادها الاجتماعي والتاريخي . وفي بعض قصص (وليد اخلاصي) و (جورج سالم) القصيرة اقتراب شديد من هذا المفهوم للتجريد . ولعل قصة (حروف الجر) المنشورة في مجموعة (وليد أخلاصي) : « الدهشة في العيون القاسية » أن تصلح مثالا في هذا المجال . يقول الكاتب :

– من الحياة والى الموت .

قلت لنفسي تلك الجملة وقد كررتها مرات ومرات وكأنها حكمة قديمة ، ولكني في الحقيقة كنت افكر في حرفي الجر اللذين سيطرا على تفكيري زمناً طويلا .

كانت الحديقة مهملة والظلمة المتساقطة كرذاذ الخريف تزداد لحظة بعد لحظة . تحت شجرة حقيقية وهرمة ، جلست افكر كفيلسوف ، ولكني مالبثت أن أهملت الحياة والموت وبت أفكر بحرفي الجر« المن » « والإلى » .

– من الموت إلى الحياة .

وهكذا تغلبت على الحرفين بعد قليل ، وسيطرت على الموقف مجرياً ذلك التبديل الجذري في مواقع الحرفين ، فكان لي معنى آخر . ولكني سرعان مانسيت الموت والحياة وبقيت حروف الجر تتساقط مع رذاذ الظلمة .

« من » و « الى » كحارسي جداول المحاسبة التي أهرب منها . من حساب الربح والخسارة إلى حسابي الشخصي . هل خسرت شيئاً ! ولكني سألت نفسي من جديد وهل ربحت شيئاً » . . ؟

سقطت ثمرة جافة على الأرض ، وتطايرت أوراق خشنة . أحسست بالخريف ، وازداد الصخب في الحديقة تسببه رياح خفيفة تداعب بقايا الأشياء الساقطة على الأرض ، ولكني رغم سيطرة الظلمة التي بدأت تحد من الرؤية ، فقد شاهدت حرفي الجر يسعيان نحوي كحشرتين بطيئتين ، كانتا مضيئتين فاستأنست بهما .

– من . . . إلى .

يالها من مداعبة جميلة جميلة ، فقد اصبح الحرفان موجودين فعلا . ولم تعد هناك كلمات أخرى تشغل بالي ، إذ أن نور الحرفين كان دافئاً وسط الظلمة التي أصبحت حالكة. بعد لحظات احتواني الحرفان كوجهي رغيف ساخن ، فاستغرقت في نوم هادىء وطويل طويل.»

ويرى« جورج سالم » * فيدراسته عن القصة في سورية أن(هاني الراهب) وبما كان :

« أكثر قاصي هذا الجيل قدرة

على التجريد والانتقال

البارع من عالم الواقع الى واقع داخلي

لا يخضع للمنطق المألوف . . »

ولعل رواية (في المنفى) لجورج سالم أن تكون بدورها مثالا مبكراً لهذا النوع من التجريد في القصة .

د ـ التجريب

كثيراً ما يستخدم مصطلح (التجريب) في الأدب السوري المعاصر باعتبار ان التجريب يشكل قيمة إيجابية في حد ذاته . وهو ينظر اليه في أحيان كثيرة من قبل بعض النقاد باعتبار أنه نقيض لفترة الخمسينات الواقعية ونقيض الكلاسيكية التي فرضت نوعاً من واقع المعايشة بين الأشكال الفنية . فزكريا تامر يكتب في الوقت نفسه الذي يكتب فيه (عبد السلام العجيلي) و(حنا مينه) و(حسيب كيالي) و(فارس زوزور) و (عبد العزيز هلال) و(أديب نحوي) و(وليد مدفعي) و (صلاح دهني) و (إلفة الادلبي) و (كوليت الخوري) .

ولكن التجريب لدى (زكريا تامر) يقدم باستمرار على نحو يلوح فيه استقرار باهر الشكل يذكرنا بكلاسيكية جديدة لها جذور وتقاليد .

وبالمقابل يلوح تجريب (عادل أبوشنب) على سبيل المثال وكأنه هدف مقصود لذاتــه أحياناً ، كما في مجموعته القصصية (أحلام ساعة الصفر) .

لقد مرت التقنية القصصية في سورية بخمس مراحل رئيسية :

---

* مدخل إلى الرواية والقصة في القطر العربي السوري

« المعرفة » العدد / ١٤٦ / نيسان ١٩٧٤

١ – مرحلة التشكل والبحث عن يقين في التعبير الفني المنضبط .
٢ – مرحلة العثور على أساس ضابط للقصة (التمذهب) .
٣ – مرحلة الابتكارات المنتمية إلى تيارات واضحة المعالم .
٤ – مرحلة التكوينات التعبيرية
٥ – مرحلة التجريبية الفوضوية .

ويبدو لي أن التيارات الثلاثة (الأخيرة) هي التي تتعايش على المشهد الأدبي السوري اليوم .

أما في مجال الشعر فان ثمة تشابهاً كبيراً بين التقنيات التي يلجأ إليها الشاعر الحديث فثمة دائماً الاتكفاء الى التراث ، واستعادة التاريخ ، للتعبير عن الحاضر بالماضي . كما أن هنالك تعايشاً بين الشكل الكلاسيكي والشكل الحديث ، كما في تجربة (احمد سليمان الأحمد) و (سليمان العيسى) و (صابر فلحوط) .

يقول (أحمد سليمان الأحمد) في قصيدة عنوانها (إدلاج) :

« كالارض الجوفاء
أشدو الجبناء
فارحل فوق جواد الظلماء
والبس قبعة الاخفــاء
أو . . لا . .
فالبواب كأهل لمدينته
اعمى . . . »

هذا الإيقاع الحديث ، لقصيدة يعود تاريخها إلى عام (١٩٦٩) على ما أعتقد ، يستحيل في قصيدته : (التونسية) التي ألقيت في المهرجان الحادي عشر للشعر العربي ، إلى إيقاع كلاسيكي رخيم :

وهب الخلود الحب والشعراء
يتباريان على الزمان عطاء
يتنادمان على بساط أميرة
نميت فكانت تونس الخضراء

ان هذا التعايش بين الشكلين في تجربة شاعر واحد ، ربما يؤكد ما ذكرته في مطلع هذا المدخل ، من أن مفهوم الحركة الأدبية إنما يكتسب ملامحه من الأفكار التي نضعها فيه ، انه اسم اصطلاحي . وبالتالي لابد أن يستوعب الواقع الأدبي الراهن بما يتجاوز المصطلح الجيلي ، فالنقد نظام رؤية الشيء على حقيقته كما هو معروف وان كان ذلك لا يعني بأية حال أن تركيزنا على ظواهر التلفيظ والترميز والتجريد والتجريب والتنميط لا يحمل في حد ذاته دلالة على غلبة السياق البلاغي الجديد وتميزه رغم واقع المعايشة والتزامن بين النقائض .

ولكن التعايش والتزامن بين الأشكال الفنية المختلفة إنما يتم وفق قنوات منفصلة ، كل منها تبث بذبذبتها الخاصة وتصدر عن خلفية ثقافية أشد حسماً من التأثيرات البيئية المشتركة سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية . ويكاد شعر (محمد الماغوط) الذي يحفل بالصورة والايقاع الباطني المفرغ من العنصر الضوضائي يعبر عن إحساس متضخم بالأنا في صدامها مع القيد الاجتماعي إلى حد من الحسم يتعذر معه اللجوء إلى وسيط تجريبي للتعبير ، كالتاريخ مثلا ، لمثل هذا الوسيط لابد أن يجعل التعبير موارباً وغير شامل إلى المدى الذي يفقد معه شحنته الانفعالية .

يقول الماغوط في قصيدة (الفائض البشري) من ديوان (الفرح ليس مهنتي) :

(أنا الذي لم أقتل حتى الآن
في الحروب أو الزلزال أو حوادث الطريق
ماذا أفعل بحياتي ؟ .
بتلك السنوات المتماوجة أمامي
كالبحر أمام البجعة ؟ .
بعد أن ذهبت زهرة كلماتي
على الرسائل وطلبات الاسترحام
ورسم مستقبلي
كما ترسم البطة على لوح المدرسة
هل أعبر عن أحلامي
بالهمس واللمس كالمكفوف ؟)

وكما هو الشأن في التجارب القصصية التي تنحو منحى التجريب وتبحث عن لغة أخرى

غير اللغة التي استنفدها القاصون الواقعيون والكلاسيكيون ، وتقدم عالماً يلغي الحدود بين الواقع والحلم وبين أزمان الماضي والحاضر والمستقبل ، ويعتمد لغة المونولوج الداخلي والقطع السينمائي وطريقة (الفلاش باك) ، فإن القصيدة الحديثة قد طرقت الا بتكارات نفسها ، ولكن بقدر أقل من النجاح في كثير من الأحيان .

ولعل قصيدة « المتنبي يقرأ في كتاب قاسيون » لفايز خضور أن تشكل مثالاً بالغ الأهمية على التجريب الذي لا يستحيل إلى قفزة في الظلام ، وإنما يقدم ابتكاراً جديداً في مجال العلاقة بالتراث . فكل مقطع من مقاطع القصيدة يقدم له ببيت شعري المتنبي . وبذلك يكشف الشاعر عن الفارق بين نسقين من التعبير في مجال تجربة واحدة أو متقاربة على الأقل .

اقرأ « مقدمة » القصيدة :

« لله قلبك ما تخاف من الردى
وتخاف أن يدنو اليك العار »

« المتنبي »

المقدمة

حضنت سفح قاسيون :
ملئاً بالصخر والمهابة .
وكلما ترهرت سحابة ،
أوقفتها ، أسألها ، — بخفر —
كبائس يحار ،
هل في الجوع ،
هل في الخوف من غرابة ؟

ه — التنميط

كان التجريب احتجاجاً متعدد النبرات على النمطية السائدة في القصة والقصيدة ، إلا أن الاتجاه نحو التنميط قد برز مجدداً على صعيد هذين الفنين الأدبيين الرئيسيين في سورية .

ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في عجز النقد المتزايد عن تمييز صوت شعري حديث من

صوت شعري آخر . كما أن معظم القصص القصيرة التي يبدو فيها طموح إلى التجريب قد خرجت من معطف (زكريا تامر) التعبيري وجعله نمطاً يحتذيه .

* * *

تلك هي النظرة من مكان مرتفع على مشهد مزدحم ، كما أرادها هذا المدخل الضيق إلى عالم شاسع . إنها محاولة للبحث عن طبقات المعنى في السياق البلاغي الجديد لحركة الأدب المعاصر في سورية ، ومن هنا فإنها أحفل بنقاط التغيير في هذه الحركة ، منها بنقاط التسكين ـ فالحركة الأدبية مفهوم ينطوي على وجهة نظر في مرحلة من المراحل ، ويقدم خصائص المرحلة وليس المرحلة في حد ذاتها . ومع ذلك فإن هذه النظرة التي حاولت أن تمازج بين النقد وبين التاريخ ، تظل نظرة مشيدة على افتراضات أولية تحتمل التمحيص .

* * *

مقدمة للشعر الجاهلي

يوسف اليوسف

سادساً ـ الحكمة :

لما كان البدائي يحيا في فجر الوجدان ، لا في ظهيرته ، ، جاءت الحكمة الجاهلية محاولة لتنضيد الواقع في الوعي ، ونزوعاً نحو تكثيف الموضوع في الحس ، لاتجريداً لهذا الواقع وهذه الموضوعات . وهي تؤكد منزع الجزالة الملازم للعقل العربي ، كما تسعى شطر ادراك ما هو واطد ومقيم في لحمة الحياة . بل قل هي النتائج وقد تبلورت في وجدان المرء.

ولست أرى أننا نخرج عن نطاق البحث إذا ما طرحنا هذا السؤال : أين يكمن سر

• تنشر المعرفة الجزء الثاني من هذه الدراسة . وسبق لها أن نشرت الجزء الأول في العدد ١٥١ ايلول ١٩٧٤ .

خلود الشعر الجاهلي ؟ الشعر الخالد هو الذي لايكتفي باحالة البعد العقلاني للحياة إلى بعد وجداني فحسب ، ولا هو ذاك الذي يعقلن الوجداني ويضفي عليه طابع التذهن وكفى ، بل هو الذي يملغم كلا البعدين في سياق متناغم بحيث يتوحدان في كيان لايعرف النشاز ، وبحيث – بالتالي – يغدو من العسير على المرء تبين البرهتين الأساسيتين في نسيجه . وهذا هو شأن الشعر الجاهلي في الغالب الأعم ، ، أو هو شأن أوابده وعيونه على الأقل .

وذلك هو شأن حكمة طرفة الذي يعاني من أزمة ميتافيزيقية ، ويتحسس تراجيدية الموت ، فضلا عن كونه يمثل الرفض الاجتماعي ، كالصعاليك تقريباً ، وان هو لايشهر السلاح . وأنت تراه يلمح الى العبثية حين لايجد فرقاً بين قبر البخيل وقبر « الغوي » (وهذا مما يلوح به البيت من بعيد ، ويشف عنه بضبابية ، ولا يفصح عنه جهارة) ، وان كان يقصد ، في المقام الأول ، أن الاثنين يتساويان في الموت . وحين يشبه « العيش » بكنز يداوم على التناقص ، ويرى الرابط بين الموت والكائن أشبه بالحبل يرخيه امرؤ لدابته ، مع قدرته على ثنيه متى شاء ، فانه إنما يحاول أن يجعل اللامرئي منظوراً وعيانياً . ترى مامصدر هذه النزعة التجسيمية لدى البدائيين ؟ إنهم لايستطيعون أن يتصوروا الله مجرداً وبارئاً من الجسدية . ومرد ذلك إلى أن الوعي لم يأخذ كامل أبعاده . فالعقل السابق على العلمية إنما يصوغه الاحساس بعضويته في الطبيعة . ولكن هذا القول لايعني أن محاولة طرفة في تجسيم اللامرئي هي أمر يتسم بالاسفاف ، بل على النقيض تماماً ، انها منتهى القدرة الفنية على التصوير الجمالي . ولعل جمالية هذين البيتين وقوتها إنما تكمنان في استحالة الفصل بين الصورة والفكرة التي تسكنها . إنها يحاولان ، وبنهج تلقائي لايجهد الذهن ، أن يكشفا عن رؤية جلية للوجود الانساني تستثير انطباعاً عما يعاني منه الكائن البشري من احساس بالواقعة الكبرى : الموت . انها دفقة شعورية تدمج المحسوس والمجرد معاً في وحدة ادراكية متلاحمة .

أما حكمة زهير فهي خلاصة التجربة اليومية ونتيجة لمحض المعاش ، وفي الوقت نفسه كتلة متراصة ومكثفة لهذا الاستنتاج ، فضلا عن أنها مجمع للأخلاق والمثل العليا للمجتمع الجاهلي . ويسعى كل من طرفة وزهير نحو تعقيل التجربة غير أنه في حين يحاول زهير صوغها في ذرات وشذرات حكمية متراكبة ومتفاصلة ، لامتلاحمة ، ولكنها متجاورة ، فإن طرفة يمس الجرح النغار في النفس البشرية : الأزمة الوجودية ؛ أي هو تنطبق عليه مقولة « الضمير التعيس » الهيجلية أيما انطباق ، لأنه يعبر عن تشقق في جسد الكينونة نفسها . انه يتحسس

لامعقولية العالم ، ولكنه تحسس وجداني لافلسفي . فالمعاناة يصنعها تمزق الوعي . ولما كانت هذه الأزمة مجذرة في روحه فإننا لانشعر بوحدة ما قدمه في المعلقة من موقف حكمي أولي فحسب ، بل نلمس خصوبته وبناءه أيضاً ، وهما ما ينتجها استنفار قوى الروح ابتغاء تحسس فجائعية « العيش » ، التي ترقد في نواة الوجود لا على حاشيته .

وتتجلى العبثية في رد طرفة على هذه الفجائعية بالمجون واللهو « ببهكنة تحت الطراف المعمد » ، في حين كان هذا الحس التراجيدي كفيلا بتحويل أبي العتاهية إلى زاهد مزدر للحياة . وفي هذا الرد المتطرف الذي قدمه طرفة دليل على صدق وعمق احساسه بالمأساة ، الأمر الذي دفعه بعنف نحو استباق الفجيعة بانتهاز فرص اللذة ، كأنما هو يريد أن يعوض باللذائذ العارمة عن الآلام الآتية . ففي هذا الموقف شبه انتقام من الحياة التي تنسج للمرء كفنه باستمرار. وهكذا كان موقف طرفة قدوة الكثيرين من الشعراء الذين أتوا من بعده ، سيما عمر الخيام . إن فلسفة الخيام هي فلسفة طرفة مدفوعة إلى الأمام بعض الشيء ، بل آخذة أبعاداً أطول وأوسع . فالبيت الثاني من معلقة طرفة ، وهو البيت الذي يلخص موقفه ورد فعله على الحياة ، لانجد معناه في شعر الخيام مطروحاً بشكليات مختلفة ومتعددة فحسب ، بل نلقاه عند شعراء آخرين أيضاً . وبذلك استطاع طرفة أن يحدد ويوجه التيار الماجن في الشعر العربي ، حتى وان كان بعض شعراء هذا التيار لايعانون من الأزمة الماورائية . وفي وسع المرء أن يذهب إلى أن شعر الخيام برمته قائم على ذلك البيت . خذ ، على التمثيل ، قوله : « واغتنمها ، فالعمر ليس طويلا » . ولئن توخيت مذهباً خيامياً أقرب إلى مذهب طرفة (كما يلخصه الموقف المطروح في البيت الثاني من المعلقة) ، بل يكاد يستعيده ثانية ، فخذ هذا :

أيها الغافلون ، هبوا قياما

وارشفوها ، وودعوا الأياما

قبل أن تجرعوا كؤوس المنايا

والفارق الجوهري بين حكمة كل من طرفة وزهير يكمن في أن الأول يقدم مكابدة روحية ، أي هي تعبير عن أزمة الإنسان الوجودية ، ولهذا فهي خالدة لأنها تعالج الواطد في النفس البشرية ، أو لأنها تهم الإنسان في كل زمان ومكان ، في حين تأتي حكمة زهير أرضية وحياتية ، أوقل معيشية ، أشبه بنصائح وارشادات شرقية كتلك التي اعتاد العقلاء أن يقدموها

الناس وهي في أحسن الأحوال تجريبية أو اجتماعية قلما تعالج إلا الجاهلي .والاجتماعي متحول على الدوام ، فلا يخص إلا زمانه ومكانه ، وقلما يصلح إلا لعصره . في حين تلتقي حكمة زهير بحكمة المتنبي ، فإن حكمة طرفة تلتقي مع حكمة المعري في مدرسة واحدة .

وتكاد حكمة طرفة أن تتفوق على حكمة المعري الذي يقدم لنا في الغالب موقفاً عقلاً نياً يخلو ، كثيراً أو قليلا ، من الشاعرية . ولنتصدم موقفين يمكننا أن نعدهما ذروة في شعر كل من الرجلين :

١ — ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

٢ — لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى كالطول المرخى وثنياه باليد

لا مراء في أن الصورة الأولى (للمعري) كتلة شعورية محشودة ووهاجة ، يتحسسها المرء في صدره وشرايينه . فهي تهزنا حين ترينا أن التراب الذي ندوس إن هو إلا مسحوق أجساد بشرية ، وأن مآلنا كآل من سبقنا (وهذا ما تحتويه ضمناً لا صراحة) . فهي كبيت طرفة تنزع إلى جعل اللا منظور منظوراً . غير أن هذه الصورة حزينة وحسب . إنها ترثي الإنسان . أما الصورة الثانية (لطرفة) فتستثير فينا ما هو أكثر من الحزن ، إنه الخوف المروع . وكذلك تبعث فينا ما ينتجه هذا الخوف من رد فعل تبديه خياله ، أعني ممارسة الوجود على أنه يساوقنا شطر الحافة ليدفع بنا في هوة لا قرار لها ، مما يضطرنا إلى اتخاذ موقف صوفي أو مجوني أو معتدل من هذه الحقيقة . وهي تقول للمرء بأنه قد صدر بحقه حكم الإعدام الذي لا يقبل النقض أو الاستئناف في أية محكمة استئنافية ، ووضع حبل المشنقة حول عنقه ، وكل ما في أمره أن الجلاد يمهله بعض الوقت ، ولم تبق إلا هنيهات حتى يشد الحبل وينتهي كل شيء . هذا شعر خالص ، أما ذاك ، فرغم ما يتمتع به من شاعرية ، فإنه يحمل طابع الموعظة ، في حين يخلو بيت طرفة من أي طابع أو لون من ألوان الاعتبار . إنه يخزن من الرعب كمية تشغلنا عن الاتعاظ ، وتكاد تشغلنا حتى عن الحزن والأسى . وهكذا كانت حكمة المعري ذات طابع فلسفي ، وربما وعظي متأثر بالروح القرآنية ، في حين جاءت حكمة طرفة بدائية ، بعيدة عن الصوفية والعقلانية ، ولهذا كانت أشد صدقاً وأعمق تأثيراً في النفس .

أما زهير فلا يرقى بحكمته إلى أي من الرجلين ، لأنها — فضلا عن افتقارها إلى الشمولية والماورائية — تفتقر إلى السمتين الأساسيتين اللتين تتصف بواحدة منها ، بل وبكلتيهما إلى حد ما ، كل من حكمة المعري وطرفة : الإحزان والترويع . إنها أشبه بالأقوال المأثورة الشديدة الشيوع في الشرق . وذلك هو حال حكمة المتنبي في الغالب .

لن نتعرض إلى كل ما ورثناه عن الجاهلية من حكمة ، في طرفة وزهير ، إمامي الحكمة الجاهلية ، ما يغنينا عن ذلك . إلا أن بنا ميلا إلى أن نعرض قليلا للأعشى . فإذا ماتصفحت ديوانه فلسوف تصادفك قصيدة حكمية تضم اثنين وعشرين بيتاً ، لا أظن أنها فات المستشرقين (سيما مرجوليوث الذي اعتنق المرحوم طه حسين أفكاره)أنيطعنوا بصحتها . ومما يعزز هذا الظن أن بلا شير قد رفض شعر الأعشى برمته . ولعل السبب الذي يدفع إلى الطعن بصحة نسبة هذه القصيدة إلى الأعشى هو أنها تحاول الاستفادة من الانتروبولوجيا الموروثة عن عهود أقدم لتحقق توليف الموعظة توليفاً شبه كبير بالنهج القرآني :

ألم تروا إرماً وعاداً أودى بها الليل والنهار

وترد فيها ألفاظ من مثل : طسم ، جديس ، تحمدان ، قدار ، والحق أننا لا نستطيع أن نجزم في كون هذه القصيدة من نتاج الأعشى أو من المنحول . فمن المحتمل أنه كتبها متأثراً بأسلوب القرآن الذي عاصر ظهوره كله تقريباً ، كما أن من المحتمل أنها نسبت اليه في عصور إسلامية لاحقة ، وإن كنت أجنح صوب الرأي الأول . وأياً ما كان الشأن ، فإن حكمته خاوية من الشاعرية ، وهي لا تعدو كونها نمطاً من الوعظ الفقير بالمعطيات المؤثرة في النفس ، لأنها تعظ بمن غبروا ، أي بالغائب ، في حين يعظ المعري بما هو كلي الحضور ، بالتراب الذي هو « من هذه الأجساد » .

سابعاً الصورة :

تبدو الصورة الجاهلية في كثير من الأحيان ترتيباً للواقعة لا للمشاعر ، وهو ترتيب يجعل من معلقة عمرو بن كلثوم منظومة لجملة من الوقائع يكمن وراءها انفعال نزق لا يصلح ضابطاً للموضوعات بحيث يتمكن من إعادة صياغتها صياغة شاعرية ، ومادة هذا النزق هي أضمامة الأحداث التي يقدمها لنا لتكون مجمل المعلقة ، إذ هي مجموعة من الأعمال البطولية والقتالية يسردها سرداً تاريخياً مغموساً بالنزعة الفخرية . فالشاعر هنا يخضع الداخل للخارج ، في حين يفعل الشاعر الناجح نقيض ذلك تماماً ، إذ هو يخلع ذاته على الموضوع دوماً ، لأن الشعر الوجداني موقف ذاتي من المحيط ، ولو كان على عكس ذلك لغدا علماً . إن هذا الشح في الذاتية والعاطفية الذي يسم الكثير من القصائد الجاهلية ، والكثير من أبيات القصيدة الواحدة ، هو العرقوب الأخيلي للشعر الجاهلي . إنها تحاول كثيراً ، ولا أقول دائماً ، ولا غالباً ، أن تنسق الوقائع والحيثيات في شذرات ، أو وحدات صغيرة ، تتباين كثيراً أو قليلا ، بدلا من أن تنسق الداخل النفسي (أي تلمه في موقف عاطفي) للشاعر والمتلقي على

السواء . وربما كانت قصيدة كعلقة عمرو بن كلثوم ذات مدلولات وجدانية أو شعورية في حينها ، وكذلك شأن الكثير من الشعر الجاهلي ، إلا أنها لا تعني شيئاً شعرياً بالنسبة إلينا اليوم ، ولا قيمة لها إلا كوثيقة تاريخية أو اجتماعية ليس إلا ، إذا استثنينا بعض أبياتها .

إن انكباب الشاعر الجاهلي على تنسيق الوقائع والحيثيات ، وعلى وصف ظواهر الطبيعة وصفاً له لون موضوعي محايد (ليس دائماً بالطبع) ، هذا الانكباب لا يمكن أن نعزوه إلى غير ضغط الموضوع الخارجي على الروح الإنسانية التي تحاصرها طبيعة لا ترحم . فبدلا من أن تكون الصور الشعرية بيانات وجدانية تنتسب إلى الداخل النفسي أكثر مما تنتسب إلى الخارج الموضوعي ، بدلا من أن تكون خلعاً للذات على الموضوع ، أو انفعال الذات إزاء الموضوع ، فإننا كثيراً ما نلقى الوقائع هي الآسرة للمشاعر ، في حين كان عليه أن يأسرها بدوره . وتنجح لامية العرب في هذا المضمار إلى حد كبير ، لذا أملك أن أعدها خير بنية وجدانية شيدتها الجاهلية ، إن لم تتفوق عليها معلقة طرفة .

ولدى قراءة القصيدةالجاهلية ، نشعر في كثير من الأحيانأن الصورة لا تعدوكونها تابعاً للواقعة ، شيئاً ملحقاً بها ، وليس صميمياً ، في حين ينبغي فيالشعر الأبد أن تكون صورة الواقعة غلافاً يغشي العاطفة ويبطنها من الداخل ، بل تنحل فيها العاطفة انحلال النسغ في النبتة وذوبان الحمرة في الوردة . ولكي أبين ما أعنيه ، دعني آخذ هذين البيتين لمجنون ليلى :

كأن القلب ليلة قيل يغدى   بليلى العامرية أو يراح
قطاة غرها شرك فباتت   تجاذبه و قد علق الجناح

فالقطاة هنا هي البديل الموضوعي لعاطفة الشاعر (أو لنقل موقفها برمته هو هذا البديل) ، بحيث يستحيل أن تتبدى هذه العاطفة وأن يستجيب لها المتلقي إذا ما حذفت القطاة وصورتها في الفخ ومجاذبتها إياه كي تخلص جناحها من طوقه . وفي وسعنا أن نلمس بوضوح أن العاطفة هي القطاة المصيدة والقطاة المصيدة استحالت إلى عاطفة ، الأمر الذي يفضي بنا إلى القول بأن ثمة علاقة وحدة عضوية بينهما . العاطفة هاهنا صميمية في الصورة تقيم معها مركباً متلاحم الخلايا والعناصر ، بحيث يتعذر فصل إحداهما عن الأخرى .

ومن البدهي أن الشعر الجاهلي يعج بمثل هذه الصور ، بل وفي معلقة عمرو بن كلثوم نفسها نجد صورة من هذا القبيل ، وإن كانت تقل عنها روعة بسبب افتقارها إلى لفظة تشير إلى الحركية ، الشيء الذي تحققه لفظة « تجاذبه » في الصورة السابقة :

فما وجدت كوجدي أم سقب   أضلته فرجعت الحنينا

نرى « أم سقب » (الناقة ، والسقب ولدها) بديلا موضوعياً للعاطفة ، شأنها شأن القطاة ، فقد صرف الشاعر عاطفته عن ذاته ومحورها حول الناقة ، لتعود هذه العاطفة عليه ، بسبب من كون الناقة تشبيهاً له . والصورة هنا تقدم لنا ناقة فقدت ولدها فراحت ترجع الحنين اليه . والموقف الوجداني للشاعر أرقى من موقف هذه الناقة ، لأن الناقة لم تجد كما وجد هو . إن تماثل الصورتين (صورة المجنون وصورة عمرو بن كلثوم) يكمن في أن كلا منها تقدم أزمة عاطفية تتسم باللوعة ، فالقطاة في أزمة مصيرية ، والناقة في أزمة مروعة لفقدان الإبن . ولما كانت عاطفة الأمومة هي أقوى الدوافع الوجدانية عند الإنسان ، كما أثبتت الدراسات النفسانية التجريبية (ونحن نقف من هذه الناقة موقفاً إنسانياً لا حيوانياً ، إذ قد تكون عاطفة الأمومة عند الحيوانات أقل مما هي عليه عند الإنسان نظراً لكونه وعياً يعي ذاته) ، لذا ترانا نتفاعل مع الشاعر تفاعلا عميقاً ينبثق من أعماق الدافع الأمومي أو الأبوي .

والبيت اللاحق لهذا البيت في المعلقة أرقى منه ، لأنه يمثل الآن بالأم البشرية لا الحيوانية وبذلك ينجح الشاعر في التدرج العاطفي من الأسفل إلى الأعلى ، ومن درجة تفاعل وجداني إلى درجة أرقى منها ، وبذلك يكون أتى بتنويعين على موضوع واحد ، فاستثارنا بالتنويع الأول ، ثم عاد فرفعنا من جديد إلى نقطة أشد علواً في سلم العاطفة أو سلم الانفعال . ولكن هذه اللحظات نادرة في معلقة عمرو بن كلثوم ، وهي ليست غالبة على الشعر الجاهلي جملة .

هذا ما عنيته حين قلت ان العاطفة حلول في الصورة بحيث تقيم معها وحدة هوية لانفكاك لعراها . أما كيف تكون العاطفة ملحقة بالصورة ، أعني لا تقع في صميمها بل على حواشيها ، بحيث نشعر أن الصورة خاوية من الداخل كزجاجة أفرغت من سوائلها ، فهذا ما يمكن تبيانه بأمثلة كثيرة نقتطفها من الشعر الجاهلي . اليكم هذا المثال من معلقة زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حجـــة فلأياً عرفت الدار بعــد توهم

يحاول الشاعر أن يؤثر فينا عبر موقف تستجمعه لفظتا « لأي » و « توهم » ، فهو يريد أن ينقل الينا تجربته ومعاناته في محاولته التعرف على الدار ، ولكن تفاعلنا معه لا يتعمق مها نحاول تشرب تجربته وحالته النفسية ، لأنه قدم سبباً منطقياً للجهد والتخمين اللذين اعترياه في سبيل التعرف ، أعني الحجج العشرين . مثل هذا التعرف إنما يتم من خلال التذكر المجهد ، في حين كان ينبغي أن يتم ، مثلا ، من خلال خبرة معينة ترتبط بكافة تفاصيل المكان المحفورة في وجدان الشاعر ، والتي لا تنسى نظراً لعلاقة الشاعر القلبية بها . نشعر إذن أن تواصلنا معه واهي الرابطة ، وأن عاطفته هامشية لا صميمية . ولولا ما يحمله البيت من انفتاحية مخبيء

صدى آخر غير صداه الظاهري ، لا نعدمت فيه الشاعرية وماتت . وهذا الصدى الآخر يتجلى في أنه يحاول استعادة لحظة غابرة ، والا نسان مولع بماضيه ، حزين على فراقه . ويحمل كذلك صدى ثالثاً هو حفاظ الشاعر على الوداد وثباته طيلة عقدين من عمره على الحب . إن ما نعجب به هنا هو الإخلاص . وهذه الخلفية ، التي يشف عنها البيت دون أن يصرح بها ، هي الهالات من الخارج يوحي بها الشاعر دون أن يقصدها . إن هذين البعدين هما من البيت ، ولكنها أشبه بالبخار الذي يحيط بصفحة البحر ، منبثقاً منه دون أن يكون فيه . فهما من ملحقاته لا في صلبه ، ولعل الشاعر لم يقصدهما في وعيه ، بل هما مما يشعه اللاوعي على المضمون الواعي . ولنحذر من الذهاب إلى أن هذا من قبيل الرمزية ، لأن كل بعد للبيت الرمزي هو عمق جديد ، هو طبقة جيولوجية أعمق ، وبالتالي هو شيء صميمي ، يقع في كيان البيت لا على حاشيته .

ولنصدم هذا الموقف بموقف لشاعر آخر . ولعل مثل هذا الصدم المقارن سيمكننا من استجلاء الضحالة الوجدانية ، أو لنقل العاطفية ، في موقف زهير ، وفي الكثير من الصور الجاهلية أيضاً :

لو بدلت أعلى مساكنها سفلا وأصبح سفلها يعلو (١)
فيكاد يعرفها الخبير بها فيرده الاقواء والمحل
لعرفت مغناها لما احتملت مني الضلوع لأهلها قبل

هنا صورة لمنزل أسفله أعلاه ، يكاد يعرفه من خبره لولا أن خرابه يمنعه من ذلك ، فلا يعرفه رغم خبرته . ولكن المتحدث هنا لا يعجزه الخراب ، فيتعرف عليه بقوة معاناته وشوقه إلى سكان ذلك المنزل . إن ضلوع الشاعر المثقلة بحب أصحاب المنزل تخلق لديه حدساً وقوة استبصار داخلي تكشف أمامه الحقيقة المتلاشية أو المغيبة ، وهذا استبصار أشبه بالكشف الصوفي الذي لا يتم عبر العقلانية أو اللجوء إلى سبل الاستدلال المنطقي . لقد تحول الحب إلى

---

(١) إن هذه الأبيات الثلاثة لا تدعم نظريتنا في اللحظة الطللية فحسب ، بل هي تشرحها وتلخصها بدقة . وإني لأراني محظوظاً حين اكتشفت فجأة ، وبعد كتابة هذا المقال ، أن هذه الأبيات (وهي من محفوظاتي القديمة) تقوم بهذا الدور الشارح والداعم للنظرية في آن معاً : يمثل البيت الأول برهة الانهدام الحضاري في الموقف الطللي ؛ ويمثل الثاني — سيما لفظتي « الاقواء والمحل » فحل الطبيعة المفضي إلى الانهزام أمام الحياة ؛ ويمثل الثالث القمع الجنسي المؤدي إلى اكتواء الضلوع .

منهج معرفي ، وهذا لعمري أرقى تفجير لطاقات الروح . إن الموقف هاهنا تتكشف أعماقه وأصداؤه وكافة أبعاده دفعة واحدة ، ودون تحليل ، لأن الانكشاف يأتي طبيعياً وعفوياً بسبب من غياب العقلانية ، أو أي لون من ألوانها . أما زهير ، فإنه بتوهمه المجهد ، يحاول أن يكشف بالعقل لا بالقلب ، وهذا ما يوحي به البيت إيحاء خلفياً على الأقل . وهذا النزوع العقلاني عند زهير هو الذي جعل منه حكيماً . ولما كان يحاول أن يكشف بالعقل ، فإنه يبقى خارج الوجدان ، في حين تأتي الأبيات الأخيرة لتنم عن خلع عميق للذات على الموضوع . هذه هي الوجدانية ، فهي الشعر إذن .

أما الخواء العاطفي في كثير من الصور الشعرية الجاهلية ، وهو ما يحرم هذه الصور من الشاعرية ، في الكثير من الحالات ، فمواضعه أكثر من أن تحصى . وليس ثمة من داع للاسهاب في هذا الموضوع ، إذ يمكن لمن يشاء أن يرجع إلى أية قصيدة جاهلية لاصطياد الكثير من الدلائل . بيد أنه يخلق بنا أن نقدم تعليلا نفسياً سريعاً لهذه الظاهرة . ليس الجاهلي دونما عاطفة ، فالإنسان البدائي ، رغم همجيته وشراسته التي لا ترحم ، أرق نفساً من المتحضر وأصفى ، لأنه أقل تعقيداً . ولكن مباشرته الحسية ، وتقديمه للموضوعات كحضور مرئي ، بحيث تغدو القصيدة سيالة وقائع متلاحقة ، تقرن البسيط إلى المعقد ، وتلحمها في نسيج واحد ، هو المسؤول الأول عن الخواء العاطفي للصورة الجاهلية . وقد تجد هذه الظاهرة تعليلا آخر في النزعة الخبرية والوصفية اللتين تثقلان العقل البدائي ، فهو دائماً يتوخى الدقة في وصف الأشياء لأنه يدرك الجزئيات قبل الكليات وبالتالي فهو قليل القدرة على التعميم والتجريد أيضاً . وهو إذ يقدم الخبر يقف بعيداً عنه لا ذائباً فيه وذلك نتيجة لميله الى الصدق ، هذا الميل الذي يكتسبه من الفطرة ، ومن النفسانية البدائية التي تسود في مرحلة ما قبل العلمية . انه خضوع الداخل للخارج بسبب من ضغط موجودات البيئة على الروح ، ومثل هذا الضغط يولد في الروح ميلا الى تشرب الموضوعات كما يتشرب الاسفنج الماء . ان هذا الموقف المغرق في اللاذاتية في بعض الأحيان (وهذا تعبير لايعني الموضوعية بالضرورة ، بل شيئاً يفتقر الى الوجدانية الى هذا الحد أو ذاك) هو الذي يضع الأشياء خارج النفس بعد أن تشربتها وأخرجتها بغير ما تلوين من الشعور بحيث تغدو محاكاة للأصل تشبه التصوير الفوتوغرافي . ومها أشدد على حقيقة فحواها ان هذا القول لاينطبق على روائع الأدب الجاهلي ، أو على الكثير من اللحظات الابداعية للقصيدة الجاهلية الواحدة ، فإنني لن أفيها حقها من التشديد .

في العصور البدائية يقوم الشعر مقام العلم ، بل هو يمثل جملة الثقافة تقريباً ، من حيث كونه رصداً لكل حالات المجتمع والحياة. والدليل على ذلك أن الجاهلية لاتعرف نوعاً آخر من أنواع النشاط الفكري والعقلي ، إذا استثنينا بعض الأمثال والكتابات أو الأقوال النثرية القليلة الكم والضئيلة الشأن . ولما كان الشاعر هو العالم والمربي والفيلسوف ، وربما مجسد القيم الدينية والأخلاقية ، ، فإنه مطالب بالموضوعية والدقة وبذل الجهد للابتعاد عن الذاتية .

فالوصف الجاهلي ، لذلك ، حتى في أحسن حالاته أحياناً ، قد ينال اعجابنا دون أن يحرك مشاعرنا . فعندما يصف امرؤ القيس جواده فإنه يذهلنا بهذه الحركة العجيبة التي يتمتع بها فيمتعنا ؛ فنشعر أننا في سيرك يعرض حيواناً ذا قدرة على الحركة عجيبة :

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

ورغم أن الصورة من أرقى أنواع التصوير الفني (١) ، فإننا لانتفاعل مع الموقف تفاعلا عاطفياً ، بقدر ما يجذبنا التصوير كتصوير ، أو كتقنية ، لأن الشاعر هنا يصب قوة ادراكه على الحصان صباً خارجياً ، أي كما لو كان عالماً ، أو خبيراً بالخيول ، فيقدمه عبر آلة تصوير ، مما يحرم الصورة من أن تتلون باللون النفساني للشاعر . وكل الذي تملك قوة الصورة أن تفعله فينا هو استثارة الشعور بالقوة (وهذه مسألة نفسانية ، لاريب) ، ولكنها قوة الوقائع ، لاقوة الانسان ، مما يجعلنا نعي خلو الصورة من الأنسنة ، أي ضعف العاطفة التي ينبغي الا تكون حاضرة في الصورة فحسب ، بل وذائبة فيها كذلك .

ومع ذلك –وهذا مايمكن ملاحظته في البيت السابق نفسه– فإن الشاعر الجاهلي حين ينزع الى التصوير (وهذه هي اولى ايجابيات التصوير الجاهلي) إنما يتعمد بعث الحيوية في حواس المتلقي، كي تتمكن تلك الحواس من ممارسة المضمون الشعري للصورة . غير أن هذا المنزع يرتكز داخلياً على حضور المحسوسات في ذهن الشاعر حضوراً حلولياً ماثلا في الروح على الدوام . ان استثارة

---

(١) تكمن هذه الفنية ، لا في الحركية المذهلة وحدها ، بل وفي التفاعلات التي يقدمها الشطر الأول (مكر ومفر ، ثم مقبل ومدبر ، والأهم من ذلك ان هذه التقابلات تتم « معاً » ، مما يوحي بتساكن المتضادات) . أما الشطر الثاني فلا يقدم – من خلال عبارة « حطه السيل من عل » – الحركية وحدها ، بل هو يقدم الصلابة المتحركة كذلك ، وهي ما تشير اليه عبارة « كجلمود صخر » . ان اجتماع الصلابة والحركة معاً في الشطر الثاني هما اللذان يرفعان الشطر الأول إلى الذروة ، وذلك لما يوحي بهذا الاجتماع من صوت مدو حتى ليكاد يسمع .

الموجودات – بوصفها موضوعات خارجية ، مثيرات ، تتقوم بها حياة البدائيين – لحواس الشاعر استثارة ضاغطة ذات ثقل وتراص ماديين ، هي التي تهب الصور الشعرية ، أو البنيانات الادراكية ، لهذه الموجودات قدرة على استثارة القارىء.

والذي يفضي اليه هذا الحضور الكلي للمحسوسات في وعي الشاعر أنه يقوده الى استيعاب الخصوصية القوامية أو الكيانية – وان شئت قلت الماهوية – لكل موجود أو موضوع يتعامل معه تعاملا وقائعياً ، حتى وإن تكن خصوصية مادية حسية . ولذا تراه ينزع كثيراً الى استخلاص هذه الخصوصية – أو الخصوصيات – بغية حشدها في صورة واحدة لموصوف واحد . ولنتمثل على ذلك : يحاول امرؤ القيس في المعلقة أن يقوم بتكثيف الخصوصيات الايجابية لموجودات البيئة (خاصرة الظبي ، ساق النعامة ، مشية الذئب) ليسبغها على الموصوف في محاولة تنحو شطر ابتكار المثالي المجرد – المجسد ، أو تحويله الى عياني مجسم . انه باستلاله السمات الايجابية الحيوانات الأخرى بغية اسباغها على كائن عياني (الجواد . راجع البيت ٦٠ من المعلقة) إنما يحاول اعادة تشخيص المثالي وصياغته . وبوسعنا أن نربط بين نزوع التصورات نحو التعين وبين اتجاه المشاعر صوب الحسية الجسمانية ، بحيث نرى صلة القربى بينهما على أنها خصيصة اساسية لذات ما برحت تعيش في فجر الوعي ، وتحدها عيانات أو كيانات . . أجسام ، شديدة الضخامة والحجم (قفار ، جبال ، أودية . . .الخ) .

إذن ، للأشياء في البيئة الجاهلية حضورها الا متلاء ، بحيث تحفر وجودها على صفحة الوعي حفراً (الشمس الحارقة ، الجفاف الجائح ، السيف الباتر ، الظمأ الشاوي ، الجوع الواخز للأمعاء . . .الخ) . ومن هنا كان ميل امرىء القيس بخاصة ، والشاعر الجاهلي بعامة ، الى التشبيه ، وكذلك إلى الوصف والنزعة الخبرية . ومن هنا كان ميل زهير الى التصوير أيضاً . فالموجودات ضواغط ، كوابيس ، تعصر الروح من الخارج وتخرق نقابها لتسكن في داخلها ، مما لا يتعذر معه تجاهل الأشياء ، كما لايتعذر معه خروجها مع الوعي حين يحاول أن يعبر عن مكنونه . والحق أن التشبيه أدراك علاقات وروابط تقوم بين الكائنات ، وهذا هو تعريف الذكاء ، أو لنقل أحد تعاريفه . ومن هنا كان التشبيه الناجح ذكاء . ولقد أبدع امرؤ القيس في مضمار ادراك العلاقة بين هذا الشيء وذاك . ولنأخذ ، على التمثيل ، تلك الحركية الرائعة في تشبيه صوت جريان الجواد بغليان المرجل (المعلقة ، البيت ٥٦) ، وكذلك تشبيه الجبل الذي يلفه المطر بشيخ هرم يدثر كساء . ثمة علاقة ظاهرة بين صوت الخبب وصوت الغليان ، إذ يستدعيان إلى الاذن إيقاعاً واحداً ، كما أن هنالك علاقة بين ارتفاع حوافر الجواد وارتكامها

بالأرض ، وبين قيام وانطفاء فقاعات الماء إذ يغلي . وهذه هي الصورة البصرية . انه يجعلك تمارس الاحساس بالواقعة التي يقدمها اليك ، حتى وكأنك تساهم في الفعل حقاً ، وتمارسها بحاستين ، لا بواحدة فقط : السمع والبصر ، الأمر الذي يدفعنا نحو الظن بأن الحواس الخمس عند البدائيين هي أقوى مما هي عليه عند المتحضرين ، وذلك لأسباب بيئية وحضارية لسنا بصددها الآن . ولعل قدرة الشاعر على تصوير الحركة أنها يرد الى ممارسته – كفارس – لركوب الخيل وبعض الحيوانات السريعة الأخرى ، والى حاجة العربي ذي البلاد الواسعة الرقعة الى السرعة .

أما التشبيه الآخر (الجبل في مقابل الشيخ) فلا يقدم الا صورة بصرية ، حيث يمثل الثبات والسكون بالثبات والسكون ، ومرد هذه القدرة على هذا النوع من التشبيه هو رسوخ العيانات الطبيعية في الواقع الموضوعي وفي وعي الجاهلي الذي يمارسها في كل آونة . فالشيخوخة ساكنة سكون الجبل ، والعكس صحيح ، ولهذا أجاد ذلك التشبيه .ولكن لماذا جاءت الصورة الاولى سمعية وبصرية في آن معاً ، بينما اقتصرت الثانية على البصر وحده ؟ ان الفرق بين الصورتين هو الفرق بين الحركية والسكونية ، وبديهي أن صورة تفتقر الى الحركية لن يكون للسمع فيها نصيب يذكر . ولكن هاتين الصورتين توحيان ، بل تبثان ، عن ادراك لوجهي الواقع : تحوله وثباته .

قلنا إن كثيراً من الصور الجاهلية تخلو من العاطفة ومن تلوين الشاعر للاشياء بلون مشاعره . ورغم كل ذلك فان الوقائع الخارجية كثيراً ما تظهر وكأنها امتداد لذات الشاعر ، أي أنه كثيراً ما يلون الأشياء بروحه وأعصابه ، وبذلك يحاول العالم المثالي ، أو عالم الروح والأعصاب ، أن يتشخص في الموجودات الموضوعية ، وأن ينكشف بها ، أو من خلالها . ومن هنا جاءت واقعية الشعر الجاهلي وصدقه في الانفعال معاً ازاء المعطى والعياني . ان الحسية التي يتسم بها هذا الشعر ، والروح الجاهلية بعامة ، لايمكن أن تعزى بمجملها إلى البدائية والانىدلاق البشري في الطبيعة وكفى ، بل هي أصل تعبير عن الصدق والبعد عن الزيف والافتعال . فالشاعر الجاهلي من العالم الخارجي موقف أشبه بموقف الصوفي من الكون ، في كثير من الأحيان ، أي أنه ينطفىء في التجربة . . في الفعل . . في العياني (كانطفاء الشنفرى في ذئبه) ، بحيث لا تميزه عن التجربة خصيصة ، فيتمثلها وتتمثله تماماً ، حتى لا نراه يغايرها في شيء أحياناً . ولذا نراه يصوغ الروحي صياغة مادية عبر أحاسيس تجسيمية .

فالزماني يمثل دوماً في العقل الجاهلي ويتمطى آخذاً أبعاده كافة . ولكن هذا لا يعني أن الوعي الجاهلي آلة تفقس نسخة أخرى للواقع الموضوعي ، بل هو كثيراً ما يتجه اتجاهاً ذاتياً ويعيد صياغته في وجدانه بحيث يصبغه بخصوصيته الداخلية الفردية (ومن هنا يتمايز هذا الشاعر عن ذاك ، رغم ما بينهما من خصائص مشتركة مردها إلى العالم الواحد الذي أنتجهما ، بحيث تحس بأن شعراء الجاهلية تجليات شتى لظاهرة واحدة هي روح العصر المبنية على شروط البيئة الجغرافية والطبيعية) . ولما كان الشاعر الجاهلي يلون الواقع — واقعه الخاص — بالعام الانساني ، فإن البشر طراً يتفاعلون مع الشعر الجاهلي في كل زمان ومكان .

والصورة أو الحقيقة المكانية لحظة نفسية في القصيدة الجاهلية مثلما هي عيان موضوعي ، لأن الشاعر يربط المكان دوماً بحالة غرامية أو انفعالية من نوع ما . انها بديل خارجي للمثال ، ولكنه مثال ينزع إلى التجسيد . . ان جزئيات المكان وتفاصيله تتناسق في الروح وتتساوق . ويترك هذا التناسق والتساوق تأثيراً في نفس المتلقي فحواه أن الشاعر يعيد صياغة المكان وتشكيله من جديد ليفرغ في داخل هذه الصياغة مكبوتاً (الحنين إلى معانقة البرهة المتلاشية في خضم الثالث الميت) لايمكن افراغه وفقاً لنهج حسي الا من خلال شكل (طلل ، مثلا ، أو مكان مهجور ، أو موضع له ذكريات معينة) . وفي هذه الحسية تثبيت للصورة في الذهن . ولكن المكان كثيراً ما يخضع للمنطقية والموضوعية عند الجاهليين .

ويخفق الشاعر الجاهلي كثيراً حين يحاول أن ينتج نسخة طبق الأصل عن الواقع ، وتلك هي حالة معلقة عمرو بن كلثوم التي تحاول أن تقدم مثل هذه النسخة . ان الوعي هنا لم يحاول اعادة صياغة الواقع من جديد كما تعيد النحلة صياغة الرحيق فتحوله إلى عسل . أنها منطقية وليست شاعرية في أغلب لحظاتها . بل هي مجموعة أخبار . ويحق القول نفسه على معلقة الحارث بن حلزة إلى حد كبير ، ففيها تأريخ لبعض أخبار العرب .

إن جوهر الوهن في الشعر الجاهلي ، وربما في الآداب البدائية برمتها ، لايتمثل في حسية صوره ، وعيانية مضامينه ، كما قد يزعم بعض المفتونين بالتجريد والضبابية ، ولا في تقنياته التعبيرية المباشرة ، ولكن هذا الجوهر كامن في كونه يقدم مشاهده الوقائعية تقديماً وصفياً يعترف بموضوعية الحقيقة الزمانية . وهو بهذا أشبه بالفن القصصي الذي يساوق الفعل عبر النسق الطبيعي للزمان ، أي هو يأخذ اتجاهاً معيناً يمتد فوقه ويتتالى على شكل سلسلة لحظات متلاحقة ، وهذه هي موضوعية الزمان عينها . ووفقاً لهذه الموضوعية تتناسج القصيدة الجاهلية ، في حين ينأى الشعر المعاصر ، وهو الأنضج بالطبع ، عن هــذه

الموضوعية ويقدم تمثلات الوقائع وكأنها كتلةشعورية متراصة ، وان كانت ذات بعد عقلاني ، تختفي فيها القطيعة الزمنية ، أو التفتت الزمني إلى لحظات متمايزة ، وتذوب . والحق أن مطلع القصيدة الجاهلية ، أو الوقوف على الرسوم الدوارس ، هو أول برهة تلبذ موضوعية الزمان ، نبذاً نسبياً على الأقل – وإن كانت تحتفظ بموضوعية المكان إلى هذا الحد أو ذاك في بعض الأحيان – وتخلو من الفواصل بين اطرافه . وبهذا تخلص المطلع من الخلل الصميمي في الشعر الجاهلي ، ولذا فإنها تستطيع أن تستثير انفعالات المتلقي ، حتى في مجتمع متحضر . ولئن لم نسطع اليوم أن نتفاعل مع هذه البرهة تفاعلا تاماً ، لما ذاك الا لأنها تقع خارج تجربتنا المعاصرة ، وبعبارة أخرى ، لأنها من الآني الجاهلي ، أي من خصوصيات مرحلة تاريخية معينة ، وليست من الخصائص العامة للاداب . فلا غرابةفي أن نبذها الاسلاميون – وهم الأقرب إلى الجاهلية – منذ مطلع عهدهم . إن العصر الذهبي المجتمع لم يعد قابعاً خلفه بل امامه ، وهذا ما لعب دوراً في اسقاط الطللية .

وربما استطعنا أن نجد تعليلا لموضوعية الزمان عند الجاهليين في كونها تنجم عن نزوع العقل البدائي نحو الخبر والقصة . ولكنني أود أن أنبه ، وبإلحاح ، على أن موضوعية الزمن أمر يختلف عن التفاصل الظاهري للقصيدة الجاهلية ، بل على النقيض من ذلك ، إن ما يخفض من حدة هذه الموضوعية هو هذا النوع من التفاصل ، لأنها تمنع استمرارية التسلسل الزمني . ولنتنبه دوماً إلى أن هذه الموضوعية هي النسقية ، أو التسلسل الذي يواكب انفلاتات الآنات من عقرب الساعة ، فالزمن يسير دوماً إلى الأمام وباتجاه معين ، وهذه هي موضوعيته عينها . إن « الأرض اليباب » لا تعترف إطلاقاً بموضوعية الزمن ، ومع ذلك فهي متفاصلة تمام التفاصل بغض الطرف عن كون جزئياتها كبيرة أو صغيرة . ولنذكر دوماًهذا البيت الذي جاء فيها : « أدعم بهذه الشذور أطلالي » ، ولنذكر كذلك رأي صاحبها حين قال : « إنها قصيدة هيولانية مبعثرة » .

أما المنطقية فهي من مواطن الضعف في الشعر الجاهلي الأخرى . والأدب لا يعرف المنطق، إذ هذا من اختصاص الفلسفة والعلوم . وتتجلى هذه المنطقية ، أول ما تتجلى في حكمة زهير ذات النزعة العقلانية ، وفي موضوعية الشاعر الجاهلي عند الوصف ، وفي إخضاع الذات للموضوع في الغالب ، وباختصار في الاعتراف بالزمان والمكان على أنهما زمان ومكان . فالشعر الجاهلي يخلو مثلا من هذه العبارة السيابية (البسيطة في شكليتها والعظيمة في مضمونها) : « هلم ، فليل آسية البعيدمداه يدعونا»التي تجعل لآسيا (مكان) صوتاًيصدر عن ليلها الذييوجه

الدعوة إلى المبادرة، وهذ أمر يخالف المنطق كل المخالفة لأنه يشكل المكان تشكيلا نفسياً لاعقلياً. وفي هذا يتبدى قصور الخيال الجاهلي . وسبب هذا القصور – كما أسلفنا أكثر من مرة – هو النزعة التجسيمية لدى البدائيين ، فضلا عن أن الشعر كان يمثل جل الثقافة في تلك المرحلة .

والحق أن هذا التقطع المفاجىء ، أو لنقل هذه الهوى العميقة التي تحجز بين لحظات القصيدة الجاهلية ، بحيث تحيلها إلى مجموعة متمايزة من العناصر ، قد يمكن أن تعزى إلى تمايز الكيانات الموضوعية في ذهن الجاهلي ، بوصفه ذهناً يدرك الجزئيات بدقة أكثر مما يدرك الكليات . ولنا أن نرد تمايز الكيانات الموضوعية هذا إلى صفاء عناصر الطبيعة وتمايزها وإمكانية رؤيتها بجلاء بسبب من امتلاء وكلية حضور الشيء الواحد ، مما يحرم الجاهلي من إدراك الأشياء في وحدتها .

إن تفاصل القصيدة الجاهلية ، هذا التفاصل الذي ألح على كونه ظاهرياً أكثر منه باطنياً رغم عمقه الفوري ، قد يوحي لنا بأن عناصر التجربة ، وتعينات الطبيعة ، وبالتالي بنياتها الإدراكية ، تنبثق في وعي البدائيين انبثاقاً ، ولا تداعى التداعي الحر المترابط والمتواتر الجزئيات تواتراً متلاحماً . مثل هذا الانبثاق الفجائي هو المسؤول عن ذلك التفاصل . وهذا مالا نفترضه افتراضاً قبلياً بل نستقرؤه استقراء من القصيدة الجاهلية . ومن هنا كان لدراسة الشعر الجاهلي دراسة تحليلية أهمية انثربولوجية تفيدنا في تحليل الادراك عند الأقوام البدائية ، وأهمية نفسانية تفيدنا في فهم طرق التفكير والإبداع عند الأطفال الذين يملكون عقلا أشبه بعقل البدائيين ، ولما كان تفاصل القصيدة الجاهلية يوحي بأن الوجود لا يتناسق في مدركات ومفاهيم متعضونة في وعي البدائيين ، وبأن الطبيعة ليست كلا عيانياً ، بل تمزقات وشظائر ، كان في ميسورنا أن نذهب إلى أن السمة الأساسية لعقل البدائيين والأطفال هو العجز عن إدراك الوحدة العضوية للوجود ، وبالتالي عدم القدرة على الربط وإدراك العلاقات ، إلا في لحظات نادرة ، ولدى بعض عباقرة البدائيين فقط . وربما استطاع التحليل المستأني والعميق ، والمتصف بالشمول والعمومية ، أن يكشف عن السر في عدم قدرة العقل العربي على التجريد المكثف ، الأمر الذي لا يعوز العقل الأوروبي الحديث ، بل والعقل الإغريقي القديم .

ثامناً – الموسيقى : !

تعوزني القدرة على تحليل موسيقى الشعر الجاهلي تحليلا نفسياً عميقاً ، وذلك بسبب من انتشار الأمية الموسيقية في ثقافتنا العربية المعاصرة . والوعي ليس عملية فردية ، بل هو درجة من

درجات ارتقاء المجتمع . إلا أن هذا لن يحول دون إبداء رأي أولي ، لعله لا يصيب إلا قشرة البنية الموسيقية للقصيدة الجاهلية ، هذه القشرة التي قلما تعجز الأذن عن إدراكها .

يشعر المرء أن القصيدة الجاهلية بنية موسيقية متناسقة ومتكاملة ، وصورة إيقاعية تعين القارىء على ترتيب وعيه لمحتوياتها . ولعل سر نجاح هذه القصيدة (حينا تنجح طبعاً ، لأنها تخفق في أحيان كثيرة) إنما يمكن أن يعزى إلى قدرتها على تنسيق مشاعرنا وتأطيرها ضمن تعيينات عاطفية ذات ثقل في النفس . ولما كانت الموسيقى هي القصيدة محسوسة ، بحيث نشعر أن لها كافة خصائص المادة المجسمة ، أو بحيث نشعر أنها جسم له ثقل ولون ورائحة ، ويشغل حيزاً في المكان ، فإن بوسعنا أن نستمتع بالقصيدة الجاهلية التي قد لا نفقه معانيها بسبب من الحاجز اللغوي ، نظراً لنجاح كليتها الموسيقية . وهذا ما نلمسه لدى طلبة المدارس الذين يرددون الشعر الجاهلي باستمتاع شديد دون فهم فحواه في بعض الحالا ت .

وأهم خصيصة لموسيقى القصيدة الجاهلية هي أنها ذات جلجلة تتناسب مع جلجلة الحرب إنها موسيقى القوة اللازمة للجاهلي ، والتي تلائم موضوعات الاعتزاز والتحمس . ولعل الشعر بدأ أول ما بدأ شعر فخر أملته الظروف القتالية . وفي هذه الحال قد يكون تقليداً اقتضته ظروف المبارزة . إذ حين يبرز فارس لآخر يتحدى كل منهما صاحبه ويفخر عليه بأبيات من الشعر ابتغاء ترويعه ونقل الخوف إلى نفسه وتثبيط عزيمته وإشعاره بأنه يواجه قاتله . وهذا يعني أن القصيدة ضرب من الإيحاء بالعنف والشدة . ولقد استمر هذا التقليد في الملاحم العربية الشعبية ، وبوسع من يقرأ « تغريبة بني هلا ل » أو « قصة الزير » أن يلاحظه بيسر . غير أن الجلجلة الموسيقية للقصيدة الجاهلية لا تؤكد ، على اليقين ، أن الشعر قد ولد ليخدم ظروف القتال ، بل يبقى في طوقنا الذهاب إلى أنه ربما ولد نتيجة الإحساس بموسيقى الطبيعة في العصور المشاعية أو الرعوية .

ولما كان الواقع يصنع الوعي ، كان لكل حقبة تاريخية ، ولكل حضارة معينة ، موسيقاها الخاصة بها ، المعبرة عن العناصر العرضية والواطدة في النفس ، أو في الشعور العام للمجتمع . وهكذا جاءت موسيقى القصيدة الجاهلية المتسمة بالقوة صورة عن الروح الجاهلية النزاعة دوماً إلى القوة . في موسيقى القصيدة يثبت الشاعر ويؤكد ذاته ، لأنها تحمل من العنف ما يكفي لتعبير الشاعر عن عتقه وعنجهيته . إنها أشبه بإيقاعات طبول الحرب . وأهم ما يميزها هو أنها حازمة صارمة لا تهن ولا تتباطأ ، بل هي تدق وتتابع باستمرار . وثمة

سيبان لهذا العنف : السبب النفسي ، وهو أن الجاهلي جلف وعنيف ؛ والسبب الاجتماعي ، وهو ضرورة تواؤمها مع حالة الحرب الدائرة دوماً في المجتمع الجاهلي .

ومما يسع المرء أن يلاحظه دونما كد للذهن هو أن فروع الشعر الجاهلي قلما تختلف فيها الموسيقى عن بعضها بعضاً ، إلا إذا اختلفت البحور بطبيعة الحال . فنحن نجد أن موسيقى الرثاء ، التي ينبغي أن تكون حزينة ، لا تختلف كثيراً عن موسيقى الفخر مثلا ، وما ذلك إلا لأن الرثاء نفسه (وشعر الخنساء خير نمط) لا يختلف كثيراً عن الفخر أو المديح . ولنلاحظ الجلجلة والقوة والصرامة في موسيقى هذا البيت :

وإن صخراً لحامينا وسيدنا وان صخراً إذا اشتقوا لنحار

ولنتأمل الإيقاع القطعي الذي تحمله لفظة « نحار » ، وكم فيه من صرامة وقوة . ومرد ذلك إلى أن القوة مطلوبة ، بل مفروضة ، في كل مكان ، حتى في الرثاء ، بل خاصة في رثاء الفرسان وعلية القوم .

ورغم تباين المواضيع في القصيدة الواحدة ، فإن في مقدور المرء أن يتحسس وحدة القصيدة عبر موسيقاها وإيقاعاتها ، فكأنما الشاعر يعوض عن تفكك أجزاء القصيدة بهذه الكلية الموسيقية التي تلم شتاتها في وحدة عضوية . وبسبب من قدرتها التوحيدية تمتعت الموسيقى الجاهلية بجمالية معينة ، رغم ما فيها من قوة تنفر منها الأذن المتحضرة . وأظن أن تذوق موسيقى الشعر الجاهلي هو مسألة نسبية . فالذين يتمتعون بذوق موسيقي معاصر يمكنهم من تذوق السيمفونيات الأوروبية ، والموسيقى الهندية الرومانسية ، لن يملكوا الاستجابة لموسيقى الشعر الجاهلي ، في حين يبقى جمهور الناس في بلادنا ، وهو الجمهور المحروم من الذوق الموسيقي ، على صلة معينة بموسيقى القصيدة الجاهلية ، التي تمازج وعيه وتمتزج به ، نظراً لما تختزنه من قدرة على التحميس والروح الخطابية .

تاسعاً ـ الجاهلية والانتربولوجيا :

ليس لهذا المقال من غرض انتربولوجي ، إذ هو مكرس للشعر الجاهلي فحسب . غير أننا لن تغيب عن بالنا حقيقة مؤداها أن الانتربولوجيا هي الروح في تجلياته ضمن أطر الشروط البيئية والواقعية ، وبالتالي فهي تشمل الشعر والأدب وكافة أنماط النشاط الانساني ، بوصفها تحققات للروح . كما أن شغفي بهذا النمط من الثقافة سيحول دون أن أمر به في مقال كهذا . والأهم من ذلك كله هو وجود صلة حقيقية بين التراث الجاهلي جملة وبين الانتربولوجيا ،

إذ سيتعذر ، وربما سيستحيل ، إرساء قواعد الانتربولوجيا العربية دون تحليل الشعر الجاهلي ، وسيمتنع كذلك استيعاب نفسانية شعب خارج أطر الظواهر الانتربولوجية .

في كتابه « مضمون الأسطورة في الفكر العربي » ، وهو واحد من الكتب الرائدة في طريق تأسيس الانتربولوجيا العربية ، يعرض الدكتور خليل أحمد خليل أسطورة ناقة صالح ، ولكنه – وهذا ما أستغربه – يكتفي بعرضها دونما تحليل على الإطلاق ، اللهم خلا تعليق سريع لا يتجاوز جملة أو جملتين . ولست أدري لماذا فات الدكتور أن يرى في الناقة طوطماً عربياً خالصاً طالما أن أسطورة الناقة عربية « صرفة » ، وطالما أن المجتمع العربي مجتمع رعوي (وهذا مالم ينتبه اليه الدكتور) ، والطوطمية من خصائص المجتمعات الرعوية . وقد أتجرأ وأقول أن كتاب محمود سليم الحوت ، « في طريق الميثولوجيا العربية » ، وهو أحد المصادر الأساسية للدكتور خليل ، فيما استنتجت ، لم يعرج هو الآخر على طوطمية اسطورة الناقة ، إذ لو فعل لما قصر الدكتور خليل عن الإشارة اليه . بقي أن نعرف ما إذا كان فريزر ، صاحب الموسوعة الانتربولوجية الواسعة ، « الغصن الذهبي » ، أو سواه من الانتربولوجيين الأجانب ، قد عالج هذه الأسطورة أم لا ، وإذا كان الجواب بالإيجاب ما رأيه فيها ؟

وأما أسطورة إرم ذات العماد ، فقد اكتفى الدكتور بعرضها هي الأخرى تماماً كما فعل بأسطورة الناقة . وتكمن أهمية هذه الأسطورة ، وفقاً لما يخيل إلي ، في أنها محاولة قام بها العقل البدائي المفتقر إلى العلمية ، ابتغاء تفسير الخراب الذي ألم بمدن اليمن ، وربما بمدن أخرى في الجزيرة العربية . إنه التهدم الحضاري . وهذه مسألة يمكن الربط بينها وبين اللحظة الطللية في القصيدة الجاهلية . إذ ربما كانت هذه اللحظة (وهذا ما سلف أن بيناه في المقال السابق) تعبيراً عن المخزون اللاشعوري لهذا التهدم القديم . إن الأحداث الاجتماعية التي يطمسها التاريخ تختزنها الثقافة الموروثة اختزاناً خفياً ، وحين تعبر عن ذاتها تخرج بمنهجية ذات نزعة تبطينية من جهة ، وذات صلة بالواقع الحاضر أكثر من صلتها بالواقع الغابر .

ولنعد إلى أسطورة الناقة . إذا كان لسكان شبه جزيرة العرب من طوطم ، فلا يمكن أن يكون هذا الطوطم إلا جملا ، بل أنثى الجمل ، على الأرجح ، لأن الجمل هو الحيوان الأكثر انتشاراً في تلك البيئة ، ولأن « الجمل سفينة الصحراء » ، كما قالت العرب ، ولأن أنثاه – علاوة على كونها سفينة – تقدم الحليب ، وهو الغذاء اليومي لإنسان البادية ، وهذا ما انكشف في أسطورة الناقة . زد على ذلك أنها هي التي تحمل المواليد . ولهذا شددت أسطورة الناقة على مسألتين ماديتين أساسيتين : أولا ، أن الناقة « أربعة أضرع ، لكل ضرع الثتا

عشرة حلمة » ، وثانياً أنها « وضعت فصيلها على صفتها » . وتلوح هذه الأسطورة بمسألة مادية ثالثة : « ثم تدخل المدينة بلسان فصيح : من أراد اللبن فليخرج » . إنها توحي باشتراكية المواشي ، على الأقل بين أفراد القبيلة الواحدة أو البلدة الواحدة ، في عصور رعوية سحيقة .

ولكن ، ما هو الغرض الأخير لأسطورة الناقة ؟ إنه تحريم ذبح النوق . وهذا يعني أن الناقة كانت شيئاً مقدساً ، أي طوطماً . وربما كان من المباح ذبح ذكور الجمال ، وإلا لورد في الأسطورة أن القوم ذبحوا الناقة وفصيلها معاً . ولكي يضفي المجتمع القدسانية على الناقة فقد جعل ولادتها عجائبية الحال ، إذ ولدت من صخرة تمخضت عنها كما تتمخض المرأة عن مولودها . ولكن لماذا جعل العقل الأسطوري ولادتها من الصخر ، ولم يجعلها من الشجر ، مثلا ، أو من التراب ، أو من سواهما ، مع أن مثل هذه الولادة المقترحة تبقي على عجائبية الولادة . إن الرمزية هنا ذات مدلول كبير : لقد جاءت ولادة الناقة من الصخر ، من اللاحياة لتزيد في أهمية النوق التي تقدم الحياة : الحليب ، الغذاء الأول البدوي . وبذلك يسبغ عليها قدسانية أكبر مما لو جاءت ولادتها من التراب أو الشجر ، إذ في مثل هذه الحال تأتي الحياة من الحياة ، وهذا أمر منطقي ، والمنطقية ، نقيض الأسطورية ، تخفض من عجائبية ورمزية الشيء ، وبالتالي تخفض من قيمته الأسطورية ذات الدلالة ، أو لنقل من قيمته الرمزية ، الأمر الذي يسفر عنه نقص في القدسانية كي يزيد في التشديد على تحريم ذبح النوق . وقد هددت الأسطورة ذابحي النوق بتدمير بلادهم . ولكن ألا يسعنا الافتراض بأن مسألة التدمير هذه قد أقحمت على الأسطورة في عهد لاحق لتأليفها ، وذلك بعد أن رأى المجتمع مدناً تتدمر فأحب أن يستفيد من هذا الحدث للتشديد على تحريم ذبح النوق ! إذ من البدهي أن تكون أسطورة الناقة قد وجدت في مرحلة أسبق من المرحلة الحضارية ، لأنها بالضرورة من نتاج عهود الرعي السابقة على كل تحضير مديني . أفلا يمكن كذلك أن تكون الناقة قد اتخذت منهجاً لتفسير الانهدام الحضاري ؟ الأمر الذي لايعني أنها لم تكن موجودة قبل هذا الانهدام . أن العقل البدائي العاجز بلوغ أسباب تحلل المجتمعات ، أو أسباب الزلازل والبراكين ، يلجأ الى الخيال والاسطورية لايجاد التفسيرات التي توفر له الراحة . فثمود — وفقاً لهذا العقل — إنما دمرت لضلال أهلها ، لا لأن زلزالا قد قلبها رأساً على عقب .

أفلا يجدر بنا أن نتنبه ، ونحن في هذا الصدد ، الى البيت الوارد في معلقة أمرىء القيس : «ويوم عقرت للعذارى مطيتي ... » ؟ ألسنا أمام مسألة عقر ناقة ؟ أكان تحريم النوق ساري

المفعول بومذاك وقام أمرؤ القيس ، رغم ذلك التحريم بتحدي ، المجتمع ، فعقر ناقته ؟ أم لا تكون ناقة ، بل جملا أو فرساً .

ولا مراء في أن هاتين الأسطورتين (الناقة وإرم ذات العماد) كانتا سائدتين في الحقبة الجاهلية ، الأمر الذي يدخل دراستها ضمن اختصاص المتفرغين للبحوث الجاهلية . وأرجو أن أكون بهذه العجالة السريعة قد لفت انتباه الانتربولوجيين العرب إلى أهميتها . ولولا عدم إحاطتي الشاملة بأخبارهما ، بسبب من نقص المراجع الانتربولوجية بين أيدي القراء العرب ، لأمعنت فيهما بحثاً حتى أفند أو أثبت – وهذا هو الأرجح – نظريتي فيهما (طوطمية الناقة ، والانهدام الحضاري الذي تعبر عنه الأسطورة الأخرى) .

وليست الانتربولوجية العربية ، أو المتفرعة عن الدراسات الجاهلية ، معنية بالأسطورة فحسب ، بل هي تطوي في دائرتها مسائل اجتماعية واقتصادية وعقائدية ونفسية كثيرة أيضاً ، ولعل من بينها مسألة وأد البنات في العصر الجاهلي . أفكان وأد البنات يتم خشية عار اختطافهن ، أم أن عار اختطافهن كان يتم نتيجة لوأدهن ؟ أجدني أميل إلى الشق الثاني مني إلى الشق الأول . لقد كان وأد البنات يخلق فيضاً في الرجال ونقصاً في النساء ، ومن هنا كان الأمر يقتضي زواجاً من نمط تعدد الأزواج ، لا الزوجات ، وربما وجد هذا النمط الزواجي في شبه جزيرة العرب إبان عهود موغلة في الجاهلية . ولكن المتفق عليه أن مثل هذا النظام لم يكن مألوفاً عند الجاهليين ، إذ أن خبراً من هذا القبيل لم يرد ذكره في الأخبار التي تحدرت الينا من العصر الجاهلي ، ضمن إطار معرفتي بهذه الأخبار . لقد كانت المرأة تابعاً اقتصادياً للرجل ، فهي عالة عليه ، ولهذا السبب كان يخنقها ليتخلص منها . بل ربما كان يقتل حتى الذكور من أبنائه . وقد أشار القرآن صراحة إلى السبب المادي للوأد حين قال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » . ولعل مما يزيدني دعماً في هذا المذهب مثل ، أو قول مأثور عن العرب ، ورد في « أمالي القالي » (الجزء الثاني ، ص ٥٥) : « خفة الظهر أحد اليسارين ، وتعجيل اليأس (سن اليأس عند المرأة) أحد اليسرين » . ولما كان تعدد الأزواج غير مباح اضطر الشباب إلى الإغارة من أجل اختطاف زوجات الآخرين وبناتهم . والنصوص الشعرية التي بين أيدينا – سيما ديوان عروة بن الورد وأخبار وأشعار عمرو بن معد يكرب – تشي بحالة الاختطاف والمساومة على ثمن المرأة المختطفة دون لبس . أفي ميسورنا الظن بأن مثل هذه الحالة هي موروث قديم تحدر إلى الجاهلية تحدراً رسوبياً عن عادة الزواج الخارجي ، أي الزواج من عشيرة أخرى ؟

أفلا يمكن ، إذن ، أن تصبح النصوص الجاهلية ، ومعها مجموعة الأخبار التي بلغتنا عن

تلك الحقبة ، أساساً لا نتربولوجيا عربية تستفيد من هذه النصوص ، تماماً كما استفاد الغربيون سيما العالم الألماني باخوفن ، من تراث الإغريق ؟ وقصارى القول ان الموروث الجاهلي ، والموروث العربي جملة ، هو مرعى خصب للدراسات الانتربولوجية .

عاشراً – ختام :

لقد تناولنا العديد من الموضوعات ، ولكننا تركنا بحراً زاخراً من البحوث دون مساس . فالتراث الجاهلي أوسع عن أن يحيط به جيل بكامله ، وهو في رأينا قابل لدراسات تتجدد بتجدد الأجيال والدليل على ذلك أن فهمنا للجاهلية يختلف كثيراً كثيراً عن فهم العباسيين لها ، بل حتى عن فهم رواد هذا القرن نفسه . ومهما يكن الشأن ، فقد أهملنا مبحثين أساسيين[٥]: الغزل والرثاء . أما الغزل ، فأرى في تناولنا للبرهة الطللية ما يشير إليه ، وان كان لايغني عن بحثه ، ولئن كنت قد تناولت تلك البرهة بوصفها حالة جنسية (مكبوحة) لا غزلية ، فلن يفوت الانباه من القراء أن الغزل جنس مصعد ، وبالتالي فهو لايختلف عن الجنس ، إلا على هذا النحو ، وان كان حالة وجدانية أكثر منه فيزيولوجية ، في حين يجمع الجنس بين الوجداني والفيزيولوجي ، وبذا يغدو أكثر واقعية من الغزل .

أما الرثاء الجاهلي (وهو ما سنفرد له بحثاً خاصاً به) فإن السمة المميزة له أنه اظهار الميت تشخيصاً للمثل الأعلى الاجتماعي من خلال اسباغ كافة القيم المبجلة عليه . وكذلك هو حال المديح الذي لايفترق عن الرثاء إلا في طابع الحزن المهيمن على المرثية . غير أن هذا الحزن قلما يغلغل في نفس المتلقي ، لأنه أشبه بالفخر والانتفاع منه بالأسى والتفجع ، هذا اذا استثنينا اللحظات الرثائية النادرة . وذلك ما يلمسه المرء في شعر الخنساء التي يندر أن تنتج رثاء يشبه رثاء ابن الرومي لولده ؛ أو رثاء أبي ذؤيب الهذلي لأبنائه . ان الحاجة الى الرجولة في المجتمع الجاهلي ، والى القوة في بيئة لا تحترم الضعفاء ، هي التي جعلت من الرثاء فخراً أو مديحاً . إن المثل الأعلى الاجتماعي الجاهلي دوماً يحيل الى ذاته ، لا الى سواه . فالخنساء تظهر صخراً وكأنه أرقى تجل ممكن للرجولة . ونحن نعجب بهذا الصخر أكثر مما نأسى عليه ، ولكننا مع ذلك نأسف لموت مثل هذا المثل الأعلى المجسد . وباختصار ، يهدف رثاء الخنساء ، والرثاء الجاهلي في الغالب الأعم ، إلى اقناع القارىء ، أو السامع يومها ، أن ثغرة قد أحدثت في الأسرة ، أو في القبيلة أو المجتمع ، بوفاة الرجل موضوع الرثاء . وليس أدل على صحة هذه النظرة من هذا البيت الخنسائي :

وما يبكين مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

والآن ، رغم أن للبدائية اسانيدها ، وللحضارة أسانيدها المغايرة ، فإنه يتعذر على الانسانية أن تستهلك التجربة الجاهلية ، مهما تتغير بنا الأحوال ، لأن هذه التجربة تحتوي البدائي ، قاعدة الانطلاق البشري ، ومن المتعذر بناء شيء على غير قاعدة . انها تحتوي على أصل ما في الانسان من عناصر نفسية واطدة ، فضلا عن انطوائها على الآني العابر ، وعلى الجزئيات التي لاتهم إلا البدائي بعامة ، والجاهلي بخاصة . فلئن كان وصف لبيد للبقرة ، ووصف الشاعر الجاهلي لراحلته ، لايهمنا اليوم ، فاننا لانملك إلا أن نتعاطف أبداً مع لحظات الابداع المشتركة بين كافة بني البشر . فالشعر البدائي لن يفقد قيمته في المجتمع الحضري المتقدم والآلي الانتاج ، لأن صوره تستثير فينا دوماً موروثاً بدائياً مخزوناً في اللاوعي البشري . اننا نتحدر من البدائية ونحمل آثارها ، ولن تستطيع الحضارة أن تطفيء هذه الآثار في ذواتنا أبداً . ولهذا فإننا نشعر – ونحن من نعيش بين ضوضاء العواصم الكبرى – أن القصيدة الجاهلية ما تني تملك أن تنسق عواطفنا عبر شتى أنماط الاثارة الوجدانية التي تحدثها فينا أخيلتهـا وصورها وبناها التركيبية العقلية . ولا يمكن لهذه الاثارة أن تحدث بغير عاملين أساسين : أولها أن البدائية تقبع تحت جلد الانسان المتحضر ، يتوارثها جيلاً عن جيل ، كما يتوارث الخصائص العرقية والتشريحية ، وثانيها أن في القصيدة الجاهلية يقيم العنصر الثابت المشترك بين كافة الأرواح .

* * *

الدكتور منير صلاحي الأصبحي

حجة التفوق في «الخروج» وروايات أخرى

هذه المقالة هي الأولى من ثلاث مقالات أتابع فيها البحث الذي بدأته في هذه المجلة وذلك في الدراسة التي نشرت في العدد ١٥٠ (آب ١٩٧٤) تحت عنوان « الصهيونية والتبريرات الأخلاقية في الخروج وروايات أخرى » . فقد تناولت في تلك الدراسة الحجج الأخلاقية .. عارضاً الشكل الذي تقدم به هذه الحجج في عدد من الروايات الدعاوية ومشيراً الى التناقضات والتشويهات والتزييفات التي تعتمد عليها هذه الحجج . وسأقوم في هذه المقالات الثلاث باتباع نفس الطريقة في تناول حجة التفوق التي تلقى تركيزاً خاصاً من قبل كتاب الروايات موضع البحث .

ولقد أغفلت في دراستي الأولى الاشارة الى بعض الأسس والمنطلقات التي اعتمدت عليها ، مما عرضني إلى نقد كان من المحتمل أن أتجنبه وجهه إلي الناقد خلدون الشمعة في العدد ١٥١ من « المعرفة » .

فلقد تساءل الأخ خلدون عن المنطلق الذي انطلقت منه في اختيار الروايات التي تناولتها في دراستي أكان منطلقاً فكرياً أم فنياً ، والواقع أن انطلاقي في الاختيار لم يكن مدى النجاح الفني الذي تحققه الروايات ولا مدى الوضوح الايديولوجي الذي تتميز به . لقد اخترت الروايات على أساس انتشارها في الولايات المتحدة وتوفرها للقارىء الأميركي . لذلك أسقطت بعض الروايات من اعتباري مثل رواية « بوابة ماندلبوم TheMandelb aum Gate للكاتبة موريل سبارك Muriel Spark ورواية « غور وايغور » Gore and Igore لماير ليفين M eyer Levin بغض النظر عن مقصدها الدعاوي أو قيمتها الفنية ، وذلك لعدم توفر هذه الروايات بشكل كاف بين يدي القارىء الأميركي . فالأولى من هاتين الروايتين مثلا طبعت في بريطانيا ولم تنتشر في أسواق الولايات المتحدة والثانية لم يعاد طبعها بعد الطبعة الأولى وبذلك اختفت بسرعة من الأسواق .

وقد كان سبب الانطلاق في الاختيار هو اهتمامي الأساسي في دراستي وهو مدى تأثير هذه الروايات على الصورة التي يكونها القارىء الاميركي عن الصراع العربي – الصهيوني . واغفالي لذكر هذا الاهتمام عرضني لانتقاد آخر من قبل الاستاذ خلدون ، فهو يأخذ علي اهمالي لبحث مدى تأثير المغالطات الدعاوية في هذه الروايات على قيمتها الفنية . والواقع أن مثل هذا البحث يمكن أن يكون دراسة قيمة جداً ، ولكنه لم يكن الغرض من دراستي . فأنا – بسبب اهتمامي الأساسي – أتناول الطابع الدعاوي – وليس الطابع الفني – لهذه الروايات . ان هذه الروايات هي بالطبع أعمال فنية – وذلك بغض النظر عن مدى نجاحها الفني – ولكنها في نفس الوقت أعمال دعاوية تشكل جزءاً من الحملة الدعاوية الصهيونية والمؤيدة للصهيونية لكسب عطف المواطن الغربي على الدولة الإسرائيلية . ولقد قمت بدراسة هذه الأعمال على هذا الأساس . واذا كان هذا الأساس قد جرني إلى اهمال جزئي لبحث هذه الأعمال من الناحية الفنية فانه اهمال ضروري ، إذ يخيل إلي أن كل باحث يضطر – كارهاً في معظم الحالات – إلى اهمال نواح تتعلق ببحثه وتثير اهتمامه وذلك كي يستطيع تحديد هذا البحث ضمن اطار معقول ولكي يتجنب التشتت والضياع . ولكن هذا في الواقع لايعني أنني تجاهلت الناحية الفنية من هذه الأعمال تجاهلا كلياً . فطبيعة كونها روايات يحتم علي بالطبع أن آخذ الجانب الفني بعين الاعتبار . ولكنني من جهة أخرى أتعرض لهذا الجانب فقط حين يتعلق بغرضي الأساسي – الذي هو كما

ذكرت آنفاً تحديد مدى تأثير هذه الروايات على فكرة القارىء الأميركي عن الصراع . وكانت النتيجة الحتمية لهذا أن يبقى الحكم الفني ضمنياً .

ولكن هذا لايعني بتاتاً أن همي « قد تركز في معظم الأحيان على محاولة البحث عن مقاطع تؤيد » فكرتي أو أنني وجهت اهتمامي الى « دراسة الأفكار الدعائية بمعزل عن تحققها الروائي» كما يقول الأخ خلدون . واذا كان هذا « ما يبدو » في مقالتي الأولى فان ذلك يعود الى طبيعة الروايات نفسها وليس إلى طبيعة الدراسة . فطرح الحجج في هذه الروايات كثيراً ما يتم عن طريق محاورات مباشرة مفتعلة إلى حد كبير ومنفصلة عن الحبكة الروائية انفصالا يكاد يكون تاماً . فرواية « الخروج » مثلا هي مزيج من العمل الروائي والعرض شبه التاريخي لأحداث أوروبا والشرق الأوسط خلال أواخر القرن الماضي والنصف الأول من القرن الحالي . ومن جهة أخرى فلقد قمت في مقالي بالإشارة الى الطرق التي يتبعها المؤلفون في عرض الحجج التي قمت بمناقشتها .

وبما أنني في صدد الإجابة على نقد الأخ خلدون فانه يحلو لي أن أذكر أنني حين وصفت بعض الحجج الأخلاقية بأنها حجج ثانوية ، فان ما عنيته لم يكن حكماً على أهمية هذه الحجج وإنما على مدى التركيز الذي تتلقاه في الروايات المذكورة . وكذلك أود أن أشير إلى أنني أوضحت في مقالي السابق أن التبريرات الأخلاقية التي بحثتها هي التبريرات التي تستعمل لتبرير « انشاء دولة يهودية في فلسطين وفكرة حق البقاء لتلك الدولة » . وربما كان في ذلك الإيضاح اجابة على تساؤل الأخ خلدون عن معنى « الأخلاق » في مقالي وماإذا كان هذا الاصطلاح يتعرض للوسائل أم الغايات .

وانني اذ أبحث حجة التفوق في هذه المقالات الثلاث فانني آمل أن أقوم في المستقبل القريب بنشر مقالات أخرى أتابع فيها هذه الدراسة متناولا بشكل خاص حجة البقاء من جهة وعرض الايديولوجية العربية في الروايات المدروسة من جهة أخرى .

وسأقوم في دراستي لحجة التفوق بعرض الشكل الذي تطرح فيه هذه الحجة في الروايات موضع البحث في مقالتي الأولى هذه ، وفي مقالتي الثانية سأتابع هذا العرض بتناول الصورة التي ترسمها هذه الروايات للعربي كفرد وللعرب بشكل عام ، وأما في مقالتي الثالثة فانني سأقوم بتحليل الأسس التي تقوم عليها الحجة وإيضاح نقاط الضعف والتناقضات الموجودة في صلب

هذه الأسس . وفي كل هذه المقالات سأكتفي بالاشارة الى أرقام الصفحات حين أستشهد بمواضع محددة من هذه المقالات ، علماً بأني ذكرت الطبعات التي اعتمدت عليها في بداية مقالي السابق .

* * *

ان « العداء العربي » تجاه اليهود هو – وفقاً للأسطورة الصهيونية بالشكل الذي تعرضه به الروايات التي تتناولها هذه الدراسة – عداء غير مبرر (١) . [وتزيد من كونه عديم التبرير فرضية أن قدوم اليهود الى فلسطين – بشكل حسب زعم تلك الأسطورة – « منفعة كبيرة » للعرب ، وهذا الزعم يلخص الى حد كبير حجة التفوق في العقيدة الصهيونية .

ان بحث حجة التفوق بشكل منفرد لا يعني أن هناك فاصلا واضحاً وقاطعاً يفصلها عن الحجج الأخلاقية ، وفي الواقع نجد أن شخصيات متناثرة في رواية « الينبوع » تناقش حجة التفوق كحجة اخلاقية . ولكن التعبير عن هذه الحجة يصاغ في معظم الحالات بشكل يعطيها طابعاً ذرائعياً لايطبع الحجج التي نوقشت سابقاً . ان هناك بالتأكيد موقف اخلاقي متضمن في هذه الحجة ، فهي تقول ببساطة « الحياة للأفضل » و« الحق للأقوى » ولكن هذا الأساس الضمني لا يتعرض لأية مناقشة فلسفية جدية ، مما يضعف الصيغة الاخلاقية التي تصبغ هــذه الحجــة].

ليس هناك من تطابق تام أو اتفاق عام بين الروائيين (وشخصياتهم) الذين يستخدمون حجة التفوق على الشكل المستخدم في التعبير عنها ولا على التعريف الضمني لطبيعة «التفوق اليهودي » ولكن الحصيلة العامة للقوالب المختلفة التي تصب فيها هذه الحجة هي افتراض أن اليهود هم أفضل من عرب فلسطين لذلك فان احتلالهم وسيطرتهم على الأرض المتنازع عليها هو الأمر الأكثر منطقية .

وفي رواية يوريس – وهو واحد من أكثر الكتاب تطرفاً في تبني فكرة التفوق اليهودي – نجد مثالا على هذا « التفوق » في شخصية بطلها آري بن كنعان . فحين يروي يوريس تاريخ حياة الأخوين رابنسكي (والد آري وعمه) يقول أنه « في الواقع كان من الممكن أن يكون عقل ياكوف الحصب اذا وضع في جسم جوسي الصلب الإنسان المثالي (السوبرمان) » (الخروج ، ص ٢٠٣) . ولا يترك يوريس مجالا كبيراً للشك في أن آري هو ذلك السوبرمان فحين تقوم كيتي فرمونت بتمريض آري إثر جرح يصاب به أثناء احدى عمليات الهاغانا ،

---

(١) انظر ص ٧١ من مقالي السابق المشار اليه في مقدمة هذا البحث .

تحدث نفسها قائلة : « انه رجل يستحق الإعجاب . . . لقد كان من الممكن للألم الذي قام بتحمله أن يقتل انساناً عادياً » (ص ٤٦١) . فاذن آري هو انسان غير عادي ، وهو لايتحمل الألم الشديد فقط ، ولكنه أيضاً يتحمل العمل المرهق المتواصل ، فهو يعمل مائة وعشر ساعات في الأسبوع . وتعلق كيتي على ذلك قائلة : « انني لم أر مثل هذا التفاني قط » (ص ٤٠٣) حتى في صباه ، نجد أن آري يجبر الطحان بحدة نباهته حين يرسله والده إلى مطحنة حبوب في قرية عربية قريبة ، وكذلك فانه يستطيع أن يحمي قمحه من أن يستبدل بكمية مماثلة من « القمح العربي الأقل جودة » ويتمكن من الانتصار بمفرده على مجموعة (حوالي اثني عشر) من الصبيان العرب كانت قد أفلحت فيما سبق في سرقة قمحه وبيعه للطحان المتآمر (ص ٢٧٤ – ٢٧٦)

وبما أن كيتي – وهي امرأة اميركية ومن المتوقع أن يقبل القارىء الأميركي آراءها باعتبارها تمثله – تستخدم لبلورة الفكرة المراد تكوينها لدى القارىء عن آري ، فانه يمكن تلخيص شخصية آري – كما يرسمها يوريس – بكلمات كيتي حين تقول : « ان آري بن كنعان ينحدر من سلالة من الرجال المثاليين (السوبرمن) رأسمالها هو الاعتماد على النفس » (ص ٣٩٤) . وهذه الكلمات توضح أن آري هو ليس نموذجاً فريداً وانما هو مثل للصهيونية ومؤسساتها المختلفة (الهاغانا ، البالماخ . . .) .

ونجد شخصيات بديلة لآري في بعض الروايات الأخرى مثل ايلان الياف في « الينبوع » وجاكوف باراتز في « برج بابل » ، فكلاهما سوبرمان بطريقته الخاصة . فالثاني مثلاً يوصف بأنه :

دقيق كجراح في مهنته ، دون أية رحمة للمتقاعسين ، وليس في استطاعته أن يتحمل الحمقى . ويجعله الغضب بارداً ومتروياً ، وحتى روح الدعابة كان لها لديه نكهة ساخرة . الدفء الموجود فيه كان مخبأ بحرص وغيرة وكأنه نار مقدسة ، ورغم أن صداقاته كانت عميقة ، فانها أبداً مسرفة في التعبير العاطفي . (برج بابل ، ص ٤٣ – ٤٤)

ان بارتز هو سوبرمان العصر العلمي .

ومن الضروري التأكيد بأن آري والشخصيات المماثلة له في الروايات الأخرى ليسوا أفراداً نادرين . انهم بالأحرى يمثلون – حسب قول المؤلفين – جيلا يهودياً جديداً . ويقول بروس سذرلاند – وهو ضابط بريطاني متقاعد صهيوني الميول ومن شخصيات « الخروج » – أن « لدى اليهود من أمثال آري بن كنعان عدداً أكثر من اللازم » . ويبدو جنود البالماخ جنوداً لا يقهرون . « جنود الله » ، في عين كيتي فرمونت (« الخروج » ، ص ٤٦٥) .

وكذلك يكتب متشند عن « اليهودي الجديد » الذي « يجعل اسرائيل قوية » (« الينبوع » ، ص ٢٣ و ٥٦) .

وفي القسم المعنون « رجل هرم وإلهه » من رواية « الينبوع » نقدم للقارئ صورة عن قبيلة زادوك العبرية وهي صورة مماثلة بشكل واضح التعمد « لليهودي الجديد . » فقبيلة زادوك هذه – التي تحاول القيام « بقفزة من الوسائل القديمة الى الوسائل الحديثة » (ص١٨٥) – هي قبيلة « جيدة التنظيم ، مخلصة لاله موحد ، تتقيد بالتعليمات ، مليئة بالحيوية . » وهي « وحدة مترابطة الى الحد الذي كان يمكن وجوده في المناطق الصحراوية . . . ومتحدة بشكل لا تستطيعه أي مجموعة مماثلة أخرى » (ص ١٨٣) . ويمضي الوصف ليصور هؤلاء العبريين بأنهم « محاربون أقوياء كانوا ينهزمون أحياناً ولكن عزيمتهم لاتثبط أبداً » (ص ١٨٤) .

وتصور المرأة الصهيونية في هذه الرواية بصورة امرأة خشنة تبدو عديمة الأنوثة . في سورة من الغضب تقول كيتي فرمونت الأمريكية لجوردانا بن كنعان (شقيقة آري) :

لاتخبريني عن الخصائص التي تميز المرأة – قالت لاتحاولين ، إذ أنك لست امرأة . انك زوجة طرزان وانت تتصرفين كما لو كان مكانك الطبيعي دو الأدغال . ولن تكون الفرشاة والمشط بداية سيئة لاصلاح ما يعيبك . (« الخروج » ، ص ٣٦٣ – ٣٦٤)

ولكن المرأة الصهيونية هي في الواقع – حسب تصوير الروايات المدروسة هنا – امرأة ضحت « بالفرشاة والمشط » في سبيل المساواة وفي سبيل التفاني في خدمة القضية الصهيونية : لذا فهي تساوي الصهيوني الذكر في « تفوقه » . وكيتي نفسها تعرف – كما يقول يوريس – أنه « من الحسن أن يعيش المرء من أجل هدف » وأن « جوردانا أعطيت منذ ولادتها مهمة كان عليها تنفيذها دون سؤال ، على حساب سعادتها الشخصية ومستقبل حياتها وأنوثتها » (ص٣٦٥) وتقول شولا ميت – وهي صهيونية أخرى في رواية « أحضروا أبنائي من بعيد » – أن أفراد « الصابرا » يستمتعون بالمخاطر ويرحبون بالقتال وان الاسرائيليين – بعكس العرب والأمريكيين – لا يعتقدون بأن المرأة أدنى من الرجل (ص ٦٠) (١) .

ويضيف يوريس نظرة تفاؤل والعمل بحماس غير عادي و « حافز وهدف لا مثيل لهما في تاريخ الانسان » إلى « خصائص التفوق » التي يسبغها على الصهاينة(« الخروج » ، ص ٥٩٦).

(١) راجع أيضاً « الينبوع » (ص ٤٣ – ٤٤) بالنسبة لموضوع « تفوق المرأة الصهيونية » .

وكما يمكن للمرء أن يتوقع ، هناك تركيز شديد على « التفوق » العسكري . فالجندي الصهيوني مثلا هو – حسب ادعاء لوبنستاين – جندي كامل في طبعه ، فهو يحسن البدء ولا يجيد التوقف (« أحضروا أبنائي من بعيد » ، ص ١٦) . ويقول يوريس أن الهاغانا يمتازون « بمهارة مخيفة » ، بينما يقوم « الارهابيون اليهود بالقتال بإيمان مرعب » ، وهم بذلك ليسوا أفضل من العرب فحسب ، بل أفضل من أي فئة أخرى(« الخروج » ، ص ٢٧٨و ٣٧٢)(١) وتتوضح مهارة الصهاينة القتالية في هذه الروايات حتى قبل بدء حرب ١٩٤٨ ؛ ففي الحرب العالمية ، تشكل وحدات يهودية خاصة ويعهد إليها بأكثر المهمات التجسسية والانتحارية خطراً ، حسبما يرد في « الخروج » (ص ٣١٤ – ٣١٥) .

وتتبدى النواحي الأخرى من « التفوق الصهيوني » في الأشياء التي يجلبها اليهود إلى فلسطين . فأحد الأشياء التي يحضرونها هي « الثقافة » . وهكذا نجد أن اليهود الألمان في مستوطنة قرب الحدود السورية يقومون بتشكيل أوركسترا وبتشييد « مدرج كبير في الهواء الطلق » (يسميه مؤلفو رواية « إذا خسرت إسرائيل الحرب » (ص ٥٤) « قاعة سيمفونية شهيرة ») وذلك في موقع الغابات الطبيعية (« الخروج » ، ص ٤٠٨) . ويوصف أثاث غرفة عضو أعزب في أحد الكيبوتزات في « الينبوع » بأنه يحتوي

الأشياء الثلاثة الرئيسية : مكتبة ضخمة محشوة بالمطبوعات ، وجهاز أسطوانات مع مجموعة الأسطوانات الكلاسيكية ، وتقليد ملون للوحة من رسم مارك شاغال ...

(ص ١٠٤٢ – ١٠٤٣)

وفي منزل أسرة بن كنعان تمتلىء المكتبات « بالأعمال الكلاسيكية بالعبرية والإنكليزية والفرنسية والألمانية والروسية » . (« الخروج » ، ص ٣٤٥) (٢) .

---

(١) لتكوين فكرة عن مدى التركيز على « تفوق » الصهاينة العسكري ارجع – كمثال على هذه الأعمال الروائية – إلى رواية « لو خسرت إسرائيل الحرب » (ص ٢٠ و ٢٦ و ٢٧ و ٣٥ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٦ و ٨١ و ١٢٩ و ١٣٩ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٦٠ و ٢٤٩ وما يليها) .

(٢) ارجع أيضاً إلى ص ٣٦٠ و ٣٩٤ و ٥٩٧ . أيضاً ارجع إلى رواية « في وسط الأسود » لهبسون ، ص ٩ ، للحصول على مثال مماثل .

ويحضر اليهود معهم أيضاً «اللمسة العصرية» . ونجد في «الينبوع» مثالا على هذه اللمسة وذلك في خيبة أمل البروفسور توماس بروكس وزوجته . وبروكس هذا هو أستاذ يدرس تاريخ الكنيسة في كلية صغيرة بولاية أيوا الأميركية وعضو ذو شأن في مجلس إدارة «المتحف الإنجيلي» ، وهو يقوم بزيارات إلى فلسطين بقصد تصوير صور ملونة يحاول فيها أن يصور روح الأرض المقدسة كما كانت زمن التوراة والإنجيل . وخيبة أمله تنجم عن الصعوبة المتزايدة التي يجدها في الحصول على هذه الروح ، فالمدن والأبنية الحديثة تشاد في كل مكان . وحين كانت فلسطين تخضع للإدارة البريطانية كانت — حسب قول بروكس — « تبدو مثلما كانت حتماً في زمن التوراة » . ولكن بروكس وزوجته يجدان ما يرضيهما في الأردن ؛ ويقول البروفسور بروكس :

لقد شعرت والمسز بروكس شعوراً أكبر بأننا في بيتنا على طرف الحدود الآخر . إنهم حافظوا إلى حد كبير على أرضهم مثلما كانت في الماضي . إن المرء يكون إحساساً بالأرض المقدسة في الأردن المسلمة أكثر مما يستطيع تكوينه هنا في القطاع اليهودي .

(ص ١٠٣٠ — ١٠٣٢)

ونجد مقارنات مماثلة غرضها إظهار الروح اليهودية « العصرية » في « الخروج » بين تل أبيب اليهودية ويافا العربية وكذلك بين قسمي القدس العربي واليهودي(ص ٣٢٨ ، ٣٣٦)

وبالطبع تشمل اللمسة العصرية الإنجازات الصناعية والطبية . فيوريس يصف التطورات التي حدثت بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ ، ذاكراً أنها شملت نشوء الصناعة الثقيلة في حيفا وتل أبيب .

مواد كيماوية وعقاقير وأدوية ومناجم وهندسة فنية وصناعة الأحذية والملابس لقد كبرت القائمة لتشمل آلاف المواد . وتم تجميع السيارات وبناء الباصات . وصنعت الإطارات ، وأقيمت مدرجات طائرات ، وأحاطت بالأمة شبكة من الطرق العامة .

(« الخروج » ، ص ٥٩٧)

ويمكن ملاحظة « التقدم الطبي » من جهة أخرى من « واقع » أنه حتى في مستوطنة صغيرة مثل مستوطنة غان دافنا فيها دائرة طبية تضم « عيادة طبية ومستشفى حديثة المعدات فيها عشرون سريراً وغرفة عمليات » وهيئة طبية مؤلفة من طبيب وطبيب نفساني يداوم دواماً كاملا ورئيسة ممرضات وأربع ممرضات تحت التدريب (ص ٣٦٠) .

وفي مدرسة المستوطنة « كانت الدروس تعطى في الهواء الطلق ، ويرتدي الأطفال بناطيل قصيرة ويستلقون هنا وهناك على العشب بحيث أنه حتى دراستهم الأكاديمية كانت على مقربة من الطبيعة » . وبالرغم من أن الأطفال قدموا من « مستنقعات الأرض النتنة » (وذلك طبعاً بسبب الاضطهاد) فإنه لم تحدث في المدرسة أية مشكلة تأديبية (ص ٣٥٩) . هذا أحد الأمثلة العديدة جداً التي تحفل بها هذه الأعمال والتي تظهر « التفوق » الصهيوني في حقل التربية . (١)

وحسبنا نجد في الروايات التي هي قيد البحث ، لا يشمل « التفوق » الصهيوني الأشياء التي جاء بها اليهود إلى فلسطين فقط ولكنه يشمل أيضاً « انجازاتهم العظيمة » بعد قدومهم . ويعطي يوريس مثالاً على هذه الإنجازات حين يصف زيارة لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (Unscop) البلاد عام ١٩٤٧ . فهو يكتب أن المجتمع اليهودي

عرض سجله الزاهي لاستصلاح الأراضي ولتأهيل المشردين — تقدم حركة الكيبوتزات والمصانع والمدن التي بنوها . وقد أعجب مندوبوا الـ Unscop بالتباين بين المجتمعين اليهودي والعربي . (« الخروج » ، ص ٤٣٦)

ويظهر تعداد آخر للمنجزات في إعلان إنشاء دولة إسرائيل كما يرد في « الخروج » . ويضيف الإعلان أن اليهود « قد أحضروا منافع التقدم لجميع سكان فلسطين » (ص ٥٣٩) . ويكتب يوريس أنه بعد انتهاء حرب عام ١٩٤٨ وبالإضافة إلى التقدم الصناعي المذكور آنفاً فإن الفنون والتجارة جعلت من إسرائيل « ملحمة في تاريخ الإنسان » و « منارة للجنس البشري بأكمله » (ص ٥٩٧) .

ونجد بين « إنجازات » الصهاينة التي يسلط عليها الضوء بشكل خاص حياة الكيبوتزات

---

(١) يجد بطل موريست وست في رواية « برج بابل » عدم قيام إسرائيل عن قصف الجامعة الأمريكية في بيروت أثناء حرب حزيران ١٩٦٧ نقطة تستحق الذكر . وهو يعلل هذا الامتناع عن القصف ليس بأن لبنان لم تشترك في تلك الحرب ولا بأن الجامعة هي مؤسسة أمريكية ، ولكن السبب كما يتفضل السيد تانكرد هو « احترام اليهود الكبير لتربية » (ص ١٧٦) . ولا ندري كيف يمكن للسيد وست أن يعلل قصف الإسرائيليين مؤسسة الأبحاث في بيروت الذي تم مؤخراً .

واستصلاح الأراضي . فالكيبوتز يوصف دائماً كعالم طوباوي (١) ، بينما نجد أن الكليشية عن تحويل الصحارى إلى جنات تستعمل إلى حد الاهتراء في معظم الأعمال التي هي قيد الدراسة (٢) .

و « ازدهار الصحارى » هذا يستخدم في رواية « الينبوع » كوسيلة لتقديم أكبر عرض لحجة التفوق فصاحة . (وربما لأن متشنر «٣»يود استخدام مصطلح أكثر تواضعاًفإنه يستخدم كلمة « الولاية » بدلا من « التفوق ») . ويطرح الموضوع أول ما يطرح في تأملات بطل الرواية – كما هي الحال بالنسبةلمعظم القضايا الفكرية التيتطرح في « الينبوع » بشكل مباشر – :

لقد كانت مسألة حق اليهود في تأسيس اسرائيل مسألة سهلة بالنسبة لكلنين . لقد كانت مسألة الولاية ، فحين كان هيرود ملكاً ، كانت أراضي الجليل تحوي عدداً من السكان يزيد على نصف مليون ؛ وفي زمن البيزنطيين ، كان العدد يزيد على المليون . ولكن لدى انتهاء حكم العرب والصليبيين والأتراك كانت الأرض نفسها تطعم أقل من ستين ألفاً ، وهذه خسارة واضحة لستة عشر من بين كل سبعة عشر شخصاً . وبما كان كلينين يراه حوله ، استنتج أنه خلال عشرين سنة أخرى

---

(١) ارجع إلى « الينبوع » ، ص ٧٠ – ٧٣ ، للحصول على مثال . ولكن إذا أردت صورة أقرب إلى الواقع فانظر ص ١٥ في رواية هيستون وكذلك ارجع إلى صورة الحياة في كيبوتز كما تعرض في رواية لين ريد بانك « أطفال عند البوابة » ، وأيضاً في روايتها « بيت الأمل »)

(٢) ارجع مثلا إلى « الخروج » ، ص ١٨٨ و ٢٥٥ – ٢٦٩ و ٢٧٠ – ٢٧٢ .

(٣) نجد واحد من أفضل أساليب متشنر الدعاوية في قيام بطله الدكتور كلينن بعرض حجة التفوق بتفصيل مسهب وصريح ، ولكن متشنر يسمح لشخصية أخرى ، وهي شخصية مصور انكلزي ، برفض هذه الحجة . وهكذا يحصل متشنر على تأييد الذين – من بين قرائه – هم مستعدون لقبول هذه الحجة ، وفي نفس الوقت فإنه يطمح إلى إرضاء القراء الذين يحتمل أن يرفضوا تلك الحجة ، وذلك بتخطيها واستعمال حجج أخرى . ويستعمل متشنر هذا الأسلوب في مواضع أخرى ؛ فالدكتور كلينن نفسه يرفض الحجتين اللتين بحثنا في المقال السابق .

من الحكم اليهودي المسترجع ستطعم التربة التي أعيد بناؤها مليونًا من الأشخاص مرة أخرى .

كانت هذه هي الحقيقة المذهلة التي لا تقبل النقاش : لقد سمح الولاة الآخرون للأرض التي كانت عذبة في السابق أن تتدهور ، وللآبار أن تردم ، وللغابات أن تختفي ؛ بينما أعاد اليهود الأرض للإنتاج ثانية . ولم يستطع أن يتجنب التساؤل عما إذا كان مثل هذا الاستخدام الخلاق لا يعطي حقاً أخلاقياً في امتلاك الأرض ، باعتبار أن الإهمال السابق أسقط مثل هذا الحق (١) . (ص ٩١٤)

ويلقى كلينين المؤازرة في وجهة نظره هذه من جميل طبري ، وهو عربي بقي في إسرائيل معتقداً — كما يصور متشنر — بحق اليهود في الأرض . إذ يقول جميل هذا أن طبيعة العربي هي تهديم الأرض الصالحة من أجل « أن يخلق صحراءه الخاصة » (ص ٩١٦) (٢) .

وفكرة أن الوجود الصهيوني في فلسطين هو إنقاذ للعرب — ليس عرب فلسطين فحسب ، بل جميع العرب — هي امتداد لا مفر منه لحجة التفوق . ونجد تعبيراً يتسم بالفجاجة عن هذه الفكرة في « برج بابل » و « موسم الشك » . في كل من هاتين الروايتين هناك جاسوس عربي (الدكتور بيطار في الرواية الأولى والسيد زيد في الثانية) يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية مع الادعاء بأن عمله هذا هو لمصلحة العرب . فالسيد زيد حسبما تقول ابنته لا يكره العرب وهو حسب قول مهرب سلاح بريطاني ليس من « النوع المعتاد من الخونة » . فالدافع لنشاطاته التجسسية هو رغبته في السلم . « لقد كان نزيهاً كأي شخص آخر هنا في الشرق الأوسط ...

---

(١) ينبغي هنا ملاحظة انتقاء الكلمات في عبارة « حق اليهود الأخلاقي في تأسيس إسرائيل وهي عبارة يمكن للقارىء الأمريكي قبولها بسرعة أكبر من قبول « حق الصهاينة الأخلاقي في الاستيلاء على فلسطين » مثلا . وكذلك ينبغي ملاحظة لجوء متشنر إلى تجميع العرب والصليبيين والأتراك في فئة واحدة ، وهذا يهدف بشكل واضح إلى تجنب ادعاء أن الأرض كانت في وضع سيء أثناء حكم العرب ، إذ أن هذا الادعاء سيكون عرضة للدحض . ولكن بطريقة التجميع هذه يقوم متشنر بهذا الادعاء بشكل ضمني

(٢) إن تجاهل متشنر التاريخ العربي هنا هو مثال ينطبق على مواقف معظم الكتاب الآخرين إن لم يكن كلهم .

كان عربياً حاول أن يكون عقلا نياً » (« موسم الشك » ، ص ٢٣٣ و ٢٦٧ – ٢٦٨)(١) وكذلك يوصف الدكتور بيطار بأنه إنساني وبأنه طبيب ذو نزعة عالمية . وهو يخدم الإسرائيليين « لكي يخدم قضيته الخاصة » التي هي جزئياً « حملة فردية ضد الفقر والمرض » توضح تفانيه من أجل بلده (سوريا) (« برج بابل » ، ص ٢٠٤ – ٢٠٥ و ٢٥٤ و ١٦٢) . وتقوم جاسوسة سورية أخرى في « برج بابل » يدفعها العمل للإسرائيليين غرامها بأكبر جاسوس لهم في سوريا بلفت نظر عشيقها إلى أنه في محاولته لا نقاذ حياة الكثيرين من الشبان الإسرائيليين – فيا إذا نشبت الحرب بين سوريا وإسرائيل – سيسبب موت العديد من الشباب السوريين (ص ٢٥٥) . ولكن الدكتور بيطار من جهته يبدو وكأنه غافل لهذه النقطة أو مقتنع أنه بالرغم من هؤلاء الضحايا لا يزال يخدم بلاده .

بينما يقوم وست وكليري (مؤلفي « برج بابل » و « موسم الشك ») بالتعبير عن فكرة « إنقاذ الصهيونية للعرب » بشكل غير مباشر عن طريق تصوير جاسوسين عربيين يعملان لحساب إسرائيل بأنهم متفانين في خدمة شعبهم وفي خدمة قضية السلام ، فإن يوريس يقدم عرضاً أكثر وضوحاً لهذه النقطة ، فهو يقدم مثالا على ما يستطيع الصهاينة فعله لتحسين أحوال عرب فلسطين . فآري بن كنعان يقول لطه – مختار قرية أبو يشع العربية المجاورة – :

لقد قنا نحن بتصميم وبناء هذه البيوت الحجرية في قريتكم . إن أطفالكم يستطيعون القراءة والكتابة بفضلنا وان صغاركم لا يموتون قبل بلوغ السادسة بفضلنا . لقد علمناكم كيف تزرعون زراعة صحيحة وكيف تعيشون حياة شريفة . لقد جئناكم بأشياء لم يكن أهلكم أنفسهم ليعطوها لكم قبل ألف سنة . لقد كان أبوك يعرف ذلك وكان شهماً إلى حد كاف ليجعله يعترف بأنه ليس هناك من يكره العربي ويستغله أكثر مما يكرهه ويستغله عربي آخر . لقد مات لأنه كان يعرف أن خلاصكم هو مع اليهود وقد كان لديه من الرجولة ما مكنه من أن ينادي بذلك . (٢)

(« الخروج » ، ص ٣٥٨)

وبالتأكيد نجد أن كال – والد طه – يشهد في مكان سابق من الرواية أن « اليهود هم

(١) ليس هناك في الرواية محاولة لشرح كيف أن العقلانية والرغبة في السلم تدفعان إنساناً عربياً إلى التجسس لصالح إسرائيل .

(٢) أنظر أيضاً إلى « الينبوع » ، ص ٩٢٦ .

وسيلة الإنقاذ الوحيدة للشعب العربي . فاليهود هم الوحيدون منذ ألف عام الذين قاموا بجلب النور إلى هذا القسم من العالم » (ص ٢٦٩) . ولكن العرب بشكل عام – حسب قول يوريس – وبشكل خاص القادة العرب لم يقدروا « كرم » الصهاينة « ومنجزاتهم » في رفع مستوى معيشة الفلسطينيين حق التقدير (ص ٢١٧) . (١٢)

وبالطبع فإن فكرة خلاص العرب على يد اليهود وكذلك حجة التفوق بشكل عام لا تكتملان بدون وصف « التخلف العربي » . وتقدم الأعمال التي هي قيد البحث هنا مثل هذا الوصف بكميات وافرة . وقبل مناقشة حجة التفوق وتحليل أسسها يجب أولاً استعراض صورة العرب المرسومة في هذه الأعمال . فإلى المقال القادم .

---

(١) لقراءة المزيد عن فكرة « إنقاذ العرب » ارجع إلى « الخروج » ، ص ٥٧٣ – ٥٧٤ و « الينبوع » ، ص ٩٢٦ .

نقد
وتحليل

عرس فلسطيني والبعد الاسطوري

صالح أبو أصبع

اذا كان غسان كنفاني قد انهى روايته (عائد إلى حيفا) بقوله :

« – أرجو أن يكون خالد قد ذهب . . أثناء غيابنا » .

فاننا في روايته (عرس فلسطيني) سنلتقي بهذا الأمل – التحاق خالد في صفوف الفدائيين – مجسداً بفهد . .

وفهد قد ذهب فعلا . . وبدلا من أن نرقب ذهاب « خالد » أو أن نتساءل هل ذهب أم لا؟ فان عرس فلسطيني جاءت لتجيب عن تلك الأسئلة التي تطرحها رواية (عائد الى حيفا) .

ففي (عرس فلسطيني) نعيش لحظات ارتقاب « العودة » وليس « الذهاب » فهد (لابس أحسن ما لبس من الثياب كل حياته . فلا يبدلها في ليلة زفافه . . قالوا لبعضهم البعض همساً :

— نعم . نعلم انه منذ سنتين يلبس ملابس الفدائيين . .) فبينما تطرح رواية غسان الأمل المرتقب في المقاومة فان (عرس فلسطيني) تجسدها .

والرواية تدور حول السبيل الى تحرير الأرض . . الذي يشقه فهد الفدائي . وتكون بداية الطريق هي التضحية . . حتى ولو أن فهد نفسه يستشهد فان ذلك هو العلامة البارزة على طريق العودة .

(غن لنا . أننا ظللنا نمشي في الأرض ، عشرين سنة ، ونحفر ، حتى وجدنا العلامة : بارودة يموت جنبها المقاتل وأغل من كل مباهج الدنيا وراءه ، ان لاينفذ من صرته الفشك قبل أن يموت .

آه : فمن يستطيع بعد اليوم أن يحجب عن أعيننا الطريق ، وقد رفع فهد على بندقيته لنـــا علامة ؟) ١٢٣

هذه هي الفكرة الأساسية التي تدور حولها الرواية ، وهناك أفكار أخرى ترتبط بهذه الفكرة وتحزمها . . . بل هي العدو الذي تقف عليه هذه النبتة الطرية . . ان هذه الأفكار هي حكاية الشعب الفلسطيني لمدة عشرين سنة وهو (يمشي في الأرض ويحفر حتى وجد العلامة) . . الرواية اذن تصوير لحياة اللاجئين ورصد لانبثاق فجر المقاومة . . تصور أولا بؤس اللاجئين الذين لا يعرفون الفرح ولا السعادة ، بل لا يجرؤون على الفرح إلا اذا كان مشتركاً .

(تفاهموا فيما بينهم أولا ، على أن يفرحوا . وبعد ذلك فرحوا) -٦- . . (والأطفال يركضون مندهشين ، فما الفرح ؟ لا يعرفونه) - ٨ -

فهذا هو السيل الغادر يغمر مخيمهم ويجرف معه الأطفال . . . فيموت أطفال كثيرون وتموت أم فاطمة لتنقذ طفلتها « فاطمة » لتظل الأمل الباقي للشعب ولتكون رمزاً لاستمرار الشعب وبقائه

هكذا يمتزج البؤس الذي عاشه اللاجئون الذين لا يعرفون ما الفرح ، في عناق أبدي مع عرس فهد ، مع التضحية . . فالخلاص من البؤس ، الذي يجسده فرح هؤلاء الذين لايفرحون ، يكون خلاصهم منه بأن يفرحوا . . وهم يفرحون ، باقامة عرس فهد . . هذا العرس ليس

احتفالا تقليدياً للزفاف . . إنه احتفال بالشهيد . .وكأن هذه الشهادةهي التطهير للاجئين ،وهي ميلادهم الجديد ، وخلاصهم من عشرين عاماً من البؤس والألم .

ثم تصور الرواية كذلك أن الارتباط بالأرض هو أقدس شيء فهو (مقياس رضا الرب وسروره) .

(فهل أن الرب زعلان منهم وغضبان بمقدار ما أرسل وراءهم ليلة البارحة ، من سيوله ، فما أشد غضبه ! إذا كان الأمر كذلك . . لأنهم نزحوا عن أرضه وتركوها للصهاينة . فما أشد غضبه منهم لذلك) - ٣٧ - ولذا فان سرور الرب ينعكس على (أبي فاطمة) الذي لم يغادر أرضه واستشهد على باب ضيعته .

(ان الرب مسرور ولابد من زوج هذه المرأة ، أم فاطمة . مسرور منه كثيراً ما دام أن أبا فاطمة ظل على أبواب الضيعة في أعلى جبل البصمة ، يرمي الصهاينة بالفشك من بارودته العثملية العتيقة . . نعم . لابد أن الرب مسرور منه كثيراً . فكيف لا يعوضه عن كل الفشك المسترطب الذي لا يطق من بارودته على أبواب الضيعة ما قدرة . يودعها ليلة الطوفان ، في قبضة زوجته أم فاطمة) - ٣٨ -

وهكذا نرى كيف يمتزج الماضي وهو هنا أبو فاطمة الذي استشهد ملتصقاً بالأرض . . بفهد الفدائي الذي (أقسم برأس فاطمة : انه لا يتزوج ، إلا اذا ذهب وأخبر والدها ، وعاد بعلامة من عنده ، تدل على أنه موافق) - ٢٠ -

وتقدم لنا الرواية فكرة أخرى . . فالشعب الفلسطيني رغم ما يقدم من التضحيات التي هي أصبحت قدره – أبداً لا يموت .

(لا نموت نحن البصارين في عشرين سنة من الزمان . . قد نغفو قليلا ، فيظن الناس أننا ميتون . لكن متى توفرت الذخيرة يا ولد . وكانت البواريد طيبة . آه . فلابد أن ينهض حتى الذين ماتوا منا . لنطخ أعداءنا بالفشك) - ١٢٠ -

وهكذا استشهد أبو فاطمه على باب ضيعته واستشهدت أم فاطمه في القرية وهي تقاوم السيل لتنقذ فاطمه الأمل . ويستشهد حبيب فاطمه فهد ، ولكن راية النضال تظل مرفوعة (غن لنا : أن يد أم فاطمه وهي ممسكة برايتنا قد عبرت ظلام الوادي إلى قمة الجبل آه . فمن يستطيع أن يسقط رايتنا بعد اليوم ، من هناك ؟ . . . . . غن لنا : أن فاطمه . . قد امسكت بالبندقية ، هدية في ليلة عرسها من عند حبيبها فهد) - ١٢٣ -

وتقوم حبكة هذه الرواية على حدث رئيسي وهو ذهاب فهد الفدائي ليستأذن من (أبي فاطمه) الشهيد في جبل البصة بالأرض المحتلة – ويسمح له بالزواج من ابنته فاطمة بطريقة (بصاويـة) .

وهكذا نعيش منذ اللحظة الأولى ونحن نرقب وننتظر وصول فهد (العريس) ومعه الاذن .

ولكن أليس غريباً أن يذهب فدائي ، ليستأذن من شهيد بالزواج من ابنته ؟ . . هـذا حقيقة غريب ، بل ويجرد الحدث من واقعيته ، ليرتفع به الى منزلة الاسطورية ، التي عولجت بها الرواية . .

وهذا الاذن أو اللقاء – سيان – هو ربط واع من الكاتب لاستمرار النضال بين جيلين . بين الشهيد الذي مات على أرضه من أبناء الجيل القديم . . والفدائي الأمل الذي يعيش خارج أرضه – من أبناء الجيل الجديد ، الذين ليس لهم من سبيل للارتباط بالأرض إلا عن طريق (الفشك غير المستوطب) حتى لو عاد الإنسان شهيداً ، فانه يعود كما عاد فهد ومعه الاذن . . بالزواج من فاطمه . . أو بمعنى آخر عاد ومعه الاذن لارتباطه بأرضه حينما يحمل السلاح لتحريرها .

وابتداء كان يجب علينا أن نشارك اللاجئين فرحتهم ، أليست (الليلة عرس فهد البصاوى) ؟ ـ ٥ ـ . . (فكيف لا يفرحون ، والفهد قد استأذن بطريقة بصاوية . بعد أن ظل يرفض الزواج على الصورة القديمة المخيمية ؟) ـ ٦ ـ

هكذا يمتلكنا الاستعداد النفسي لتقبل احساسات السعادة ، ألسنا نشاركهم في الاحتفال بعرس فهد . ! ؟ .

ولكن حذار من الاستمرار في هذا . . . فالكاتب ذكي . . ويرينا أن الفرح طارىء في حياة اللاجئين : (تشتهي نسوة اللاجئين من زمان أن يزغردن من القلب ولومرة واحدة في العمر) ـ ٧ ـ .

ولهذا ننتقل إلى جو مأساوي . . قد ينبؤنا . . بتلك الفاجعة التي تنتظرنا حتى أن اللاجئين كانوا : –

(ان غنى المطرب ياليل . ردوا عليه : آه . وان غنى : ياعين . . ردوا عليه أيضاً . آه . . فالمطرب لحق باللاجئين واختصر . وبدون ليل ، ولا عين أخذ يغني : آه .) ص ١٧ – ١٨ . إذن فالغناء هنا ليس غناء حقيقياً ، انه تأوهات ، ويبتدىء البعد المأساوي يتسرب إلى أنفسنا . كتسرب الغاز إلى الرئتين . . فيحكي لنا عن ذلك السيل الغادر الذي اجتاح المخيم وقتل كثيراً من أطفاله .

وفاطمه . . تذهب الى قبر أمها . . لعلها تستأذن . . . فتتبعها النسوة هناك وعند قبور أولادهن وبناتهن الذين ماتوا يوم السيل الغادر . . (قعدت ، هكذا ، أمهات البصة ، يزوجن أولادهن لبناتهن ، في دائرة كبيرة من قبورهم الصغيرة ، وهي ملتفة حول قبر أم فاطمه. يا الله ! فكم انهن يفرحن بذلك ، في جبانة المخيم ، هذه الليلة ! .) - ٦٨ - .

اذن هل سيكون الفرح في عرس فهد بهذه الطريقة ! ؟ . . لم لا ! ؟ . . وهؤلاء النسوة لاجئات . . يفرحن في الجبانة بتزويج ابنائهن وبناتهن .

تلك براعة الكاتب الذي يمهد الى ذلك العرس الفاجع عرس فهد الذي كان لابد أن يتم بهذه الطريقة .

ففهد منذ طفولته كان يلعب مع أترابه فريقين :

فريق صهيوني يأسر بنتاً عربية . . وآخر عربي يهجم عليه ليخلص الأسيرة ، فان اترابه «(فبايعوا فهداً على زعامة الفريق العربي : يهجمون وراءه على الفريق الصهيوني ، ويأسرون أفراده ، لكن ، دون أن يقتربوا من الأسيرة العربية فاطمه أو يمسوها ولو بأطراف أصابعهم) - ٢٩ - .

وقد رباه والده تربية خاصة (عندي ولد وحيد هو الفهد . فلا أعلمه سوى أرض ضيعتنا . فاشهدوا يا تسعة . لا يبرح مكانه من عند أبوابها . فالدنيا ورائها لا تساوي حتى أن يلقي عليها الانسان مجرد نظرة) - ٦١ - . ففهد عنيد وشجاع ويلتصق بأرضه وحينما يعود إليها لايبرح مكانه من عند أبوابها اذن ذلك العرس الفاجع كان لنا أن ننتظره . كان علينا أن ننتظر هذا الاحتفال اللاجيء الجديد لفتى مثل فهد ، نشأ مثل نشأته تلك .

ولقد جاءت الرواية بأسلوب القص الشعبي ، تشبه في ذلك الملاحم الشعبية . الراوي يتحدث عن الاخرين ، وهو يعرف كل شيء عنهم . ويجعلهم يتحدثون بلغة بسيطة تقترب من لغة الحياة اليومية ولكنها تتدفق حيوية .

(العريس : فهد . وأبوه النمر . بصاويان بالكنيسة . . وأصل عائلتهم من ضيعة في جبل البصة . على مسافة يوم واحد من المشي عن عكا الشريفة ، لا أكثر . حيث لا بد هناك : من أن يرضى والد العروس ، بعريس ابنته . . فتلك عادة راسخة ، رسوخ الجبل من قديم الزمان الاصل ، في الأصل: أن يتزوج البصاوي في البصة . فان تزوج ، في مخيم اللاجئين فلا أقل من أن يكون ذلك ، حسب الأصول والعادات المعروفة في الجبل – وأهمها : أن يستأذن فاذن والد العروس ، دليل على رضاه . فبذلك تكون العروس قد خرجت من عند أهلها ، «وهي مرتاحة البال ، وسعيدة . فكيف يتزوج فهد بفاطمة ، دون أن يستأذن ...؟ مستحيل) ص- ٢١ -

وتقترب لغة (عرس فلسطيني) كثيراً من الشعر ...... (وتفاهموا فيما بينهم برموز لا أجنبية . عربية لكنها فلسطينية . كأنها تدق من البصة وتصلهم إلى المخيم بصورة لا سلكية) - ٦ - .

وترق لغته كثيراً : –

(هكذا ظلت العجائز البصاويات يفكرن ، وهن يلحقن بفاطمة ، باتجاه الشمال . وأمامهن بناتهن الصبايا ، مستعجلات قدامهن . ثم انهن ، وهن يتابعن المشي ، على وهنهن ، على مهلهن ، أخذن يحكين لبعضهن البعض الآخر ، كل واحدة تحكي لمن تمشي جنبها ، حكاية قديمة يعرفها جميعهن) . - ٣٤ - .

(لا أتزوج بتسكع بطريقة لا جئية . ذليلة في هذه الغربة ، بخيمية ، لا أتزوج فاطمة إلا بطريقة بصاوية . عربية الأصل ، فلسطينية جبلية) - ٦٤ - .

وقد اعتمد الكاتب على استرجاع الماضي حينما روى قصة السيول التي اجتاحت المخيم . . وقصة إنقاذ فاطمة من براثن السيول . . تسهم جميعها في بناء الحبكة وفي جلاء الفكرة الأساسية التي تقوم عليها الرواية وحينما يختم (أديب نحوي) الرواية يقول :

(فهكذا نحن اليوم نزوج بناتنا لأولادنا في ليالي أعراسهم . . نعم ، هكذا . . فاطربنا . ولا تتوقف . يا مطرب الأفراح ، يا طيب . . . ليست جنازة ما ترى . لا . وإنما هو عرس فلسطيني) - ١٢٤ - .

وهذه النهاية تشبه نهايات القصة القصيرة التي تعتمد على التكشيف من خلال لحظة التنوير فيها . . وما أشبه كلماته (ليست جنازة ما ترى . لا . وإنما هو عرس فلسطيني) بلحظة التنوير في القصة القصيرة . . التي تكشف النهاية في كلمات قليلة موحية .

إن اعتماد الكاتب اسلوب القص الشعبي في روايته ، أعطاها قدرة هائلة على احتواء ذلك المضمون الفريد الذي تتشكل منه لحمة الرواية .

لقد مكنه هذا الأسلوب من استخدام أحداث أسطورية . ترتد إلى أرض الواقع لترسم لنا صورة ليست لشخص واحد ، أو صور لأشخاص . . لا . فليس المقصود هنا أن يصور لنا (أديب نحوي) فاطمة أو فهد أو نمر البصاوي . . لا . . لقد كان هدفه أن يصور لنا الشعب الفلسطيني في مسيرته طيلة عشرين عاماً عاشها بالذل ، حتى أينعت نبتة فهد ، نبتة المقاومة الفلسطينية . . وكان الاحتفال باستشهاد فهد ، عرساً حقيقياً . . إيذاناً بانتهاء عهد الذل ، وإعلاناً عن التزاوج الحقيقي الذي يتم بين الفلسطيني وأرضه . . ولا يتم تعميده إلا على مذبح التضحية .

لا نستطيع أن نقول أن شخصيات الرواية ، شخصيات وهمية ، بمقدار مالا نستطيع أن نقول انها واقعية وحقيقية . لكننا نستطيع أن نقول أنها شخصيات واقعية . ألبست ثوباً أسطورياً ليشمل رموزاً ذات دلالات لها أهميتها .

ولنتابع تلك الشخصيات بأسطوريتها كما صورها لنا (أديب نحوي) ، فأبو فهد — نمر البصاوي :

(قاعد في الساحة لا يحكي . وإنما تحكي عيناه : ان مرحباً يا لاجئين في هذا المخيم . فهل رأيتم كيف ابني ! فهكذا يكون ابن الواحد ، إن كان من ظهره . وإلا فلا يكون الولد) . - ٩ -

إن افتخاره بأبوته لفهد قد يبرر لنا احتفاله بعرس ابنه فهد عرس الشهيد حينما عاد أبو فهد من المدينة المجاورة للمخيم ، ليعلم أهل المخيم أن ابنه فهد سيعود الليلة بناء على المخابرة التي تلقاها .

ويسأله اللاجئون ، بعد أن التموا حوله في ساحة المخيم :

(كيف يا أبا فهد . فهل أنه استأذن ؟

وأبو الفهد ظل يبتسم ، وهو يقول : فكيف يقبل فهد أن يتزوج إذن ؟ . أن لم يكن قد استأذن .) ٦ - ٧

إن العنصر البطولي والأسطوري في شخصية أبي فهد يكمن في أنه (— نعم كان يعرف . عندما استدعوه إلى مدينتكم المجاورة لمخيمنا وتلق في مكتب الفدائيين ، هناك مخابرة .

(— يبدو الآن ، أنه وحده ، كان يعرف ، ماذا جرى لفهد .بعد أن ذهب واستأذن) ١١٧ — ١١٨ .

. . إذن فأبو فهد كان يعلم بأن ابنه العريس ، قد استشهد ومع ذلك فهو يقيم عرسه ويشارك في رقصات الدبكة مع اللاجئين الذين يحتفلون بعرس فهد . .

« رقص اللاجئون ، وأبو الفهد صاح . لوح بمنديله الأبيض فوق رأسه ، وقفز في الهواء مع القافزين ، ثم نزل وصاح :

— لعيون الله يا فهد . فانك وعدت . إن كنت ابني ومن ظهري فلابد أنك وصلت ووفيت) . ٧٧ - ٧٨

---

(١) عرس فلسطيني ص . ص (١١٧ — ١١٨)

(٢) نفس المصدر ص (٧٧ — ٧٨)

هنا يكمن جلال الموقف الأسطوري الذي يصنعه أبو فهد . وجلا له لا يكمن من جلال الموت ، ولكن يكمن من تفاعل الموت وطريقة تقبل« أبى فهد » لا ستشهاد ابنه . ان هذا التفاعل هو معادلة الحياة بالنسبة للفلسطيني . . فالموت هو حياته الجديدة - ١٠٩ - وليس الموت مقصوداً لذاته . لا ، لكنه ضريبة لا بد منها لميلا د الشعب الفلسطيني . ولذا يكون لإبي فهد الحق في أن يقيم عرساً لا بنه الشهيد الذي كان ضريبة ليشق الطريق أمام رفاقه الذين يتابعون المسيرة .

نلتقي بفهد . . ومرحلته البطولية . . فهو كشخص . . ليس غريباً عنا . . نحس به ونحس بتعاطف مع رحلته .

رحلته كانت بطولية . ليست أسطورية لأنها هي رحلة الفداء التي قام بها كما قام بها رفاقه في نفس الرحلة .. وكما يقوم آلا ف عديدون من الشباب الفلسطيني في رحلا ت مشابهة، إذن ففهد ليس أسطورة فهو من دم ولحم فهو (أسمر حلو وصغير) وهو أطول من أبيه (بشبرين أو ثلا ثة) والأطفال (فلما سمعوا أنه عرس ، ظلوا لا يفهمون . لكن ما أن سمعوا أنه فهد ، ويعود الليلة إلى المخيم . يا الله ! حتى أخذوا يصفقون بأيديهم الصغيرة ويهتفون : نحب فهد . فن من أطفال المخيم ، لا يعشق الفهد ! حبيب الكبار والصغار ، فهد) - ٨ - .

وفهد يمتلك مشاعر وآمالا إنسانية هي حق طبيعي لكل إنسان في أرضه .

(قال : انه ، وإن كان لا يتذكر من الجبل سوى : البحر ، ما كان أكبره ! يا الله ما كان أوسعه . . أظل أنظر اليه ، وهو تحتنا فلا ينتهي ، مهما نظرت ! فهل هذا البحر كله لنا ؟ لأولاد ضيعتنا . . فعندما نكبر ، نقدر أن ننزل اليه ، لنصطاد كل ما فيه من السمك ؟ وسوى الوادي : ما كان أحلى الوادي ، تحت الجبل ، ممتلىء بالمرج الأخضر ، وأولا د ضيعتنا الكبار يسرحون في قلبه بقطعان الغنم ! فتى أسرح بغنماتنا فيه يا أبي ، وأشاهد الحملا ن وهي تولد ، فأحملها بين ذراعيي مساء عندما أعود بأمهاتها إلى الضيعة ، متى ؟) ١١ - ١٢ .

وفهد في طفولته كان يقود أقرانه . . وهو كلما رأى قاطعة (وهو أشجع ولد في كل المخيم ، أصبح كأنه قد وقع في الأسر فوراً ، بدون قتال) . - ٣٠ -

إذا لم يكن فهد أسطورياً . . . فاذا فعل ليكون أسطورياً ؟ . . هل هي رحلة الفداء ؟ .. طبيعياً لا ، لأنها رحلة الواجب التي يقوم بها هو وغيره من الفدائيين تجاه أرضهم وشعبهم .

---

(٣) نفس المصدر (١٠٩)

لقد كان هناك جانب أسطوري يتمثل في الهدف من القيام بالرحلة. الا وهو الاستئذان وتبتدي أسطوريته منذ أن يقرر فهد :

(لا أتزوج بنتسكم بطريقة لا أجنبية . ذليلة في هذه الغربة ، مخيمية . لا أتزوج فاطمة إلا بطريقة بصاوية . عربية الأصل ، فلسطينية ، جبلية) - ٦٤ - ولذا فإنه قرر (أنه لا يتزوج بها ، إلا بعد أن يذهب ، ويستأذن) - ١٠ - وحينما يحاولون أن يثنوه عن ذلك كان عنيداً (أقسم برأس فاطمة أنه لا يتزوج إلا إذا ذهب وأخبر والدها ، وعاد بعلامة من عنده ، تقول على أنه موافق)(١).

هنا يتجسد الموقف الأسطوري بعد أن يذهب فهد ليقابل الشهيد أبا فاطمة ويستأذنه ، فيلتقي اللاجيء الفلسطيني بالشهيد ليخبره عن رغبته بالزواج من ابنته ويطلب منه الموافقة ويعود بعلامة من عنده .

ان الموقف الأسطوري يتجلى تماماً ، حينما يتم ذلك اللقاء بين الفهد ؟ وأبي فاطمة الشهيد ، الذي ينهض من قبره حيث يدور بينه وبين فهد هذا الحوار :

(- من يطلق ، من جنبي ، على الغزاة ، الفشك . ؟

والفهد قال له :

- هل تتذكر صاحبك القديم عمر البصاوي ، الذي نزل يومها ، ليعود بذخيرة الفشك ، أم أنك نسيته ؟

وأبو فاطمة قال :

- كيف أنساه وهو صاحب العمر . وحر . إن وعد أنجز ووفى بما وعد . . وأنا ما زلت أنتظر أن يعود إلي بذخيرة الفشك - فلا بد ، مهما طال الزمن ، لا بد له أن يعود . فما علاقتك أنت به ، يا ولد ؟ .

قال الفهد :

- أنا فهد . ابنه . ولما ولدت فاطمة ، كان عمري سنتين . . فأتى بي أبي اليك . . وأخذ فاطمة بين ذراعيه وقال : هذه عروس فهد . هكذا يحكي لي أبي . فهل أنك تتذكرني ؟) . ١١٨ - ١١٩ .

هذا هو الموقف الأسطوري ، الذي فيه ينهض الموتى من قبورهم ليتحدثوا الينا ، ومع ذلك لا نحس فيه بأدنى غرابة . كما أنه لا يفجئنا . ذلك لأن (أبا فاطمة) رغم أنه استشهد

---

(١) عرس فلسطيني ص (٣٠)

على باب الضيعة ، إلا أنه يعيش بيننا ، في كل ثنايا القصة . وهو يرمي الصهاينة بالفشك ، من بارودته العثملية . . حتى لو وقف أبو فاطمة . بعد أن نهض من قبره – ليحارب مع الفهد ، بالفشك غير المسترطب لما وجدنا في ذلك غضاضة .

إن هذا اللقاء الذي صنعه (أديب نحوي) بين فهد الفدائي الذي يعيش خارج أرضه وبين الشهيد الذي دفن في أرضه وهو يقاوم العدو ، إنما هو لقاء فيه يتجسد ارتباط النضال الفلسطيني من جهة ، ومن جهة أخرى هو تأكيد على استمرار الأجيال الجديدة على طريق النضال فإذا كانت الأجيال القديمة قد ضحت وقد ماتت على أرضها . . فإن الأجيال الجديدة هي أجيال الفداء أيضاً . . . وهي وإن كانت خارج الأرض إلا أنها تحارب من أجل أن تكون في داخل الأرض حتى لو دفعت الحياة ثمناً لذلك .

أما (فاطمة) عروس (فهد) فيقول اللاجئون في المخيم عنها ، :

(أنها كلما رأت الفهد ، أصبحت من شدة فرحها ، كأنها الساعة قد خرجت من قيود الأسر) -٣٠- .

ولقد أنقذت فاطمة من أنياب السيل الذي خطف أولاد اللاجئين الصغار ، وكان عمرها يومئذ خمس سنوات ، وإنقاذها كان رمزاً للصمود والتضحية . حيث قامت (أم فاطمة) بالتضحية بنفسها في سبيل ابنتها .

(كانت أم فاطمة ، مكبة على وجهها ، متكومة على بعضها البعض . وذراعها ممدودة بين صخرتين ، تمسك بجسم ابنتها فاطمة الصغيرة وهو معلق في فراغ الهاوية ، بينما يدها الأخرى الطليقة مغروسة في تراب الأرض ، بعمق ... بعمق . . فلا يظهر منها سوى أعلى الرسغ ، وهو يقطر بالدم) -٤٧- .

والسيل يفسر لنا معاني هذه التضحية حينما يقول :

(ضيعتكم يا لاجئون سقطت . فما دامت أم فاطمة تريد أن ترجع بابنتها إلى ضيعتكم ، فيجب عليها أن تدفع الثمن) -٥٣- .

ولذا فقد دفعت أم فاطمة الثمن حينما قتلها السيل لتعيش فاطمة فتحمل السلاح الذي تناولته في عرس فهد لتكمل المسيرة من بعده .

---

(٤٧) نفس المصدر ص (٤٧)

(٥٣) نفس المصدر ص (٥٣)

وإذا كان ذهاب فهد إلى قبر أبي فاطمة لطلب الإذن منه يأخذ بعداً أسطورياً . . فإن ذهاب فاطمة لقبر أمها في ليلة عرسها لا يأخذ مثل هذا البعد ، وإن كان يحمل معاني الوفاء (إنها تفضل أن تخرج إلى بيت عريسها من عند أمها) لتطلب الإذن . .

(فهل إنك يا أمي ، كذلك ، تأذنين ! فتفكين أصابعك عن ذيل ثوبي ، لأعرف أنك راضية عن زواجي به فأذهب إليه ، وأنا فرحانة . هل أنك يا أمي ، تأذنين ؟) -٣٣.

إن الأبعاد الأسطورية التي جسدها لنا أديب نحوي تتمثل في نهوض الموتى ليتحدثوا مع الأحياء ، وكما تقول اللاجئات أن أم فاطمة قالت : —

(ما دام ان أباها قد أذن ، والفشك من بارودة فهد ، يعلق فلماذا أقول أنا ؟ . . فإني لا أمسك بها من ذيل ثوبها . لأن يدي مشغولة . أصعها على فمي وأزغرد . قلن : إنهن سمعنها من قبرها ، تقوم وتزغرد . وتقول : من عند أبي فاطمة وصلها خبر) -٧٣ .

وفي لقاء فاطمة بجثة فهد في نعشها يقابلنا مثل هذا البعد الأسطوري (انفتح النعش أمام عينيها ، وخرج منه ، وجه فهد ، واستوعب في لحظة ، بجبينه العريض ، وعينيه الحلوتين الواسعتين وجوه الآلاف من حولها ، فلم تعد ترى سواه . مد يده ومسح على شعرها ، وربت على خدها ، بحنان . وابتسم .

قال لها : مالك يا فاطمة . لماذا لا تزغردين ؟

قالت له فاطمة :

— هل آن الأوان يا حبيبتي لأزغرد لك . وكنا اتفقنا من زمان ، أن أزغرد في ليلة عرسنا هذه ، عندما تعود من البصة ، بطريقتنا ، أنا وأنت) -١٠٧ .

« وفهد يقول لها « نعم يا حبيبي . . لقد آن الأوان . نعم فهيا . زغردي لهم كما علمتك أن تزغردي ، يا فاطمة ، هيا » ١٠٨ - .

وبعد ما يأذن لها فهد الشهيد بأن تزغرد ، فإنها تريد أن تزغرد بالطريقة التي علمها لها فهد وهي إطلاق النيران .

لهذا ، فإنها سألت رفاق فهد : عن هدية أرسلها فهد إليها معهم ؟ . . فناولها أحد رفاق فهد إحدى البنادق التي يحملونها ... هدية فهد . . وتأخذ فاطمة ، في استخدام البندقية بإطلاق النيران على اللمبات فتطفئها وكأنها تطفئ الشموع في عيد ميلاد فهد . . لتشتعل (اللمبة) الكبيرة . . لمبة فلسطين وتعلن عن عيد ميلاد جديد لفلسطين . . ينبثق من الاستشهاد . فالحياة عند الفلسطينيين تنبع من جوف الموت .

قلنا إن هذه الرواية هي قصة الشعب الفلسطيني . . وهذه الشخصيات التي تتحرك فيها . مثل . . أبو الفهد وفاطمة والفهد فإنها على الرغم من أنها تحمل سمات بطولية . . إلا أنها تجسم بمجموعها بطولة الشعب الفلسطيني وترسم لنا صورته . . ولهذا اعتمد الكاتب في روايته على تحريك مجموعات كبيرة من البشر – اللاجئين – ولعله أراد إثبات أن هذه القصة ليست قصة فهد البصاوي . . ولكنها قصة البصاويين جميعهم ، قصة اللاجئين في المخيم . بل هي قصة الشعب الفلسطيني .

ويقابلنا منذ الأسطر الأولى في الرواية اللاجئون الذين يحتفلون بعرس فهد ونسوة اللاجئين اللواتي يشتهين أن يزغردن من القلب مرة واحدة ونرى مجموعات من الأطفال تجري وتفرح . وتقابل مجموعات أخرى من اللاجئين ترقص من أجل عرس الفهد . . ولنلتقي كذلك بمجموعة من النسوة – عجائز وصبايا – وهن يتتبعن فاطمة حينما تذهب لطلب الإذن من عند أمها . كذلك حينما نستمع إلى الآه فإنها تصدر من جوقهم آهات جماعية .

ونستمع في أحيان كثيرة إليهم وهم يتحدثون إلينا بصوت واحد . . (لا . لم يحدث أي خطأ في دعوتكم إلى العرس ، يا ضيوفنا ولا أي الناس . أبداً .

ههنا مكان عرس فهد . . ونحن أيضاً ، مدعوون مثلكم ، لنحتفل الليلة بزواج فهد . . نعم ؟ فهل اننا كنا نعلم ؟) -٩٦- .

هل كان طبيعياً ومقصوداً اهتمامه بالجماعات . لم لا ! ألسنا نحتفل بعرس فهد والعرس لا يكون إلا احتفالاً جماعياً . . ولا نعيش عبر الزمان الروائي مع هذه المجموعات أكثر من يوم واحد ، وهو اليوم الذي ننتظر فيه عودة فهد ونحتفل بعرسه .

دعونا نستخدم بدل الجماعات أو المجموعات كلمة « الشعب الفلسطيني » لتكون أكثر دلالة . . نعيش في الرواية مع الشعب الفلسطيني وهو ينتظر عودة فهد . لكن على الرغم من انه إذا كان هذا اليوم هو يوم استشهاد فهد . . وفي الوقت نفسه هو يوم ميلاد جديد للشعب الفلسطيني . إلا أنه ميلاد جاء بعد مخاض طويل . عمره عشرون عاماً ، من عذابات النفي والتشرد والبعد عن الأرض .

ويحكي لنا الراوي عن طريق استرجاع الماضي قصة المخاض الطويل ليثبت (« لا نموت نحن البصاويين في عشرين سنة من الزمان . قد نغفوا قليلا . . فيظن الناس أننا ميتون . لكن متى توفرت الذخيرة يا ولد . وكانت البواريد طيبة . .

آه . فلا بد أن ينهض حتى الذين ماتوا منا . لنطخ أعداءنا بالفشك ») . - ١٢٠ - .

عبر تلك السنوات العشرين تكمن قصة الشعب الفلسطيني ..... وأول ما نقابله في مسيرة

العشرين عاماً بأن هذا الشعب المهاجر قد واجه معركته بسلاح ردئ قليل العدد . وحينما هاجروا كانوا على أمل أن يعودوا بسلاح جديد .

(هناك ، على أبواب ضيعتنا قعدنا نطخهم بالفشك . والبواريد عثملية ، وعتيقة . . . وعددها عشر ،وفي أيدي كل مشةرجل منا ، واحدة من العشرة، والفشك قليل ومسترطب ، تطق واحدة من بين كل عشر فشكات . فلا بد أن تصيب صهيونياً صاعداً ليغزو الجبل نفذ الفشك يا ضيوف ، من الصرر . فقلنا : ننزل لنتزود بالفشك ، ثم نعود) - ٢٨ -

هؤلاء هم الفلسطينيون الذين يعيشون في (بيوت الصفيح التعيسة في قلب المخيم ، ممتدة الى الساحة أزقة وحارات . صغيرة متلاصقة كأنها متآخية في بؤس الغربة الطويلة) - ٧ - .

ويصور لنا تلك الغربة التي يعانيها اللاجئون حينما يتساءلون (هل في هذا العالم كله ، غريب ، سوانا ! ! ومشتاق مثلنا لأحبابه ! ! طوال الفراق ، لايعرف طعم النوم ، مقدار عشرين سنة من الليل ! ! يا مطرب الأعراس ، يا طب . . . هل في هذا العالم كله ، غريب ، سوانا ومشتاق مثلنا لأحبابه ! !) - ٢٥ - .

ومن رحلة المخاض التي عاشها الفلسطينيون في المخيم ، نرى أن نساءهم يشتهين الفرح . وأطفالهم لايعرفونه ولم يسمعوا بالزغاريد . . . (والزهر في خدودهم أصفر وقد ذبل . ثم ييبس . والشمس في عيونهم كأنها يحجبها غيم مظلم ، فلاتشع من وراء الأجفان الا باهتة خابية كئيبة) - ٨ -.

هؤلاء الأطفال الذين ييبس الزهر في خدودهم فانهم قد تعلموا الركض هرباً من السيول التي تداهم المخيم في ليالي الشتاء . . سنوات عديدة . . تلك السيول التي قتلت أفواجاً من الأطفال .

(الله أعلم باسم ذلك الصمت الكئيب العميق المخيف الذي ظل اللاجئون يستقبلون أفواج أطفالهم الموتى المحمولين الى ساحة المخيم ، من حيث كانت السيول قد ألقت بهم ليلة الأمس . الله أعلم) - ٣٥ - .

ولقد تعود اللاجئون على الموت فهو :

« ان تأخر عنا نخاف . نخاف أن يكون آتياً ليحصد بالجملة . فاحلاه أن أتى ودق على الأبواب متمهلا ، وقال : هاتوا يا لاجئون . نقول له : ونحن مبسوطون مرحباً ، تفضل وانتق من تريد من الأولاد . من لم يمت منهم بقصف القنابل ، خطفه من بين أيدينا السيل ومن لم يمت من البرد تحت الخيمة ، مات من الجوع والمرض والحرمان ، ومن لم يمت بها جميعا حتى اليوم ، فانظر إليه ، ميتاً بالذل وهو على قيد الحياة . فخذه واذهب به ، الى اخوته » . - ٩٧ -.

هذه هي رحلة العذاب التي عاشها الفلسطينيون وهي آلام المخاض طيلة عشرين عاماً يصفها ضيوفهم في العرس فيقولون (يا الله من يستطيع أن يسافر مع هؤلاء اللاجئين بنفس سرعتهم؟ من يستطيع من بيننا أن يفعل ذلك ؟ لأحد فلا بد لاحدنا ، لو أنه حاول ذلك ، من أن ينقطع نفسه في أول الطريق ، ويرجع) - ٧٦ -.

كان اللاجئون وهم يرقصون الدبكة وكأنهم قد اعتزموا السفر كيف لا وبداية السفر بدأت من رحلة الفداء التي قام بها فهد ؟ .

(وكان اللاجئون يقفزون في الهواء ، فنزلوا الى الأرض دفعة واحدة ، حيث ألقوا بثقل أجسامهم على الساحة كأنهم بضربة واحدة ، يريدون أن يفتحوا منها طريقاً معبداً ، معبداً ، يبدأون منه السفر . فاهتزت أرض المخيم) - ٧٦ - ٧٧ .

وكل هؤلاء البشر يتحركون على أرض روائية محدودة أعني أنهم من حيث المكان كانوا يتحركون في مساحة مكانية تنحصر في مخيم اللاجئين حيث يقام عرس فهد .

أما فهد فهو يتحرك إلى أرض جبل البصة . . ليطلب الاذن ويعود إلى المخيم فالمكان محدود . . وحينما تواردت أفكار عديدة عن طريق استرجاع الماضي كان المكان فيها ينحصر في جبل البصة وأرض المخيم .

وحينما خرج أبو الفهد ليتلقى المخابرة . . لم يخرج زائراً ولا مقيماً بل ذهب ليتلقى مخابرة من مكتب الفدائيين والمخابرة عن فهد . . حتى المخابرة التي ذهب ليتلقاها كانت ترتبط بهذه الأرض المحددة وكأن الاديب يحوي أراد أن يؤكد فلسطينية الأرض التي تجري عليها أحداث الرواية .

لقد كان جبل البصة ، والمخيم وما بينهما من صلة العشرين عاماً ، تؤكد أن طريق الهجرة وهو هبوط جبل البصة إلى المخيم . . . يكون هو العلاقة المكانية الوحيدة . والتي تربطهما . . ولكن حينما تكون هناك طريق الفداء والاستشهاد . . فان هذه العلاقة المكانية ستأخذ وجهاً آخر ، الا وهو صعود الجبل بدلا من هبوطه . . هذا الصعود الذي هو رحلة الفداء والتضحية .

ولقد لجأ الكاتب إلى الاكثار من تكرار قصة أبي فاطمة وقشكاته العشر المترطبة وبارودته العثملية (١) ثنايا القصة وكأنه يؤكد فيها على العلاقة بين العودة والميلاد الجديد والتضحية .

---

(١) عرس فلسطيني : انظر صفحات (٢٨ - ٣٢ - ٣٨ - ٥١ - ٥٦ - ٥٧ - ١١٨)

وعمد الكاتب الى استخدام بعض الدلالات الرمزية في الرواية . مثل السيل – اللمبات المضاءة – ثوب فاطمة .

ان الكاتب وهو يستخدم أبطاله لاجئين من أبناء المخيم يريد أن يؤكد تلك الحقيقة القائلة (بأن الثورات لاتقوم إلا على اكتاف المسحوقين) .

وهؤلاء المعذبون أبناء المخيمات . الذين يحملون جراحات فلسطين . هم وقود الثورة ووقود النضال .

وأديب نحوي في (عرس فلسطيني) حاول بتوفيق كبير أن يبرز معاني الفداء ، عندما يصبح الاحتفاء بالاستشهاد هو احتفال عرس ويكون حفلة عيد ميلاد للشعب والوطن . ومن خلال الأبعاد الأسطورية لروايته تمكن الكاتب كذلك من تصوير ذلك اللقاء بين أجيال ناضلت واستشهدت وأجيال تتابع المسيرة وتستشهد ، وتظل الراية من بعدهم مرفوعة .

وتمكن الكاتب أن يصور عذابات اللاجئين طيلة عشرين سنة من التشرد بعد أن عرفوا العلامة بندقية وفشك غير مستوطب . وكل الصور التي عرضت لحياة اللاجئين وبؤسهم لجأت إلى عرض صور موحية مثل السيل الذي يجتاح المخيم ويجرف معه الأطفال . . فنستشف من خلاله صور البؤس الذي يعانيه اللاجئون والحياة التعيسة التي يعيشها أطفالهم .

وبهذا استطاعت هذه الرواية أن تطرح القضية الفلسطينية ، بجانبها الانساني الأكثر ثراء وغناء وعمقاً ، بأسلوب فني ابتعد عن المباشرة والخطابية والتقريرية وبهذا ارتفعت إلى مستوى القضية الفلسطينية في قدرتها على التعبير عنها .

٭ ٭ ٭

فايز مقدسي

الرواية السوداء والحنين

لا يستطيع المرء أطلاق صفة اللامعقولية ، دفعة واحدة ، على الرواية السوداء إذ أن التحليل يظهر انها أشد معقولية من الأنماط الأخرى للرواية .

وقد يجوز اتهامها بالهروبية ، مع ان الهروب إلى الخيال ليس سوى التجاء إلى الواقع (١) وقد كتب (كافكا) مرة يقول " الخيال تكثيف الواقع وتحويله إلى خلاصة مركزة " ويلوح هذا التعريف بمثابة دفاع عن أوضاع الرواية السوداء .

(١) – تجدر الإشارة إلى جملة كولن ولسون « التخيل هو ما يفعله الإنسان ليزيد من حريته » .

وبينما تقدم الرواية الواقعية نسخة منقحة من الواقع ، مع ادراكها الفطن لرعب هـذا الواقع ، فان الرواية الملتزمة تميل إلى تكريس ذاتها لخدمة النظام والتاريخ ، مستترة خلف قناع — التغير — اما الرواية التحليلية ، فتهتم برصد تداعيات الشخصية ، مهملة بذلك الحادثة في حد ذاتها ، مما يصنع خللا في بنائها . وتندفع الرواية الحديثة إلى أبعد من ذلك في محاولة يائسة لاستنباط الصدق ، فتفصل بين الكائن ، وبين تأثير كافة عناصر الكون عليه ، لتدرسه منعزلا .

وتختلف الرواية عما سبق ، في انها كروح وكبناء — بغض النظر عن مستوى موهبة كتابها المختلفين — هي أقرب صيغة لفهم أزمة الروح الانسانية ، وانها بفعل حيويتها الخلاقة ، قادرة على تصوير الرعب الأساسي تصويراً عميقاً ودقيقاً ، إذ ان رعب الرواية السوداء ما هو في الواقع إلا رعب البشر الأساسي . وهي تقوم مبدئياً بوضع الإنسان في المحيط الخارق ، محيط رعبه بالذات . وإذ تتبنى هذا الرعب فانها تضفي بذلك على نفسها أشد صفات الواقعية ، ومن ثم فانها تقوم بمهمة استخلاص كافة قدرات الخيال ، وصياغة أحداثها من خلاصة هـذه القدرات . ثم ومن خلال قيامها بصنع حادثة خارقة ، فانها تؤكد على خبرة البشر في مجال القوة ، ففي هذه الرواية ، وعبر الحادثة ، لا يعود بالمقدور تميز ما هو وهمي عن الواقعي . ومن خلال هذا المزج تبرز النظرة العميقة للرواية السوداء . نظرة الكلية الشاملة . ويجد المرء أن الموتى يبعثون والأشباح تتجول والكائنات تمسخ والأحلام تتحقق والنبوءات تتم ... الـخ والأكثر من ذلك أن عناصر الرواية لا تقتصر على البشر فقط بل تتعداهم الى المكان والزمان والعناصر الأخرى في الكون ، ففي (سقوط منزل أوشر) لادجار آلن بو ، نجد الراوي يصف تأثير المنزل على صديقه « اوشر » بقوله " لقد كان يذعن لأوهام لها صلة بالمنزل الذي يقطنه منذ سنين عديدة ولم يجرؤ على تركه تحت تأثير قوة افتراضية ،طيفية قوة تعكس في ذاتها خصائص منزل الأسرة في شكله وجوهره فطبيعة جدران المنزل وابراجه الداكنة والبحيرة الآسنة التي ينعكس المنزل على صفحاتها تركت كلها اثراً عميقاً في كيانه المعنوي " .

أما الزمان وتأثيره فيحظى به المرء في أقصوصة مثل (مخطوطة في زجاجة) لبووفي (الجوهرة السوداء) أو (هي) لسير رايدر هجارد . ففي الرواية الأخيرة وهي من القصص الخيالية تبدو فكرة الزمان وكأنها أهم عناصر الرواية . انه هو الذي يصوغ الأحداث ، حيث ثمة إلحاح مباشر على فكرة الأبدية . ويجد المرء صياغة أخرى للزمان في قصة ويلز (آلة الزمان) كما يجد معالجة أخرى للحنين إلى الخلود عند ويلز ايضاً في (طعام الآلهة) ويمنح الإنسان بشكل عام في هذه الروايات امتيازات لا يستهان بها ويسمح له بدخول المناطق المحرمة . ويدفع ثمن

ذلك بان يتعرض لعذاب شديد وأهوال مرعبة كما في قصة ليويس (الراهب) ثم يتم اللقاء بين الإنسان وبين كافة القوى الخارقة ضمن أجواء خلابة ومذهلة في أهوالها (١) يتم فيها رؤيا العالم رؤية كلية (توحيد الواقع والخيال) وهذه الرؤيا تقرب الأدب الأسود بشكل عام من جوهر التجربة الروحية (٢) وتشير الرواية السوداء من ناحية أخرى إلى فكرة التحول (ضمن طموحها إلى تبديل وضعية الإنسان) وفكرة التحول تشكل موضوع " الرجل الخفي " لويلز ، حيث يقوم رجل بتجارب لتحويل نفسه إلى كائن لا مرئي .

وبهذا التأكيد على عدم التعارض بين العناصر الكونية ترتقي الرواية السوداء إلى مصاف التجارب الضخمة في مجال الخيال .

وبعبارة ثانية ، فان الرواية السوداء ، تكرس ذاتها لتتم من خلالها ، ممارسة المستحيل الذي يحلم به الناس ، ويرتاد المرء عبر الصفحات أجواء يظنها نوعاً ما ، خيالية ، غير انه يدهشه أن يشعر في أعماقه ، بذلك التذكر الملحاح لجانب منها حتى لو كان مظلماً ، ويقدم هذا الخيال القوطي مقدرة هائلة على الإثارة ، انه يتجه مباشرة إلى ايقاظ الذاكرة ، ويعطي من ثم نموذجاً عن المطلق الذي ما فتيء يحرك مشاعر البشر .

وعبر هذه الرواية ، يجد القاتل قصة طموحه ، لكون حوادثها أشد مشاكل البشر عمقاً . أما الحدس الخاص بالعدالة ، فهو يمنح هذه الرواية ، جانباً آخر من الأهمية ومن الصفاء . فكثيراً ما تقص الرواية السوداء ، قصة الميت الذي يعود إلى الحياة على هيئة شبح ليقتص من قاتله كما يحدث في هاملت لشكسبير على سبيل المثال ، وبشكل مختلف في (القلب الراوي) وفي (القط الأسود) وهما لبو . أما في مرتفعات وذرنج فان (هيثكليف) يقول " اني أعتقد أن القتلى يسحرون قاتليهم " . هذا الحدس الخارق وقد وضع ذاته في اسلوب روائي يبرهن على قوة الخيال وفاعليته ، وعلى صفاء قوة التخيل . انه علم النفس الحقيقي .

---

(١) — يجد القارىء هذه الأجواء في روايات مثل : " دراكيولا " لستوكر ، أو في قصص لافكرافت وغيره .

(٢) — يجب أن نشير إلى أن التجربة الروحية بالمقابل تتضمن رعباً . فقد كان الناسك العمودي على سبيل المثال يحفر قبره ثم يقضي حياته كلها على عاموده متأملا في القبر ، كما أن بوذا من ناحية أخرى عانى تجربة الرعب هذه بين المقابر .

عودة الموتى من ناحية أخرى ليست سوى وضع رمزي لطموح البشر الباطني . أو دلالة على عدم معقولية الموت ، فالأدب الأسود بشكل عام يقدم اعتراضه ونظامه التمردي على قصور الهدف الحياتي . وهذا الاعتراض هو اعتراض الأسطورة مع بعض التحفظ . حيث لانجهل أن « اورفيوس وجلجميش » دخلا أيضاً إلى المناطق المحرمة عبر أعماق النفس . تحدوهما رغبة الانتصار على الموت .

وثمة أقصوصة لجيكبز عن مخلب قرد ذي قوى سحرية قادر على تحقيق رغبات صاحبه ونجد أن الأم في الأقصوصة تستعمله لتطلب عودة ابنها الميت إلى الحياة . ومن ناحية أخرى فان " حادثة فالديمار " لبو تدور حول فكرة قهر الموت ايضاً .

أما النقد الذي يوجه إلى الأدب الأسود ومفاده أن الأدب الأسود يفترض الرعب أو الشر قوة غامضة تقع خارج الإنسان ، فقد يبدو سطحياً حين يضع المرء في اعتباره كلمات ترد كثيراً في القصص السوداء مثل « تحت – اسفل – بئر – قبو – اعماق – سرداب – قبر – ظلام » وتشير هذه الكلمات بشكل واضح إلى اعماق البشر ، والجدير بالذكر أن القوى الخارقة والمرعبة والطيفية والسحرية تخرج دائماً من هذه الأماكن . وحتى لافكرافت الذي كتب يقول " ان جميع قصصي . . . . تستند على الأسطورة أو الفكرة الأساسية القائلة بأنه قد كان يسكن هذا العالم في عصر من العصور نوع آخر كان يمارس السحر ، وبذلك فقد خسر الأرض وطرد منها . ولكنه ما يزال يعيش خارجاً " اذن حتى لافكرافت يشير إلى أن القوى المرعبة ليست غريبة عن الأرض . ومن جانب آخر فأنه يجدر بنا أن نلاحظ – كمثال – أن قوة السحر ليست قوة خارجية طالما انها كامنة في اللغة . حيث يعتمد الطقس السحري على ترديد عبارات وتعاويذ معينة ذات تأثير .

الرواية السوداء ، بلعبها الطفولي بالموت ، تؤكد قدرتها المدهشة على الرؤية في المناطق المظلمة وفي العالم المغلق ، انها تعرب عن عدم رضى البشر عن التاريخ ، فمعقولية الرواية السوداء هي معقولية البشر . ويجب النظر إلى خوارقها باعتبارها رمزاً للحنين الغامض إلى الأصول الأولى . هذا الحنين الذي يلهب اعماق كل كائن ، وقد صورت (اميلي برونتي) هذا الحنين الجارف في " مرتفعات وذرنج " في مشهد يعتقد فيه الراوي أن « كاترين » الميتة تقرع نافذة غرفته – التي هي غرفتها القديمة – وتصرخ « دعني أدخل » ولما يرفض الراوي أن يدعها تدخل ولو ظلت تصرخ عشرين عاماً ، تجيبه « كاترين » بجملتها الغامضة (لقد مضى علي عشرون عاماً وأنا مشردة لامأوى لي ولا ملجأ) .

وحنين كاترين ليس سوى حنين الإنسان وهو يهيم مشرداً بعيداً عن – بيته القديم – ويسأل بكافة الوسائل العودة اليه . فهذا الحنين الذي يغلف أجواء هذه الرواية نقطة ذات أهمية قصوى في فهم الطبيعة البشرية ، وفي فهم ذلك الإحساس الغامض في انجذاب كائن إلى كائن أو إلى شيء من الأشياء .

وهذا الحنين يبدو ابدياً ، لأن (الحب الحقيقي) كما قال (بريتون) لا يعتريه أي تحول ذي بال في الزمان ، والسريالية ما كانت سوى تعبير عن هذا الحنين الغامض (١) ولقد قالت « التجربة الصوفية » : (حن النصف الى النصف) (٢) والحنين هذا يحسه المرء تجاه طفولته ، وتجاه بيته ، وتجاه العابه ، وتجاه كل لحظة مرت ، انه الحنين إلى ما كان . لذلك فانه يغدو حنين الإنسان إلى مجده الضائع . وقد جعلته « التجربة الصوفية » ، حنيناً إلى الله ، والسريالية حنيناً إلى الفردوس المفقود ، وشرحه (فرويد) بوصفه حنين الخلية إلى وضعها الأصلي . والفكر الهندي بشكل عام ، جعله حنين الإنسان إلى الولادة الواحدة. وقد أكدت الأديان فكرة الحنين ، حين صورت الإنسان باعتباره مخلوقاً ذا أصل إلهي ، ثم جاءت بفكرة الخطيئة الأصلية ، لتبرر سقوطه ، جاعلة من كفاح الإنسان الروحي ، طريقاً للعودة إلى الأصل الإلهي ، وتبنى كتاب كثيرون فكرة الخطيئة هذه لتبرير الحنين ، (كغراهام غرين – واونيل – وكلوديل –) الخ ...

أما (كافكا) وهو ذو روح خارقة – يصعب معها تحديده – فانه يحتفظ لنفسه بمكانة خاصة ، عندما يلهب بطله الحنين للخروج من المأزق ويفشل . ان الحنين بصورته المبدعة ، هو محور اعمال (كافكا) . انه دائماً حنين (جوزيف ك) لمعرفة جريمته وحنين « ك » لمقابلة أسياد القصر وحنين (ساسا) للعودة إلى وضعه الإنساني .

والحنين بشكل عام ، يتجوهر في كونه تلك العلاقة السرية بين الحاضر ولحظة غابرة غير محددة من جهة ، وبين حالة معاصرة لا تنفصل عن وضعية سالفة من جهة أخرى ، ومن خلال هذه العلاقة ، تأخذ صغائر الأمور ، سمات اسطورية ، واذ تقدم الرواية السوداء ، ميتاً يعود ثانية للحياة ، فهذه طريقتها في الحنين التي لا يمكن أن تعني عدم معقوليتها . والحنين جزء لا يتجزأ من الطموح الأساسي للبشر . انه كما وصفه (هيس) " القائه الوحيد إلى الوطن " أو إلى ذلك التجانس الكوني الذي لا يفهمه إلا خيال الشاعر كما قال : (بودلير) فاذا كانت

---

(١) – لعل السريالية هي شكل قوة الارتداد إلى الخبرات الماضية .

(٢) – ابن العربي .

الرواية السوداء غير معقولية ، فان كل شيء إذن ، غير معقول ، وحتى من خلال وجهة النظر هذه ، تضحي الرواية السوداء واقعية . وكي يتمكن المرء من الإحاطة بمفهوم واقعية الرواية السوداء ، عليه أن يستوعب جيداً المفهوم الواقعي للجملة التالية : (اني استغرب وجودي هنا وليس هناك ، فليس من مبرر لوجودي هنا وليس هناك) .

ان الرواية السوداء تصوغ انماطها بناء على هذا الاستغراب ذاته .

وهذه الرواية انما تخلف دائماً حادثتها إلى طموحها ، ومن هذا الجانب يجب أن تفهم ، فاذا تناسى المرء طموحها ، قصر عن ادراك أبعادها الشاملة الأهمية المتعلقة بالخلود .

وحين تقف الرواية السوداء ضد الطبيعي ، فان روحها التمردية تبرر ذلك وان عالمها الانغلاقي ليس إلا ادراكاً روحياً بعيد النظر ، كالشعر تماماً .

* * *

سجل المعرفة السكاني

الهجرة والهجرة المعاكسة

يونس حيدر

تتصف الهجرة، بوجه عام ، بكونها نشاطاً انسانياً ، يتدخل فيه عنصر الإرادة ، وهذا مما يجعلها من الناحية السكانية ، تختلف عن غيرها من العوامل السكانية الأخرى ، كالخصوبة والموت ، فهي لا تخضع لمفهوم الحتمية ، كما هو الحال في الموت ، ولا هي شرط أساسي لاستمرار النوع البشري كما هو الوضع في الخصوبة . ومن هنا ، كان البحث عن ارتباطات الهجرة بالعوامل الاقتصادية والإجتماعية والجغرافية ، يشكل العنصر الأساسي في فهم التحركات السكانية ، وفي فهم عمليات انتقال السكان ، سواء ضمن حدود بلد واحد ، وهو ما نطلق عليه وصف « الهجرة الداخلية » أو عبر حدود دولية ، وهو ما يعرف باسم الهجرة الخارجية.

إن تفسير الهجرة ، بارجاعها إلى العامل السيكولوجي لايعتبر تفسيراً ، دقيقاً أو كافياً ،

لأن الدافع إلى الهجرة ، ليس مجرد دافع سيكولوجي ، أي أنه لايعني مجرد رغبة ذاتية في التنقل ، وإنما هناك دائماً ، عوامل اقتصادية واجتماعية ، تقف خلف هذا الدافع وتنشطه . ويبدو ذلك أكثر وضوحاً في الهجرات الداخلية ، التي تزداد اتساعاً في الوقت الحاضر ، وبشكل خاص الهجرة من الريف إلى الحضر ، والتي رغم كونها لا تشكل ظاهرة جديدة ، إلا أنها تتسم في الوقت الراهن بشمولها لمعظم بلدان العالم ، وبشكل خاص ، بلدان العالم النامي ، كما تتسم بازدياد حجمها ، بشكل سريع ، مما جعلها تبرز كواحدة من أهم المشكلات التي تعاني منها هذه البلدان .

* * *

إن دراسة الهجرة الداخلية في سوريا ، ومعرفة تياراتها المختلفة ، سواء بين المحافظات أو ضمن المحافظة الواحدة ، يعتبر مجالا جديداً ، ما يزال الحديث عنه يدور ضمن لغة وصفية ، بعيداً عن التناول العلمي ، الذي يحدد حجم الظاهرة ، ولا يقف عند حدود الوصف الخارجي لها .

إن رصيد التحركات السكانية في سوريا ، ومن خلال المعطيات الرقمية المتوفرة ، ومحاولة تحليل هذه المعطيات على ضوء معرفة الواقع الاقتصادي والاجتماعي ، إنما يشكل الاسلوب العلمي الوحيد ، الذي نستطيع من خلاله الكشف عن الدوافع الحقيقية للهجرة ، كما يمكن من خلاله تحديد الدور الذي لعبته تياراتها المختلفة في رسم الخريطة الجغرافية للسكان في القطر ، سواء فيما يتعلق بحجم السكان ، ونموهم ، وتوزيعهم الجغرافي ؛ أو فيما يتعلق بتأثير هـــذه الهجرة على تركيبهم الاقتصادي والاجتماعي .

تيارات الهجرة الداخلية :

يمكن تصنيف الهجرة الداخلية ، وبحسب تياراتها المختلفة على النحو التالي :

أ – من الريف إلى الحضر ، ٢ – من الريف إلى الريف ٣ – من الحضر إلى الحضر ، ٤ – من الحضر إلى الريف

وهذا التصنيف ، يقوم أساساً ، في تحديده لمفهوم الحضر والريف على المعايير الإدارية . بكلمات ثانية ، إن ما يحدد كون هذا التجمع السكاني حضرياً أو ريفياً ليس هو خصائصه الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية ، وإنما هو وضعه الإداري حيث يشتمل

تعريف الحضر بالمفهوم الإداري « كل مركز محافظة أو مركز منطقة ، أو تجمع سكاني يزيد عن عشرين ألف نسمة » وما عدا ذلك يدخل ضمن مفهوم الريف .

ومع أن هذا المفهوم يعتبر قاصراً من نواح عديدة ، إلا أنه يمكن أن يكون مؤشراً لمفهوم المركز الحضري والمركز الريفي ، خاصة وأنه ليس من تحديد واضح ودقيق لهـذا المفهوم ، وإنما هو يختلف دائماً من مجتمع إلى آخر ، كما يختلف ضمن المجتمع الواحد بين فترة زمنية وأخرى .

وضمن هذا المفهوم يمكن أن نلاحظ الإختلاف الواضح بين نسبة السكان الريفيين والحضريين إلى مجموع سكان القطر خلال الفترة ما بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ ، حيث انخفضت نسبة السكان الريفيين إلى مجموع السكان من ٢ر٦١ ٪ في عام ١٩٦٠ إلى ٥ر٥٦ ٪ في عام ١٩٧٠ ، في حين ارتفعت نسبة سكان الحضر من ٨ر٣٨ ٪ إلى ٥ر٤٣ ٪ خلال الفترة نفسها . وهذا إنما يؤكد على وجود حركة انتقال واسعة بين السكان من الريف إلى الحضر .

هذا وإن كان الملاحظ ، بأن حركة الإنتقال هذه ، رغم كونها شملت جميع المحافظات ، إلا أن قوتها أو بتعبير آخر ، حجمها ، كان يختلف من محافظة إلى أخرى ، ويكشف عن هذه الحقيقة بشكل واضح ، اختلاف الكثافة السكانية بين محافظة وأخرى ، وكذلك أيضاً الإختلاف بين معدلات النمو السكاني بين هذه المحافظات ، بالإضافة إلى اختلاف مساهمة سكان كل محافظة بالنسبة لمجموع سكان القطر ، الأمر الذي لا يمكن أن نعزوه إلى اختلاف مستويات الخصوبة والوفاة – وإنما إلى وجود الهجرة الداخلية – وحتى في حال وجود مثل هذا الإختلاف فإنه من غير المنطقي أن يكون له مثل هذا التأثير الذي حدث في نسبة مساهمة كل محافظة في جملة السكان ، وعلى سبيل المثال نأخذ دمشق (المحافظة والمدينة) حيث كانت تشكل ٣ر٢٠ بالمائة في عام ١٩٦٠ من جملة السكان ، وأصبحت تشكل ٢ر٢٣ بالمائة عام ١٩٧٠ ، بينما انخفضت نسبة مساهمة محافظة ادلب خلال الفترة نفسها ٦ر٦٪ إلى ١ر٦ بالمائة ، ومع أن هذا التبدل قد يبدو طفيفاً في النسبة إلا أنه يأخذ مدلولا أكبر إذا ما تحول إلى أرقام مطلقة . .

إن هذه الإختلافات في معدلات النمو السكاني ، بين المحافظات ، ومن ثم بين الحضر والريف ، وكذلك الإختلاف في نسبة مساهمة كل محافظة إلى مجموع سكان القطر ، إنما يدل على أن اتجاه التحركات السكانية لم تكن فقط من محافظة إلى أخرى ، وإنما أيضاً وبشكل

أكثر وضوحاً من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية ، سواء أكان ذلك ، بين المحافظات أو ضمن المحافظة الواحدة .

ومن هنا ، تبدو أهمية التركيز على دراسة الهجرة من الريف إلى الحضر من الناحيـة الكمية ، بهدف الوصول إلى معرفة حجم هذه الهجرة ، واتجاهاتها بين المحافظات ومن أجل التعرف على مناطق الطرد ومناطق الجذب بالنسبة للسكان .

الهجرة من الريف الى الحضر :

يشكل هذا النوع من الهجرة ، الطابع المميز للهجرة في معظم بلدان العالم ، وقد كان من نتائجه اتساع المراكز المدنية ، وتقلص حجم الريف بالنسبة إلى الحضر ، وفي تقرير أعده البنك الدولي عن الإتجاهات السكانية والإقتصادية في العالم ، جاء فيه أن عدد سكان الدول المتقدمة كان شبه متعادل ما بين الريف والمدينة في عام ١٩٥٠ (٤٣٩ مليوناً مقابل ٤١٨) في حين أصبح في عام ١٩٧٠ غير متعادل على الإطلاق إذا أصبح عدد سكان المدن ضعف عدد سكان الأرياف (٧١٧ مقابل ٣٧٤) وكما تشير التقديرات فإن هذه النسبة سوف تصبح في سنة (٢٠٠٠) ٤ مقابل ١ .

أما بالنسبة للدول النامية فلقد كان عدد سكان الأرياف في عام ١٩٥٠ خمسة اضعاف عدد سكان المدن (١٣٦٣ مليون مقابل ٢٦٥) وفي عام ١٩٧٠ انخفض العدد حيث أصبح (١٩١٠ مقابل ٦٣٥) أي ٣ مقابل ١ ، وتشير التوقعات إلى أن النسبة ستنخفض بدرجـة كبيرة في عام ٢٠٠٠ ، وإن كان الاعتقاد السائد ما يزال بأن عدد سكان الأرياف سوف يحتفظ إلى تلك الفترة من الزمن بالأغلبية السكانية .

إن الشكل الرئيسي للهجرة في العصر الحديث ، إنما يتحدد في كونه هجرة من الريف إلى المدينة ، ففي عام ١٧٩٠ كان هناك ، مثلا ، ٩٥ بالمائة من الأمريكيين يعيشون في المناطق الريفية في حين تشير الإحصاءات الحديثة إلى أن هذه النسبة انخفضت إلى عشرة في المائة .

وفي الوطن العربي ، وكما تشير بعض الإحصاءات كان سكان المدن يشكلون ما بين (٣٥ — ٤٠) في المائة من عدد السكان الإجمالي ، كما أن خمس سكان الوطن العربي يعيشون في العواصم فقط .

وعلى صعيد ، قطرنا ، يمكن أن نلاحظ وضمن تيار الهجرة من الريف إلى المدينة ، أمرين أساسيين :

أولاً : شمول هذا النوع من الهجرة لجميع محافظات القطر .

ثانياً : استقطاب المدن الرئيسية الكبرى ، للقسم الأعظم من المهاجرين .

وتشير الأرقام إلى أن عدد الذين تحركوا بين حضر وريف المحافظات حوالي ٣٨٤ر٠١٣ ألفاً منهم ٢٠٤٦٥٣ من الذكور مقابل ١٧٩٣٦٠ من الإناث ، ويتضح بأن هجرة الذكور كانت أكبر من هجرة الإناث في جميع المحافظات باستثناء محافظة السويداء التي كسب حضرها من ريف بقية المحافظات مهاجرين من الإناث أكثر من الذكور في حين كان عدد الذكور الذين كسبهم حضر بقية المحافظات أكبر من عدد الإناث .

هذا ويشكل تيار الهجرة من الريف إلى الحضر حوالي ٥٠ر٣ ٪ من الرقم الإجمالي لتيارات الهجرة الداخلية في سوريا والذي بلغ حجمه ٧٦٤٣٨٨ شخصاً ، أي ٥ر١٢ ٪ من جملة السكان .

ولم تقتصر هذه الهجرة على كونها مجرد هجرة بين المحافظات فقط وانما تميزت بشكل واضح بانها هجرة ريف كل محافظة إلى حضرها . وقد بلغ هذا النوع من الهجرة حده الأعلى في محافظة الحسكة . حيث بلغت نسبة المهاجرين من ريفها ٢ر٨٩ ٪ . تليها محافظة طرطوس ٠ر٨٥ أما الحد الأدنى لهذا النوع من الهجرة فنجده في محافظة دمشق ، حيث بلغ ٣ر٢٠ ٪ تليها محافظة الرقة ١ر٢٤ ٪ ويمكن أن نلاحظ هنا، ان الهجرة من ريف المحافظة الواحدة إلى حضرها حيث المسافات أكثر قرباً كانت نسبتها أكبر للإناث منها للذكور في معظم المحافظات .

وقد كسبت محافظة دمشق اعلى نسبة – مهاجرين من ريف بقية المحافظات حيث بلغ صافي ما كسبته ١٠٧١٦ نسمة منها ٩٥٠٦٤ ذهب إلى مدينة دمشق ، تليها محافظة الرقة التي كسبت ١٣٤٥٧ نسمة . أما بقية المحافظات فقد خسرت في عملية التبادل فيما بينها ، حيث كانت أعلى خسارة في محافظة أدلب التي فقد ريفها لحضر بقية المحافظات ١٧٩٠٩ نسمة ، تليها محافظة درعا ، حماة ، السويداء ، طرطوس ، اللاذقية وأقل المحافظات خسارة من ريفها هي محافظات حمص ، الحسكة ، حلب ، دير الزور وكما أن عملية تبادل السكان بين ريف وحضر مختلف المحافظات تشير إلى أن المحافظات الزراعية هي اعلاها فقداً للمهاجرين من ريفها ، حيث اتجه القسم الأعظم منهم إلى محافظتي دمشق والرقة ، نظراً لكون الأولى العاصمة الإدارية والسياسية ، وتتجمع بها أهم المراكز الصناعية والتجارية والعلمية ونظراً لوجود مشروع الفرات في الثانية .

ويتضح من تحليل الارقام ان عامل المسافة قد لعب دوراً هاماً في تحديد حجم الهجرة من كل محافظة الى المحافظات المجاورة لها ، حيث نجد مثلا ان ٣ ,١١ ٪ من جملة المهاجرين الريفيين الذين كسبتهم محافظة حمص قد قدموا من محافظة حماة و ١١,٦ من هؤلاء المهاجرين لمحافظة حلب قد قدموا من محافظة ادلب ، كذلك الا مر بالنسبة الى محافظة دمشق التي استقبلت اكبر عدد من محافظتي درعا والسويداء .

وخلاصة القول فان صافي عدد المهاجرين من الريف الى الحضر قد بلغ ١١٨١٧٣ نسمة منهم ٤٫٢ ٪ ذكور ، ٤٥٫٨ ٪ إناث اتجه منهم ٨٨٫٦٦ ٪ الى حضر محافظة دمشق والباقي الى محافظة الرقة اما بقية المحافظات فقد اظهرت عملية تبادل السكان بين ريفهـا وحضرها عن خسارة في صافي الهجرة ، ويمكن تصنيف المحافظات حسب صافي الكسب والخسارة في عملية التبادل السكاني بين الريف والحضر إلى مجموعتين الأولى كسبت وتشتمل على محافظات دمشق والرقة والثانية خسرت وتشتمل على بقية المحافظات .

إن الهجرة «كحدث » والمهاجرين « كافراد » وكذلك تيارات الهجرة المختلفة ، إنمـا ترتبط جميعها ، بشكل أو بآخر بواقع المعادلة غير المتوازنة التي تحكم العلاقة بين الريف والمدينة ، حيث يشكل أحد طرفي المعادلة قوة الطرد المتمثلة في الريف ، في حين يشكل الطرف الآخر قوة الجذب المتمثلة في المدينة .

إن التطور غير المتكافىء بين الريف والمدينة ، يشكل أقوى الدوافع في الهجرة الداخلية وخاصة الهجرة الريفية ، ففي حين تتمركز معظم الخدمات الصحية والتعليمية والثقافية في المدينة نجد الريف مفتقراً إلى أبسط الخدمات ، وهذا يجعل من الأسباب التي تدفع إلى الهجرة في البلدان المتقدمة ، مختلفة عنها في بلادنا ، حيث نجد مثلا ، بأن مكننة الزراعة ، لعبت دوراً أساسياً في البلدان المتقدمة في الهجرة من الريف إلى المدينة ، مما أدى إلى إنخفاض العدد الفعلي للمزارعين ، بينما ما نزال نفتقر إلى مثل هذه المكننة في الكثير من مشروعات الزراعة في بلدنـا .

ومع أن هذا النوع من الهجرة ، يجلب معه متاعب كثيرة سواء بالنسبة للمهاجرين أو بالنسبة للمدن التي يهاجرون إليها ، نظراً لأزمات السكن والمواصلات والأزمات التموينية الأخرى ، مع ذلك فإن حركة الهجرة ما تزال في ازدياد مستمر ، وبغير توقف ، ترى لماذا؟

حول هذا السؤال يجيب الخبير في المسائل السكانية « الفريد صوفي » : في اجتماع الخبراء حول النواحي الديمغرافية للتحضير والهجرة الداخلية الذي عقد مؤخراً في بيروت :

بقوله : لعل السبب الأكثر قبولا للاجابة على هذا السؤال يكمن في ظاهرة الإجتذاب والإحتمال . فلو فرضنا أن أباً من المزارعين لديه ثلاثة أبناء وانه يملك قطعة محدودة من الأرض، فقد يعتبر ذلك الأب بأن لا فائدة لقيام ابنه الثالث بالعمل فيها ، وعليه فإن الإنتاج الهامشي لهذا الابن سيكون صفراً .

أما في المدينة فإنه بامكان هذا الابن الثالث أن يكسب قوته بشكل من الأشكال سواء عن طريق العمل أو الاستجداء أو السرقة ! وبالتالي هناك احتمال كبير بان يعيش هذا الإبن المذكور من فتات موائد المدينة ، كما أن هناك احتمال ضئيل في أن ينجح فعلا في الاستقرا ر في المدينـــة » .

ومها يكن من أمر فإن هذه الظاهرة ، «أعني ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة ليست سلبية دائماً ، وخاصة عندما تكون استجابة لمتطلبات التغير الإقتصادي والاجتماعي ، أو لمواجهة احتياجات التنمية ، أو عندما تعكس نوعاً من حركية العامل وزيادة قدرته على الإنتقال من مجال عمل إلى آخر ، وإن كان ذلك يجب أن يرتبط بتخطيط مسبق يمكن من خلاله توجيه الهجرة في الاتجاه السليم ، وبحيث لا تترك لمحض الصدفة والإختيارات الفردية ، الأمر الذي يؤدي إلى تحقيق التوازن بين متطلبات الأفراد ومشاركتهم في تطوير مستوى حياتهم بالطريقة التي يختاورنها وبين مواجهة متطلبات التطور الاقتصادي والاجتماعي التي يسعى المجتمع إلى تحقيقها . .

الهجرة من الحضر الى الريف :

يشكل هذا النوع من الهجرة تياراً عكسياً ، يتمثل في عودة قسم من المهاجرين إلى الأماكن التي هاجروا منها ، وقد بلغ اجمالي السكان الذين تحركوا بين المحافظات ضمن هذا التيار ٨٧١٠٢ نسمة يشكلون ٤ر١١ بالمائة من جملة المهاجرين .

وهذا التيار ، هو بالطبع ، أصغر تيارات الهجرة من حيث حجم التبادل السكاني بين المحافظات وكذلك صافي الهجرة . وبالمقارنة بين ما كسبه الريف من الحضر وبين ما خسره إليه ، فإن هناك مقابل كل ٤ أشخاص خسرهم الريف إلى الحضر ، شخص واحد كسبه منه أي أن ما كسبه الحضر من الريف يساوي ٤ أمثال ما فقده إليه .

ويتضـــح من خـــلال الأرقام أن حجم التحركات ضمن هـــذا التيار كان كبيراً نسبياً بين حضر وريف المحافظة نفسها ، تماماً كما هو الحال في تيار الهجرة من الريف

إلى الحضر . فقد كسب ريف حلب من حضرها ٨٣٧٨ شخصاً حوالي ٨٤ ٪ من جملة المهاجرين إليه ، وكذلك الحال بالنسبة لمحافظتي حمص ، حماة ، ومن جهة أخرى فإن أصغر عملية تبادل سكان المحافظة الواحدة قد تمت في محافظة الرقة حيث بلغ عدد المهاجرين من حضرها إلى ريفها ٥٨٣ شخصاً بينما استقبلت من حضر محافظة حلب ٣٢٢٤ شخصاً أي حوالي ٧٠ ٪ من جملة ما كسبته من حضر بقية المحافظات .

وأكبر عملية تبادل للسكان بين الحضر والريف حدثت في محافظةدمشق ، حيث استقبل ريفها من حضر بقية المحافظات بما في ذلك حضرها بالذات ٢٥١١٠ شخصاً وخرج منه ، وأعني من حضرها ، ٣١١٢٦ شخصاً مما جعل عملية التبادل سالبة ، وأسفر صافي الهجرة عن خسارة قدرها ٦٠١٦ شخصاً ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن معظم الذين فقدتهم محافظة دمشق ، إنما جاؤوا إليها أساساً من مدينة دمشق حيث بلغ عدد الذين كسبتهم محافظة دمشق من حضر مدينة دمشق حوالي ١٣٢٨١ شخصاً أي أكثر من نصف عدد الأشخاص الذين كسبتهم من جميع المحافظات وهكذا نجد بأن تيار الهجرة من الحضر إلى ريف المحافظات الأخرى كان موجباً باستثناء محافظات دمشق ، حلب ، دير الزور ، القنيطرة .

إن هذا النوع من الهجرة يمكن أن تعزوه إلى أن قسماً من الذين سبق أن هاجر من الريف قد أصيب بخيبة أمل في الأماكن الجديدة وفضل العودة إلى المكان الذي هاجر منه وربما كان ذلك كنتيجة لكونه قد فشل في إيجاد العمل المناسب ، أو ربما وجد العمل ، ولكنه فشل في تحقيق التكيف مع اسلوب الحياة الجديدة ، باعتبار أن المدينة ليست هي قرية كبيرة أو مجرد تجمع سكاني يحوي عدداً أكبر من الناس . وإنما هي بالدرجة الأولى تتضمن طرائق معينة في السلوك والتفكير ، ونمطاً مختلفاً من الحياة .

كذلك أيضاً فإنه من الممكن أن نعزو هذا النوع من الهجرة إلى التحسن الذي طرأ على الأوضاع الإقتصادية ، الاجتماعية في الريف خلال السنوات الماضية وكنتيجة لقيام عدد من المشروعات الريفية .

إن الهجرة ، عموماً ، من الريف إلى المدينة لا ترتبط أساساً بتغيير في نوع المهنة ، أي أنها ليست انتقالا من حرفة إلى حرفة ، لذلك فإن الكثير من المهاجرين لا يتمسكون كثيراً باعمالهم الجديدة في المدينة عندما يشعرون بأن الأماكن التي جاؤوا منها سوف تتيح لهم فرصاً أفضل لا بل فرصاً مشابهة للعمل والحياة .

العوامل المؤثرة في تيارات الهجرة :

يمكن أن نستخلص أن الطابع المميز للهجرة في سوريا ، يكمن في أنها هجرة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية ، وأكثر المحافظات فقداً للمهاجرين في تيار الهجرة من الريف الى الحضر هي باستثناء القنيطرة : أدلب ، درعا ، حماة ، السويداء ، طرطوس في حين امتص الحضر ، أكبر عدد من المهاجرين ، وأكبر المحافظات كسباً في التيارات المتجهة إلى الحضر هي : دمشق ، الرقة ، حمص ، وهذا ما جعل معدل نمو الحضر أعلى بكثير من مثيله في الريف وغير بالتالي خريطة التوزع الجغرافي للسكان . وبناء عليه فان حصيلة التحركات السكانية في سوريا تكشف عن وجود منطقتين أساسيتين احداهما منطقة جذب وأخرى منطقة طرد وفي الحقيقة فان جميع المحافظات تشكل مناطق طرد السكان باستثناء محافظات دمشق ، الرقة ، الحسكة التي تشكل مناطق الجذب الأساسية . وبالدراسة يتضح أن التكوين الاقتصادي لمعظم المحافظات الطاردة للسكان ، يغلب عليه الطابع الزراعي باستثناء محافظة الحسكة التي أخذ صافي الهجرة اليها اتجاهاً موجباً ، وذلك يرجع إلى قيام مشروعات استخراج النفط في هذه المحافظة (حقول الرميلان) مما جعلها مصدر جذب للقوى العاملة ، وبتحليل الأرقام الخاصة باتجاهات الهجرة نجد أن الدافع الاقتصادي هو المسيطر في تحديد هذه الاتجاهات وخاصة حجم الهجرة من المناطق الريفية إلى الحضرية حيث نجد بأن المناطق الجاذبة للسكان في القطر تتسم بوضع اقتصادي خاص ، كوجود بعض المشروعات فيها ، كما هو الحال في محافظتي الرقة والحسكة أو لاعتبارها مركزاً صناعياً وتجارياً وادارياً هاماً كمحافظة دمشق مما جعل توفر فرص العمل في المدن على نحو أفضل من الريف ، خاصة وأن العمل في الريف يخضع الموسمية كذلك أيضاً ، فان تمركز الصناعات الرئيسية في المدن ، اضافة إلى توفر الخدمات الصحية والترفيهية على نحو أفضل بكثير كانت سبباً في إغراء الكثيرين بالهجرة من الريف ويلعب عامل المسافة – بالإضافة إلى العامل الاقتصادي – دوراً هاماً في تحديد حجم الهجرة سواء بين الذكور والإناث أو في الحجم الإجمالي للمهاجرين حيث نجد بأن المسافات القصيرة كانت تجتذب في معظم التيارات مهاجرين من الإناث أكثر من الذكور ، كما أن حجم الهجرة كان يزداد دائماً في حالة المناطق المتجاورة ، ويتناقص كلما ابتعدت المحافظات عن بعضها ، ومما ساعد على الانتقال سواء بين المحافظات المتجاورة أو البعيدة عن بعضها ، سهولة المواصلات ، والرغبة الملحة في تطوير مستوى الحياة والحصول على فرص عمل أفضل.

ويمكن أن نلاحظ ، بتحليل الأرقام بأن هناك ميلا لدى سكان الريف إلى الهجرة أكثر من سكان الحضر ، وقد تركزت معظم تيارات الهجرة الريفية خلال الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ حيث نجد بأن هناك ٥ر٧٦ ٪ من الذكور و ١ر٧٣ ٪ من الإناث من جملة المهاجرين الريفيين تقل اقامتهم عن عشر سنوات عام ١٩٧٠ (أي تم الانتقال في الفترة من ١٩٦٠ – ١٩٧٠) مقابل ٥ر٢٦ ٪ على التوالي ، قبل عام ١٩٦٠ .

ويمكن أن نرجع ذلك في الحقيقة ، ليس إلى مجرد الرغبة الذاتية في الانتقال ، وانما إلى واقع الريف نفسه ، الذي يدفع بالسكان إلى الهجرة ، وهذا ما جعل ، قوى الطرد أكثر تأثير في التحركات السكانية من قوى الجذب ، .

ولقد أوضحت الأرقام أن الصفة الغالبة للهجرة بين مختلف المحافظات هي زيادة الذكور عن الأناث مما جعل صافي الهجرة يميل إلى ارتفاع نسبة النوع باستثناء محافظتي طرطوس واللاذقية ، حيث انخفضت هذه النسبة ، وأكثر المحافظات التي فقد ريفها مهاجرين من الذكور هي : ادلب – درعا – حماة – السويداء – طرطوس وأقل المحافظات حمص والحسكة .

ويكشف تحليل أكثر عمقاً للمحافظات التي فقدت أعداداً كبيرة من الذكور أن نسبة الزيادة في عدد سكانها خلال الفترة بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ أعلى من نسبة الزيادة في المساحات المستثمرة . ويمكن أن نعزو نقص أو اختلاف أرقام المساحات المستثمرة في بعض المحافظات إلى التغيير الذي حصل في وضعها الإداري كنقل بعض القرى أو المناطق من محافظة الى أخرى (كما حدث في محافظة اللاذقية) أو إلى الجفاف الذي حدث في عام ١٩٧٠ وخاصة في المحافظات التي تشكل البادية قسماً من مساحتها (محافظة حمص) . غير أنه لابد من الأخذ بعين الاعتبار الأثر الواضح الذي تلعبه الهجرة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية سواء بوصفها يمكن أن تكون سبباً في هذا النقص في المساحات المستثمرة بسبب نقص الأيدي العاملة المتاحة أو نتيجة له بسبب الظروف الاقتصادية في الريف عموماً . وهذا ما يعطي تأكيداً جديداً لارتباط الهجرة في سوريا بالظروف الاقتصادية لكل محافظة ..

ويمكن أن نلاحظ بوجه عام أن الهجرة الداخلية في سوريا اتسمت بخضوعها إلى عامل الإرادة الذاتية في الانتقال ، أي خضوعها لشكل أساسي من أشكال الهجرة هو ما يطلق عليه الاختيارية وذلك بالاضافة إلى وجود شكلين آخرين هما :

١ – الهجرة المخططة أو الموجهة : وقد اعتمدت هذه الهجرة على تشجيع الانتقال في

اتجاه مناطق جديدة كما حدث في منطقة الغمر (في محافظة الرقة) وتعتمد هذه الهجرة على إعادة توزيع السكان واسكانهم بمسؤولية الدولة .

٢ – الهجرة القهرية أو الاجبارية : وتشير هذه إلى الانتقال الاجباري للسكان نتيجة لتبدل الأوضاع والظروف في مكان اقامتهم الدائمة ، أو تأخذ شكل نزوح كما هو الحال في محافظة القنيطرة بعد عام ١٩٦٧ .

وبالرغم من تعدد العوامل المؤثرة في تيارات الهجرة ، فان العامل الاقتصادي يظل هو المسيطر والأساسي ، بوصفه يشكل المعيار الذي تنطلق منه عوامل الطرد والجذب على مستوى جميع المحافظات ، وهذا مما يلقي مزيداً من الضوء على أهمية تطوير الريف ، وتمدينه ، وتنشيط الصناعة في الريف ، بما ينسجم ومبدأ « لا مركزية التصنيع » ، وخاصة فيما يتعلق بالصناعات الريفية ، والصناعات الغذائية التي تعتمد على المواد الأولية الزراعية المتوفرة في الريف .

المصادر :

1 — Dennis H. wrong Population and Sociaty New york University . third Edition . 1969

2 — United Nation Methods of meamringinternal Migration Monval VZ. ST / SOA / Series A/ 47, 1970

– التطور الاقتصادي والاجتماعي في سوريا – المكتب المركزي للإحصاء – ١٩٧٣ .

– نتائج تعداد السكان العام في سوريا عام ١٩٧٠.

– التحركات السكانية في سوريا – المركز الديمغرافي بالقاهرة ١٩٧٤ .

– ابحاث اجتماع الخبراء حول النواحي الديمغرافية للتحضر والهجرة الداخلية كانون الأول – بيروت ١٩٧٤ .

رسائل | جامعية

المشكلات النفسية لمعلم المدرسة الابتدائية

جان الكسان

للمرة الأولى ، منذ عام ١٩٦٩ ، تناقش في جامعة دمشق أطروحة لمنح درجة ماجستير .. فقد شهد احد مدرجات كلية التربية بجامعة دمشق يوم ١٢ كانون الأول من عام ١٩٧٤ مناقشة علنية تبعها منح درجة ماجستير في التربية . . وهي الرسالة الأولى التي تناقش بعد صدور مرسوم الدراسات العليا الذي اعطى التحصيل العالي في القطر دفعاً كبيراً إلى الأمام . . .

وضع الرسالة السيد عبد المجيد النشواتي واعدها باشراف الأستاذ الدكتور فاخر عاقل ، وموضوعها « المشكلات النفسية لمعلم المدرسة الإبتدائية في القطر العربي السوري » وقد استغرقت مناقشتها ساعتين ونصف الساعة بحضور الأستاذ عبد الرزاق قدورة رئيس جامعة دمشق ، وعدد من اساتذة الجامعة وجمهور من الطلاب والطالبات ، وكانت هيئة التحكيم مؤلفة من الدكتور فاخر عاقل والأستاذ نعيم الرفاعي والدكتور حسين فيصل الغزي

وتتميز هذه الأطروحة – كما يبدو من عنوانها – بأهمية خاصة لأن موضوعها يتصل بحياة قاعدة عريضة من المواطنين الذين يتولون مهمة تربية الجيل الجديد ، وأعداده .

كما أنها – وكما أكد الدكتور فاخر عاقل – في كلمة التقديم – أول رسالة من نوعها في الوطن العربي ...

وقبل أن نستعرض وقائع جلسة المناقشة ، نقدم فيما يلي تلخيصاً لفصول الرسالة

يقول صاحب البحث في تقديمه أن اختياره لمشكلات المعلم النفسية موضوعاً له ، هو اعترافاً بالأهمية الكبيرة العملية التربوية ، واعتراف بالمعلم كعامل أساسي لا غنى عنه في انجاح هذه العملية . فالمعلم يعاني من مشكلات ومصاعب تواجهه أثناء قيامه بواجبه ، وغالباً ما تحول هذه المشكلات دون انجاز العملية التربوية على الوجه المطلوب . . وبالرغم من أهمية هذا النوع من الدراسات ، فإن الأقطار العربية لا تزال تفتقدها ، وهذا ما دفع الباحث لتحقيق مثل هذا البحث نظراً لأهميته في بلاد نامية كبلادنا حيث لا يمكن التطور أن يؤدي مهمته كاملة الا بالاستناد إلى التربية

ويتابع المؤلف : « لقد كان الهدف من هذه الدراسة الوقوف على مشكلات سوء التكيف عند المعلمين الذكور ، والتي لا تمنع صاحبها من القيام بعمله ولكنها تؤذي هذا العمل في بعض الأحيان . . كما كان الهدف بيان النسب المئوية لهذه المشكلات وإيجاد العلاقة بينها وبين كل من السن وعدد سنوات الخدمة والحالة الزواجية . . كما استهدف البحث تفسير النتائج الحاصلة ومعرفة أسبابها ووضع المقترحات التي تساعد على تكيف أفضل عند المعلمين . .

أما لماذا اختار الباحث المرحلة الإبتدائية ، فلأن هذه المرحلة ، كما يقول ، أهم المراحل على الإطلاق في العملية التربوية ، وذلك ناتج من طبيعة الطفل الذي يؤم هذه المرحلة ، إذ انه يكون في مرحلة التكون النفسي والإنفعالي والعقلي ، وهذا ما يجعل عمل المعلم يختلف بطبيعته عن الأعمال والمهن الأخرى ، فهو يواجه عقولا غير ناضجة ، آتية من مستويات اجتماعية مختلفة اقتصادياً وثقافياً ، واذا اضفنا إلى ذلك ما يعانيه المعلم من الفارق الكبير بين ما يطلب المجتمع منه ، وبين ما يقدم له هذا المجتمع فعلا ، تبين لنا أن المعلم يمكن أن يكون عرضة لكثير من مشكلات سوء التكيف ، بحيث تبدو اعراضها واضحة لديه ، وتجعل نسبة حدوثها عنده أعلى من نسبة حدوثها عند غيره . .

من هنا تبدو أهمية البحث في مشكلات المعلم عموماً ، ومشكلاته النفسية بشكل خاص ، فالمعلم في المرحلة الإبتدائية عرضة لمشكلات كثيرة ومتنوعة وملحة ، وترتبط جميعها بكافة جوانب حياته الاجتماعية والمهنية ، مما يسبب الكثير من حالات اليأس عنده ، والدليل الواضح

على ذلك هو عزوف الشباب عن الاقبال على هذه المهنة التربوية وتفضيله الوظيفة المكتبية والمهنية عليها كما أكد مؤتمر اعداد المعلم العربي وتدريبه ، فاذا ما علمنا أن في سورية حوالي ٣٢٠٠٠ معلم ذكر يمارسون التعليم الإبتدائي ، ويقومون بتعليم حوالي مليون تتراوح أعمارهم بين السادسة والثالثة عشرة وإذا ما علمنا أن عدد المعلمين ما يزال يفوق عدد المعلمات في هذه المرحلة « احصاء وزارة التربية عام ١٩٧٣ » تبين لنا منشأ الإهتمام بهذه الدراسة التي اتخذت مشكلات المعلم النفسية موضوعاً لها . .

ان البحث يطرح هذا الموضوع من خلال عدة تساؤلات أساسية ثم يجيب عليها متمداً طرق الدراسة العلمية المستخدمة في مثل هذه الموضوعات من الدراسات الإنسانية ، ومستفيدة من الوسائل والتحليل الاحصائيين لصياغة النتائج صياغة كمية قدر المستطاع . ومن هذه التساؤلات : ما هي مشكلات المعلم النفسية ؟ وما هو المقصود منها ؟ . ما هي أعراضها وكيف تبدو في سلوك المعلم ؟ . ما هي نسبة حدوثها ؟ . ما هي أسبابها وما هي التغيرات المرتبطة بها ؟ وأخيراً ما هي السبل التي تؤدي الى تحسين الصحة النفسية عند المعلم ؟ . .

هذا ولقد تضمنت الرسالة ستة فصول

الفصل الاول :

يستعرض الباحث تحت عنوان : المعلم والصحة النفسية خمس نقاط أساسية هي : ١ – المعلم والمجتمع ٢ – مهنة التعليم وطبيعة عمل المعلم ٣ – اثار سوء التكيف في التلاميذ ٤ – كيف يبدو سوء التكيف عند المعلم ٥ – الصحة النفسية للمعلم وأهميتها الإقتصادية . .

ه ويستعرض الباحث في النقطة الأولى تأثير الحياة الحديثة من حيث التعقيد والسرعة في التغيير على الصحة النفسية للمعلم ، ويؤكد أن المعلم الذي لا يملك الطمأنينة والاستقرار النفسيين ، لايستطيع أن يزيل أخطاء عدم التوازن عن تلاميذه ولهذا يجب أن يتمتع المعلم بالحرية ليستطيع أداء دوره كاملا في مجتمع يدعو إلى التحرر والثورة . والتقدم والحرية المطلوبة هنا ليست حرية مطلقة ، إذ ان مثل هذا النوع من الحرية غير موجود ، بل المقصود هنا أن نفسح المجال أمام المعلم ، كاملا ، ليختار مهنته ، ويشارك في الإعداد لعمله والتخطيط له ، بحيث تساعده على تأمين صحة نفسية جيدة ، واستقرار نفسي جيد ، وبحيث يستطيع هو بدوره تأمين ذلك لتلاميذه والمجتمع من حوله . .

* وفي النقطة الثانية يستعرض الباحث العلاقة بين المعلم والمجتمع مروراً بمراحل تطور هذه العلاقة اجتماعياً واقتصادياً خاصة وان المجتمع يتطلب من المعلم أن يتصف بالصفات الحميدة التي تتصف مع أهمية الدور المناط به . . ويتعرض بعد ذلك ما لمكانة المعلم وأهميته بالنسبة للحياة الإجتماعية والاقتصادية من اعتبار وتقدير في تاريخ التربية العربية والإسلامية وفي تراثنا الأدبي والفكري والتربوي والديني ، ومع هذا فالكثير من شبابنا يعزف عن هذه المهنة في أول فرصة تتاح له ، أو يزاولها على انها خطوة أو مرحلة مؤقتة في حياته ولهذا علينا أن نقدر ما يمكن أن يعانيه المعلم من البون الشاسع بين المسؤولية التي يلقيها المجتمع على كاهله ، وبين المكانة التي يحتفظ له المجتمع بها بين افراده ، ومما يمكن أن يولد ذلك من صراعات واحباطات لديه لا تؤثر على شخصيته فحسب ، بل تؤثر على عمله وكفايته الإنتاجية وعلى كل ما يحيط به

* في النقطة الثالثة يستعرض الباحث مهنة التعليم وطبيعة عمل المعلم من حيث الدخل ، والنشاط المهني اليومي ، والمكانة الإجتماعية ، والشروط الخاصة بالعمل اذ أن مهنة التعليم ، دون سائر المهن ، تتخذ الإنسان موضوعاً لها ومن هنا تنشأ صعوبات العمل ومشكلاته

* في النقطة الثالثة ، يستقصي الباحث آثار سوء تكيف المعلم في التلاميذ من حيث تأثير شخصيته في تطور الأطفال ونموهم العقلي والنفسي والانفعالي ذلك لأن علاقة المعلم بالتلميذ تتحدد في معظم الأحوال إن لم يكن في جميعها على الإطلاق ، بالمواقف والعادات والأفكار الخاصة بالمعلم وبأشكال السلوك المختلفة التي يتخذها تجاه تلاميذه . . ثم ان المعلم كانسان معرض لمشكلات سوء التكيف كغيره من الناس ، إلا أن الآثار التي يتركها سوء تكيف المعلم في تلاميذه هي من الخطورة بشكل يمكن تصورها أو تخيلها أو حتى التنبؤ بنتائجها ، وذلك للعمليات المعقدة التي يمر بها الطفل في اثناء نموه النفسي

* في النقطة الرابعة يستطلع الباحث كيف يبدو سوء التكيف عند المعلم من خلال وقائع وحالات معينة ؛ ضرب الطالب – شده من شعره – السخرية منه الخ . . كما يستعرض بالمقابل الصفات التي يريدها التلاميذ في المعلم كالمواقف الديمقراطية واللطف ، والصبر ، والعدل ، والمرح الخ . . . ويؤكد الباحث أن سوء التكيف عند المعلم يأخذ مظاهر كثيرة ، فالعقاب وطريقته ، والتهكم ، والسخرية ، والتسلط ، وعدم السماح بالتعبير عن الذات ، والرفض المستمر لكل شيء ، وعدم التسامح والتحيز الخ . . ليست إلا بعض الأشكال البسيطة التي يتبدى فيها سوء التكيف عند المعلم والتي تخفي وراءها نفساً قلقة وغير متزنة ولامستقرة .

• في النقطة الخامسة يدرس الباحث الصحة النفسية للمعلم وأهميتها الإقتصادية ، ويستنتج ان المعلم سيء التكيف ، يؤثر تأثيراً ضاراً وبليغاً في تكوين العنصر الأساسي في عملية التنمية الإقتصادية ، وتنقلب التربية لديه إلى تربية « استهلاكية » لا « استثمارية » كما هو منتظر منها وتصبح العملية التربوية عملية خاسرة في الوقت الذي تنعقد فيه عليها الآمال في التقدم والتطور .

الفصل الثاني :

طرحه الباحث تحت عنوان رئيسي هو « تعريف المشكلة وفروض البحث » واشتمل على ثلاث فقرات أساسية هي : ١ – تعريف المشكلة المراد دراستها وتحديدها ٢ – أهداف البحث ٣ – المشكلات المفترضة ، تعريفاتها الإجرائية ، اعراضها – العبارات التي تكشفها . .

• في الفقرة الأولى تعريف للمشكلات النفسية التي يتعرض لها المعلم في المرحلة الإبتدائية ، والتي هي كثيرة وملحة وترتبط بكافة جوانب حياته ، ويقصد الباحث بالمشكلات النفسية ، حالات سوء التكيف التي تبدو آثارها في سلوك المعلم والمرتبطة بشروط حياته المهنية والخاصة ولها صفات عديدة « وردت لدى الباحث ست صفات »

• وفي النقطة الثانية يقوم البحث على افتراض أولي وهو وجود مصاعب يواجهها المعلم بحيث تؤدي إلى الكثير من حالات سوء التكيف وبالتالي إلى المشكلات النفسية عنده وقد صنفها المؤلف بأنها :

١ – رجاع انفعالية غير مرغوب فيها

٢ – سمات شخصية غير مناسبة

٣ – عوائق اجتماعية

٤ – عادات عمل سيئة ٥ – اعراض جسدية معيقة ٦ – اعراض سوء تكيف سابقة ٧ – مشكلات جنسية ٨ – الانطواء ٩ – فقدان مغزى الحياة ١٠ – الاتجاهات حيال السلطة ١١ – البغضاء ١٢ – الثغرة بين الواقعي والمثالي ١٣ – اليأس أو القنوط

• أما أهداف البحث في النقطة الثالثة من الفصل فقد لخصها الباحث في خمس نقاط مرتبطة بالسن وسنوات الخبرة في التعليم ، والحالة الاجتماعية للمعلم . . وهذه الأهداف هي :

١ – التأكد من وجود هذه المشكلات لدى المعلم في المدرسة الإبتدائية أو من وجود بعض منها

٢ – العمل على ايجاد النسبة المئوية للمعلمين ذوي التكيف السيء بشكل عام وذلك من أصل عدد المعلمين الذين تقوم الدراسة حولهم

٣ – تحديد النسب المئوية لكل مشكلة على حدة وبيان اكثر المشاكل عمومية

٤ – بيان عدد اعراض سوء التكيف التي يعاني منها المعلم .

٥ – بيان العلاقة او معامل الارتباط في حال كونه ذا دلالة بين المشكلات وبين السن وسنوات الخبرة في التعليم والحالة الاجتماعية .

الفصل الثالث :

يدرس الباحث في هذا الفصل الذي لايتسع المجال لايراد تفاصيل له الدراسات السابقة في هذا المجال لدى كل من : العاقل – بلير – بيك – بيسون – واطسن – فنتون – جيرسلد – ريدل – رفاعي ..

الفصل الرابع :

لعله اهم الفصول من حيث انه يطرح منهج البحث وأدواته من خلال :

١ – الدراسة الاستطلاعية والفرض منها ٢ – الدروس المستفادة من الدراسة الاستطلاعية ٣– تحديد العينة وحصرها ٤ – اسلوب اختيار العينة ٥ – وصف العينة ٦ – تطبيق الاستخبار ٧ – تفريغ النتائج . .

احتوى الاستخبار على كل مشكلة دارت حولها الاسئلة بشكل مفصل ووردت في الفصل الثاني كما رأينا . . كما احتوى على استمارة للبيانات الشخصية تضمنت : ١ – العمر ٢ – عدد سنوات الخدمة ٣ – الحالة الزواجية ٤ – عدد أفراد الاسرة ٥ – الراتب الصافي مع التعويض العائلي . . وقد قام الباحث قبل تعديل الاستخبار ووضعه في صورته النهائية بدراسة استطلاعية تمت على ٢٦ معلماً يعملون في مدرستين من مدارس دمشق . .

وقد رأى الباحث ان تقتصر عينة البحث في النهاية على معلمي محافظة مدينة دمشق ومحافظة دمشق ومدينة درعا لاسباب اورد تفصيلها وبحيث تكون الحصيلة اقرب ماتكون الى حصيلة

دراسة شاملة لجميع معلمي القطر . . واتبع في الاستخبار اسلوب العينات المتعددة المراحل وكان العدد الاجمالي للعينة الذي تمت حوله الدراسة ٢٢٥ معلماً يمثلون ٩,٦٥ ٪ من المجتمع الاحصائي للمعلمين العاملين في هذا المجال . وقد اختار من دمشق ١١٠ معلمين ، ومن محافظة دمشق ٧٠ معلماً ومن مدينة درعا ٤٥ معلماً كما قسم الاعمار الى فئات « خمس سنوات لكل فئة » كما تبين الجداول المرفقة بالبحث ثم قام بتفريغ النتائج بعد جمع الاستخبارات وفرزها بحسب المناطق ثم الاعمار ثم سنوات الخدمة ثم حسب الحالة الزواجية وذلك في جداول خاصة اعتمدت الترتيب التنازلي .

الفصل الخامس :

اشتمل على نتائج الدراسة وتفسيرها من حيث :

آ – الترتيب التنازلي العام للمشكلات ونسبها المئوية .

ب – عرض الترتيب التنازلي لعبارات كل مشكلة على حدة .

جـ – بيان نسب كل مشكلة على حدة حسب متغيرات العمر والخدمة والحالة الزواجية والمنطقة التي احدث منها .

د – تفسير نتائج هذه المشكلات بحسب المتغيرات السابقة .

هـ – المشكلات العامة التي يشكو منها المعلم . . ثم الاستنتاجات العامة .

وقد تبين من جدول الترتيب التنازلي العام للمشكلات ونسبها المئوية مايلي :

الاتجاهات حيال السلطة « ٤١,٥٧ » – رجاع انفعالية غير مرغوب بها « ٤٠,١٣ » – الثغرة بين الواقعي والمثالي « ٣٨,٠٢ » – سمات شخصية غير مناسبة « ٣١,٩٢ » – الانطواء « ٢٨,٧٦ » – اعراض سوء تكيف سابقة « ٢٨,٢٩ » – اليأس أو القنوط « ٢٨,١٤ » البغضاء « ٢٨,٠٣ » – فقدان مغزى الحياة « ٢٧,٤٠ » – عوائق اجتماعية « ٢٧,٢٠ » – عادات عمل سيئة « ٢٧,٠٢ » – اعراض جسدية معينة « ٢٥,٥٥ » – مشكلات جنسية « ١٨,٧٩ » .

وقد بينت الاستنتاجات العامة للدراسة ان عملية التكيف بالنسبة لتغير السن ان المعلمين الاكبر سناً هم احسن تكيفاً بصورة عامة وان اكثر فئات الاعمار عرضة لمشكلات سوء التكيف هي الفئات التي تتراوح بين ٢١ – ٢٩ سنة والتي تتراوح بين ٤٠ – ٤٩ سنة .

اما بالنسبة لتغير عدد سنوات الخدمة ، فان نتائج الدراسة اظهرت ان المعلمين المبتدئين هم اكثر عرضة لمشكلات سوء التكيف ، كما اظهرت ان التكيف يتحسن مع ازدياد عدد سنوات الخدمة . .

وبالنسبة للحالة الزواجية . بينت الدراسة ان المتزوجين عموماً هم اقل تكيفاً من غير المتزوجين .

وقد صنف الباحث المشكلات العامة التي يعاني منها المعلم في مجموعتين :

١ — المشكلات الخاصة بالعمل وطبيعة المهنة .

٢ — المشكلات الاقتصادية والاجتماعية .

واكد ان هذه المشكلات ربما تكون احد العوامل الكامنة وراء مشكلات سوء التكيف التي اظهرتها نتائج الدراسة .

الفصل السادس :

اشتمل على الاقتراحات وهي — باختصار — :

١ — تحقيق المزيد من البحوث والدراسات حول مشكلات المعلم .

٢ — النظر الى مهنة التعليم على انها نوع من الاختصاص يجب ان يؤهل العامل فيها كما يؤهل الطبيب أو المهندس .

٣ — ايجاد الحوافز اللازمة التي تدفع بالعناصر الجيدة من الشباب للانخراط في مهنة التعليم . .

٤ — شكا المعلمون من عوامل معينة تسبب سوء التكيف لديهم وهي العوامل المالية . والمركز الاجتماعي ، والعوامل المرتبطة بطبيعة العمل ، والعوامل المرتبطة بفرص التقدم والترقية ، .

٥ — بينت نتائج البحث ان المعلم المبتدىء اكثر عرضة للمشكلات النفسية من المعلم المتمرس .

٦ — هناك اتجاه عالمي يسود كافة النظم التربوية العالمية لقصر التعليم الابتدائي على المعلمات ، وان ذلك لم يكن عفو الخاطر ، فالمعلمة اكثر قدرة على تفهم الاطفال

والتعاطف معهم . . كما انها اكثر صبراً واناة من المعلم ، ولقد دلت الدراسات السابقة لهذا الموضوع ان المعلمات اكثر رضى من المعلمين عن مهنة التعليم ، لذا فإنه من المستحسن ، والامر كذلك ، قصر مهنة التعليم الابتدائي على المعلمات فقط ، لما تتمتع به الانثى من صفات يجب ان يتحلى بها المعلم ، وأسوة بكافة النظم التربوية الحديثة المنتشرة في العالم المتقدم . .

وقائع جلسة المناقشة :

افتتح الدكتور فاخر عاقل جلسة المناقشة بمقدمة اكد فيها ان معلم المدرسة الابتدائية عندنا يستحق مثل هذا الاهتمام لأسباب علمية واجتماعية ونفسية ، ولأننا نوكل إليه امر المساهمة الاساسية في بناء مستقبل بلدنا والاهتمام بأولادنا في سن خطرة ، ولهذا كان من الضروري ان ندرس مشكلاته مع المجتمع — كما في هذه الدراسة — والحلول التي نريدها لهذه المشكلات واذا كان غيرنا ، في الدول المتقدمة ، قد سبقنا الى مثل هذه الدراسات ، فهي الاولى في الوطن العربي تعالج هذه المشكلة بالمعنى الواسع لها . .

وبعد أن استعرض صاحب الرسالة الدراسة في تلخيص جيد فصولها الستة ، اوردنا تلخيصاً لها في الفقرات السابقة ، بدأت المناقشة التي سنورد فيما يلي ماجاء فيها ، مع التأكيد بأن الاساتذة الثلاثة اجمعوا على اهمية هذا البحث ، واقتراح الدكتور فاخر عاقل تعميم هذا البحث في المستقبل وتوسيعه في دراسات وبحوث ليشمل المعلمات والمدرسين والمدرسات في المرحلتين الاعدادية والثانوية لكي نحصل في النهاية على صورة متكاملة عن واقع ومشكلات القائمين بمهمة التعليم ، لتقديمها الى الدوائر المسؤولة حتى تساعد في تطوير واقع التعليم في بلدنا . .

وقال الدكتور الغزي قبل ان يناقش البحث ان الطابع العلمي للخطوات التي سار عليها الباحث تدل على انه كان وراء هدفه باتقان ، وهذه الرسالة تعتبر فتحاً في صلب مهام كلية التربية ، لان عمل هذه الكلية يجب الا يقتصر على اعداد المعلمين والمدرسين ، بل ومتابعة مايجري في حياتهم العملية بعد ذلك . .

واستأثر الاستاذ الرفاعي ، عميد كلية التربية ، بالقسم الاكبر من وقت المناقشة ، حيث ناقش الباحث في كثير من النقاط التي اوردها نظراً لاهمية مثل هذه الدرجة العلمية العليا التي تعطى لمثل هذا البحث كما تحدث الدكتور فاخر عاقل حول الاسلوب العلمي الدقيق

المتبع في اعداد الرسالة قائلا : يدرس طلاب كلية التربية في الدراسات العليا ، طرق البحث العلمي في التربية وعلم النفس ، ولذلك فهم جميعاً ملمون بهذه الاصول ، ويستطيعون ان يعالجوا بحوثهم معالجة علمية دقيقة وفق ادق الاصول العلمية . .

اهم مراحل المناقشة :

تحدث الدكتور فيصل الغزي فأورد الملاحظات التالية :

١ – كان يود ان تكون الدراسة التاريخية لمكانة المعلم في التاريخ العربي والاسلامي اطول مما وردت واعمق . . فرد الباحث بقوله ان هدف الدراسة ليس تاريخياً .

٢ – كان يود ان يكون الحديث عن واقع المعلم في قطرنا بدل الحديث عن المعلم المثالي ، كأن يقوم الباحث بدراسة واقع التعليم الابتدائي .. وأجاب الباحث ان هذا الموضوع يمكن ان يكون مجالاً لدراسات أو بحوث اخرى .

٣ – تمنى الدكتور الغزي على الباحث لو تقدم لحل المشكلات النفسية عند المعلم ، كالانطواء مثلا ، وكيفية علاجه . .ورد الباحث بقوله ان هذه المشكلات ليست من السهولة بشكل يمكن معه ان تحل بوصفة جاهزة ، بل هي بحاجة الى دراسات فردية عميقة والى توجيه وارشاد نفسيين وتربويين ليسا مــــن اهداف البحث .

٭ وتحدث الاستاذ نعيم الرفاعي قائلا : انني لن اذكر النقاط الجيدة الكثيرة التي اتى بها البحث ، لضيق الوقت ، وانما سأتكلم عن النقاط التي اراها بحاجة الى نقاش او استفسار وهذه اهمها :

١ – تصنيف بعض الدراسات غير التجريبية مع الدراسات السابقة للبحث وقد رد الباحث بقوله بأنه قسم الدراسات السابقة الى دراسات تجريبية واخرى ادبية . .وأشار الى ان النوع الثاني من هذه الدراسات لم يكن موضوعات انشائية ، بل اعتمد اصحابها على رسائل غير مطبوعة بحثت في ميدان الدراسة الحالية لنيل الدرجات العلمية المختلفة .

٢ – تساءل الاستاذ الرفاعي عن عدم دراسة اثار سوء تكيف المعلم على التلاميذ بصورة تجريبية . . وأجاب الباحث بأن هذا ليس من اهداف البحث ، كما ان الوسائل

العلمية ، والتجريبية ليست متوفرة في قطرنا بشكل يمكن من دراسة مثل هذه الجوانب الهامة والشائكة . .

٣ — سأل الباحث عن السبب الذي حدا به لعدم مقارنة نتائجه بنتائج الدراسات السابقة ، فأجاب بأن بحثه ليس بحثاً في المقارنة بل هو بحث توخى منه فقط دراسة المشكلات التي طرحها في بداية البحث ، وبيان نسبها واسبابها . . ثم قال بأنه قام بدراسة الاحوال الاجتماعية والاقتصادية للمعلمين المتزوجين عندما رأى ان نتائج بحثه تتعارض مع نتائج البحوث الاجنبية التي تمت في هذا المضمار .

٤ — سأل الاستاذ الرفاعي الباحث عن عدم دراسته لبعض اشكال الانحرافات في عمليات التكيف التي تؤدي بصاحبها لايداعه في مصحة نفسية وتركه التعليم .. فأجاب الباحث بأنه قد حدد المجتمع الاحصائي لدراسته في معلم المدرسة الابتدائية القائم بعمله والمتصل اتصالا صحيحاً بمجتمعه وبحيث يكون واعياً لمشكلة قادراً على متابعة تطوراتها ومدركاً لاسبابها . . اما الانحراف او الشذوذ فهو خارج المجتمع الاحصائي للدراسة . .

قرار هيئة التحكيم :

في ختام المناقشة وبعد جلسة المداولة اعلن الدكتور فاخر عاقل قرار هيئة التحكيم وكان نجاح السيد عبد المجيد نشواتي بدرجة ماجستير في التربية وبتقدير جيد جداً ، ودرجة مقدارها ٨٠ من مئة اي في ذروة درجة جيد جداً ..

والواقع ان هذه الخطوة الجديدة لجامعة دمشق ، وبعد صدور المرسوم الخاص بالدراسات العليا ، تأتي فاتحة طيبة مماثلة في مختلف المواضيع والاختصاصات ، ولمختلف كليات جامعاتنا ، خاصة وان هذا البحث ، من حيث اختيار موضوعه ومعالجته وطريقة الاشراف عليه ، ومناقشته ، جاء في مستوى يؤكد مدى جدية التحصيل في هذا القطاع التربوي والتأهيلي في مجتمعنا ، ويؤكد جدارة مؤسساتنا الثقافية والتربوية في تأهيل وتخرج كوادر على مستوى عال من الامكانات والكفاءات المطلوبة . .

* * *

اعـــلان

في نطاق الإستعداد لإحياء الذكرى الألفية للشاعر ابن زيدون القرطبي الأندلسي وتبعاً لما سبق أن أعلنت عنه وزارة الثقافة يهيب وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بالفنانين الموسيقيين مغاربة وغيرهم من أبنـاء الوطن العربي أن يقوموا بتلحين إحدى القطع المناسبة من شعر ابن زيدون .

وقد خصصت لذلك ثلاث جوائز قيمة قدر كل واحدة منها خمسة آلاف درهـم .

- جائزة لأمثل لحن عربي مبتكر ومستوحى من البيئة الأندلسية
- جائزة لأمثل لحن عصري عربي
- جائزة لأمثل لحن عصري غربي

وستخصص الجوائز لكل لحن جديد خاص بالمناسبة ، متوفر على دقة العزف وحسن الصوت ، متمكن من النوبات ، محسن التصرف فيها مـع سلامة الأداء للشعر العربي .

فعلى الراغبين في المساهمة أن يبعثوا بانتاجهم مسجلا على شريط تسجيلا جيداً بسرعة ٥٠ر٧ (١٩) إلى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـة شارع غاندي . الرباط . وآخر أجل لتقديم الإنتاج نهاية مارس (آذار) المقبل بحول الله .

ويمكن للمغاربة من الموسيقيين الإتصال بمصلحة التعليم الفني بالوزارة لتمكنهم من مجموعة المختارات الشعرية ، التي أعدت لهذا الغرض .

شروط المسابقة الموسيقية

١) في حالة اختيار المؤلف المشارك في المسابقة ، التلحين وفق النمط الموسيقي الأندلسي يجب عليه أن يلتزم بالقوالب الموسيقية الأندلسية التي نلخصها فيما يلي :

أ) قالب الصنعة المبنية على القصيدة

ب) قالب الصنعة المبنية على التوشيح

ج) قالب التخليل

ويشترط أن يكون اللحن مبنياً على أوزان الموسيقى الأندلسية الخمسة وهي :

البسيط – القائم ونصف – البطايحي – الدرج – القدام .

وللمؤلف الاختيار في وضع لحنه وفق الحركتين الموسيقيتين (البطيئة وحركة الانصراف – السريعة) مع مراعاة الفقرات الزمنية لكل وزن .

٢) يتعين على المؤلف الذي سيختار التلحين وفق القوالب الموسيقية العربية الإلتزام بالأنغام والأوزان الشرقية ، وأن يراعي في عمله الإبتكار والتطوير حسب القالب الذي سيختار التلحين فيه .

٣) على الملحن الذي يفضل التلحين على النمط الغربي أن يضع في اعتباره خضوع عمله للطريقة العلمية مع مراعاة ادخال عناصر هارمونية بالإضافة إلى توزيع آلي يتمشى والطرق المستعملة في الموسيقى العالمية .

٤) المقطوعات الغنائية يجب أن لا تقل عن خمس دقائق وأن لاتتعدى عشر دقائق .

٥) ترسل القطع إلى مصلحة التعليم الفني مسجلة على شريط بسرعة (٧,٥٠) (١٩)

أما القطع الموضوعة وفق الأسلوب الغربي فيستحسن أن ترسل مكتوبة وموزعة بالنوطة الموسيقية ، وآخر أجل لقبول القطع المرشحة ٣٠ مارس (آذار) ١٩٧٥ .

بـــلاغ

تذكير بمبـــاراة الفنون التشكيلية

في نطاق الاستعداد لإحياء الذكرى الألفية للشاعر ابن زيدون وتبعـاً لما سبق أن أعلنت عنه وزارة الثقافة ، يهيب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بالفنانين التشكيليين مغاربة وغيرهم من أبناء الوطن العربي أن يتخيلوا صوراً تعبر عن شخصية الشاعر ابن زيدون وولادة بنت المستكفي وملاءمها أو تترجم جانباً من حياتها النفسية والعاطفية بعد دراسة عميقة لحياة الشاعرين وأوصافها من خلال الكتب والمرويات .

وقد رصدت الوزارة لذلك ثلاث جوائز قيمة قدر كل واحدة منهـا خمسة آلاف درهم .

فعلى الراغبين في المساهمة الإلتزام بما يلي :

– أن يكون طول اللوحة بالنسبة للرسامين من ٥٠ سنتيماً فما فوق

– أن لا يكون الإنتاج موقعاً رسماً كان أو نحتاً أو نقشاً .

– أن يرفق برسالة بها بيانات توضيحية عن الإنتاج ومذيلة باسم المنتج وعنوانــه .

وآخر أجل للقبول ، نهاية مارس المقبل بحول الله ويبعث الإنتاج أو يسلم إلى مصلحة التنشيط الثقافي بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، شارع غاندي – الرباط .


يانصيب المعرض
يقدم
لصاحب الحظ
١٥٠,٠٠٠ ل.س
٦٠,٠٠٠ ل.س
٣٥,٠٠٠ ل.س
٢٥,٠٠٠ ل.س
يجري السحب كل يوم ثلاثاء من كل اسبوع